مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن زماننا كثير التعقيد كثير التحديات، كما أنه كثير الفرص والبدائل والمعطيات. وإن كثيرًا من الناس يعانون من كثرة الانشغال وغياب وَعْيهم عن كثير من القيم والمفهومات التي تشكل جوهر حياتهم. ويضحي النجاح في لفت انتباههم إليها عملاً قيمًا في حد ذاته؛ ولو كانت استجابة الناس محدودة.

وأعتقد أن علينا أن نبذل ما نستطيع من جهد في سبيل إثارة اهتمام جماهير المسلمين نحو قضايا التربية والتعليم؛ بوصفها القضايا الأكثر فاعلية في تشكيل ملامح الأجيال الجديدة. ولن نستطيع أن ندرك مدى حاجتنا إلى المدارس الجيدة إلا إذا تصورنا جيلاً من غير قراءة ولا كتابة، وآنذاك لن نرى سوى الأُمِّيَّة وضيق الأفق والسذاجة والخرافة والبطالة وتدهور الشخصية وتفاهة الاهتمامات... وهذا يعني انهيارًا كاملاً للإنسان، وبالتالي للمجتمع. ولهذا فإن كَوْن أول كلمة يهبط بها جبريل -عليه السلام- على النبي -صلى الله عليه وسلم- تحث على القراءة يُعَدُّ عميق الدلالة في هذا الشأن.

وحين نركِّز اليوم على ضرورة رفع سوية التعليم، وتحسين مستوى الدارسين في المدارس والجامعات؛ فإننا نأخذ بعيْن الاعتبار أننا نعيش في عالم مفتوح يمور بالتواصل والتأثر والتأثير المتبادل. وإن قيمة ما تقدمه مدارسنا ومعاهدنا من تربية وعلم وتدريب لن تكون مطلقة، وإنما بالقياس إلى ما تقدمه المؤسسات التعليمية لدى الدول الصناعية؛ لأن طبيعة العلاقة بين العالم الصناعي والعالم النامي - أوجدت معادلة تقول: إن أي تفوق يحرزه أبناء الدول الصناعية

الكبرى -في أي مجال- سوف يدفع أبناء الشعوب النامية جزءًا من تكاليفه. كما أن أي تقدم يحرزه أبناء الشعوب النامية -في أي مجال من المجالات- سيؤدي إلى تحسين موقعهم في تبادل المنافع مع الشعوب المتقدمة، وسيدفع هؤلاء في مقابله شيئًا لهم... وهكذا.

ويمكن أن نستجلي أهمية الارتقاء بالتربية والتعليم من خلال المفردات الآتية:

1- إن فهم الإسلام والتفاعل مع مبادئه وأطره وآدابه؛ لا يتم في حقيقة الأمر من غير امتلاك درجة جيدة من الرقي الفكري والثقافي والشعوري؛ ذلك أن تحرير العقل من أغلال الوثنية والخرافة والجهل، والارتقاء باهتمامات الإنسان، وتوجيهها الوجهة الصحيحة، وقيادة الذات من خلال السيطرة على رغباتها، وتأسيس علاقات اجتماعية تقوم على الرحمة والتعاون والإنجاز المشترك... إن كل هذه الأمور من جملة ما يهدف الإسلام إلى جعله واقعًا حيًّا في حياة الناس.

وهذه المعاني والمفهومات والرموز الراقية يصعب على الوعي البشري التعامل معها وتمثلها من غير وسيط ثقافي ومعرفي، وهذا الوسيط يوفره التعليم في مراحله المختلفة. ونحن -مع الأسف- لم نقم إلى الآن بأي دراسة شاملة وذات قيمة حول تأثير الأمية وتدني درجة التعليم في ضعف الالتزام والإعراض عن المنهج الرباني الأقوم. لا ريب أن العلم لا يجعل المسلم دائمًا أفضل التزامًا، ولكن يجعله أكثر حساسية نحو مسائل التدين والارتقاء الخلقي والفكري، وتلك الحساسية بعيدة الأثر في جعل المرء أكثر استعدادًا لأن يستمسك بالحق، ويضحي من أجله، ولأن يحرص على أن يتخذ موقفًا واضحًا تجاه مسائل الحياة المختلفة. وهذا كله يدني المرء من التدين، ولا يبعده عنه.

وهذا ما نشاهده في الصحوة الإسلامية المباركة التي نتفيأ ظلالها؛ حيث إن معظم أبنائها من المثقفين وطلاب الجامعات وخريجيها.

2ـ التقدم العلمي والتقني الذي يشهده العالم في كل لحظة أعطى للتعليم أهمية إضافية، حيث إن كل المعادلات تتجه لتصبَّ في صالح كل ما هو صناعي ومكتسب. وكما قلل التعليم والتدريب من أهمية القدرات العقلية الفطرية، فإن التراكم العلمي والتقني، والتقدم في مجال التنظيم والإدارة صار يقلل على نحو متزايد من أهمية الثروات الطبيعية، ومساحات الأراضي الشاسعة، والأنهار الغزيرة... في قدرة الأمم على حلّ مشكلاتها الداخلية، وقدرتها على المنافسة في الأسواق العالمية. يقول (ثورو) الاقتصادي الأمريكي المعروف: «في القرن الحادي والعشرين ستصبح مهارات قوة العمل والتعليم هي السلاح التنافسي الأول. ولن تعتمد الميزة التنافسية على ثروات الموارد الطبيعية؛ حيث إنه يُعتقد بوجه عام أن الصناعات الرئيسة السبع للعقود القادمة هي: الإلكترونيات الدقيقة، والتكنولوجيا الحيوية، وصناعة المواد الجديدة، والطيران المدني، والاتصالات، وأجهزة الإنسان الآلي المزودة بآلات القطع والتشكيل، والحاسبات الآلية، والبرامج. وهذه كلها صناعة المقدرة العقلية. وأي منها يمكن توطينه في أي مكان على وجه الأرض. والموقع الذي ستُقام فيه يتوقف على من يستطيع تنظيم المقدرة العقلية من أجل السيطرة عليها؛ ففي القرن القادم (الحالي) ستكون الميزات التنافسية من صنع الإنسان».

هذا كله يعني أن الأمم التي تعلِّم وتربي وتدرب بطريقة أفضل هي الأمم المرشحة لأن تتبوأ القمة. وهذا ما نشاهده اليوم في حياتنا، فمعظم الأمم ذات الدخل الاقتصادي المرتفع (أوروبا واليابان نموذجًا) لم يتحسن اقتصادها بسبب ما تملك من ثروات، وإنما بسبب توظيف العلم والمعرفة وتقدم الصناعة.

3ـ كان الإنسان في الماضي كثيرًا ما يعاني من الشعور بالضعف تجاه مظاهر الطبيعة من عواصف وسيول وحر لافح وبرد قارس وجفاف وحيوانات مفترسة ووعورة طرق... والآن قد أمكن التغلب على معظم ذلك، وصار الإنسان يجد نفسه في مواجهة مشكلة أخرى، هي: كيف يتصرف بهذه الإمكانات العلمية والتقنية الهائلة التي أصبحت تحت يديه؟ أو بعبارة أخرى: كيف يمتلك الحكمة في إدارة الحرية الواسعة التي باتت في حوزته؟

لقد صار من مسؤولياتنا الكبرى أن نسعى إلى ترويض أنفسنا وأُسَرِنا وطلابنا على استخدام المنتجات التقنية الحديثة فيما يعود علينا بالنفع؛ وذلك لأن كل منتجات الحضارة قابلة لأن تستخدم بطريقة ترقى بالإنسان، وتدفعه نحو الأمام؛ كما أنها قابلة لأن تستخدم على نحوٍ يجلب له الانحطاط. فالهاتف الجوال ـمثلاًـ يمكن أن يكون وسيلة جيدة للتواصلٍ مع الأهل والأرحام وقضاء المصالح وتوفير جهد الانتقال... كما يمكن أن يستخدم وسيلة للثرثرة وتبادل النكات والطُّرف والتظاهر بالرقي وتنظيم الجرائم. وقُلْ مثل ذلك في الأدوية والأسلحة والسيارات وشبكات المعلومات... ومهمة البيوت والمدارس أن تملّك الناشئة الأخلاقيات التي تجعلهم يشعرون بالمسؤولية تجاه الإمكانات والمنتجات التقنية. إن قدراتنا في ازدياد مطرد، وستقع مآس كثيرة إذا لم يصاحبها تحسن في الأخلاق وصلابة في الإرادة وزيادة في الوعي. وهذا كله لا يتوفر إلا عن طريق المزيد من التعلم، وهذا ما يمكن أن تقوم به المدارس على أحسن وجه إذا أدركت مسؤولياتها على النحو الصحيح.

ومن المؤسف أن كثيرين منا لم يدركوا بعد أن بين معطيات العلم واتجاهات الحضارة مفارقات ليست بالقليلة، وأن تراكم منتجات الحضارة لا يؤدي بالضرورة إلى تحسين نوعية الإنسان والارتقاء بالحياة، بل إن كل الدلائل تشير

إلى أن سلوك الناس يتشكل ليس على هدي العلم، وإنما على وقع الرغبات والشهوات وتأثيرات الدعاية التجارية. وهذا لا يقلل من دور العلم ولكن يحفزنا على تقديمه بطريقة معينة.

4ـ إن البارئ ـجل وعلاـ كرَّم الإنسان، وسخر له ما في السماوات والأرض، ومنحه قدرات هائلة على النمو والتقدم، ولكن بما أن الدنيا دار ابتلاء، فإن إمكاناته هذه لا تبرز إلا من خلال المعاناة وتحمل المشاق التي نجدها في التعليم والتدريب والتنظيم. ومن غير هذه الأمور فإنه يمكن للإنسان أن يتدنى إلى منزلة لا يفقد فيها إنسانيته فحسب، وإنما يتحول إلى مؤذٍ ومخرِّب. إن الحيوان يولد مزودًا بخطوط غريزية تحدد مسالكه واتجاهاته وحدود رغباته؛ ولذا فإن لوحشيته حدودًا تنتهي عندها، فهو لا يصطاد مئة فريسة ليأكل واحدة منها كما يفعل الإنسان، حين يوقع صاحب مؤسسة الألوف من عماله في البؤس والعنت والضيق من أجل زيادة درجة رفاهيته، أو من أجل تكديس أموال لا يعرف ماذا يعمل بها!

إن الإنسان الحديث صار أشبه بمخلوق عجيب ينمو جسمه على نحو سريع لكن ضميره وخلقه وإرادته وقدرته على التحكم برغباته في حالة من التجمد وأحيانًا في حالة من التقهقر والتراجع، فهو ليس إنسانًا مشوهًا فحسب، ولكنه يوشك أن يصبح إنسانًا خارجَ السيطرة، وبذلك تصبح تصرفاته من غير معنى ولا هدف، بل عبارة عن أحاسيس متفجرة، وتغدو خبراته وكأنها من غير شكل ولا لون!

وتأمل معي بعمق قول الله ـجل وعلاـ: {**إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً**} [**الفرقان**: 44]؛ ولذا فإن على مؤسساتنا العلمية بكل مراحلها أن تجعل من أهدافها الأساسية في التعليم تزويد الطلاب بالمزيد من الحكمة والفهم

والبصيرة بنوعية الاستجابات التي تصدر عنهم، وبالاستجابات التي ينبغي أن تصدر عنهم في مواجهة مغريات الحضارة وتحدياتها.

5ـ فيما مضى كان ما هو مطلوب لحياة كريمة طيبة محدودًا سواء على مستوى الاستعداد الشخصي والمكتسب الثقافي، أم على مستوى السكن والأكل واللباس والعلاج. أضف إلى هذا أنه بسبب ضعف الحراك الاجتماعي وبطء التغيير والتطور، كانت طموحات الناس محدودة، والآمال التي تداعبهم بحدوث طفرات واسعة في أحوال معيشتهم كانت هي الأخرى ضئيلة جدًّا. وكثيرًا ما كانت تتحدد الأوضاع العامة التي سيحيا فيها الإنسان قبل ولادته من خلال المكانة التي تحتلها أسرته، ومن خلال الأشياء التي تملكها. أما الآن فقد تغير كل شيء على نحو جذري ولكن إحساس الناس بهذا التغير مختلف. والذي يصنع الفرق في أحاسيس الناس واستجاباتهم تجاه الفرص والتحديات هو العلم والعلم وحده. و(الشيفرة) المعقدة لبنية الحياة المعاصرة تُحلّ من خلال التثقف.

إن التعليم إن لم يوصل المتعلم إلى طريق الهداية أوجد لدى صاحبه استعدادًا للتساؤل عنها وقبولها. والتربية الصحيحة وإن كانت ليست مطالبة بتوفير فرص عمل للشباب، لكنها تؤهلهم للتلاؤم مع الفرص الموجودة والفوز بها.

مهما أطنبنا في توضيح ما تقدمه المدارس لأبنائنا فإننا لن نوفيها حقها. ومهما تحدثنا عن فضائل العلم والعلماء، فسوف نشعر بالتقصير، ويكفي في هذا قول الله ـتعالى ـ: {**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**} [الزمر: 9] ، وقوله: {**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ**} [المجادلة: 11] .

أي جـل نبني؟

هذا السؤال يُعد من أكثر الأسئلة مركزية وجوهرية في مقام التربية؛ حيث إن معرفة المواصفات التي يجب أن تتوفر في الجيل القادم ـ تعد أكبر مساعد لنا على معرفة نوعية الاهتمامات التي سنثيرها في نفوس أبنائنا وطلابنا، ونوعية الأنماط السلوكية التي نوجههم إليها، والأفكار والمعطيات الثقافية التي نحفزهم على تشربها.

ومع أن كل الأسر والمدارس تقوم بالتوجيه، وتسعى إلى نوع من النهوض بأبنائها؛ لكن أولئك الذين ينجحون في مهماتهم على النحو المقبول يظلون دائمًا قليلين. وكثيرًا ما يكون غموض ما يريدون الحصول عليه سببًا مهمًّا في إخفاقهم. ولا أعني بالوضوح هنا المعرفة التامة بأهداف التربية، وإنما أعني حضور الهدف في الممارسة التربوية اليومية، وإدراك المربي للمقولات والتصرفات التي تساعد على الاقتراب من ذلك الهدف. وعند هذه النقطة يفترق كثير من المربين عن بعضهم؛ إذ إن عدم الإلمام بالأهداف الأساسية إلى جانب عدم وجود ثقافة تربوية جيدة لدى كثيرين ممن يمارس التربية يؤدي إلى عدم تناسق الجهود التربوية، بل إلى تصادمها. ولا يخفى أن عدم بعض المربين خير من وجوده؛ لأنه يفسد فطرة من يربيه، ولا ينهض به، ولا ينمي إمكاناته، ولا يرشده إلى الطريق القويم، بل يكوِّن لديه الاتجاهات السيئة التي تضره، وتؤدي إلى انحرافه!

وإذا أردنا أن نحدد هدفًا إجماليًّا للتربية الإسلامية، أمكننا أن نقول: إن التربية الإسلامية في البيوت والمساجد والمدارس تستهدف تكوين (المسلم الحق) الذي يعيش زمانه في ضوء العقيدة والمبادئ التي يؤمن بها، ولعل النقاط السريعة التالية تشكل ما يشبه (كُتيب الإرشادات) الذي يمكن أن نعود إليه بين الفينة والفينة؛ كي نتأكد من أننا لم نهمل أي شيء مهم.

وإليك سردًا سريعًا بتلك النقاط:

- تعريف الناشئة على الله -جل وعلا-، وأنه الخلاق الرزاق المعين الواحد الأحد الذي يستحق منا إخلاص العبادة، وغرس حب الله ورسوله في نفوسهم.
- إطلاع الناشئة على الخصائص العامة للإسلام من الشمول لكل جوانب الحياة والعالمية وصلاحيته لتوجيه حياة الناس في كل العصور، بالإضافة إلى ما اتسمت به الشريعة السمحاء من التخفيف والتيسير، ورفع الحرج، ومراعاة الظروف الخاصة والطارئة.
- تنشئة الأبناء على الأخلاق الفاضلة مثل الصدق، والأمانة، والإحسان، والصبر، وتوقير الوالدين، وصلة الأرحام، وبذل المعروف، ونصرة المظلوم، والوقوف إلى جانب الضعيف، والعفو، والتسامح.
- تعزيز روح الانتماء إلى أمة الإسلام، والانتماء إلى المجتمع المسلم الذي يعيش فيه الناشئ، والتربية على المحافظة على الموارد الطبيعية، والمحافظة على المرافق العامة والمساهمة في تنميتها.
- بث روح الإصلاح في الناشئة، وإشعارهم بمسؤوليتهم تجاه القيام بالدعوة إلى الله -تعالى-، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتشجيع الخير ومحاصرة الشر.
- العمل على تأكيد أن العلم للعمل -في نفوس الطلاب- ، وأن المسلم مطالب بمجاهدة نفسه؛ كي تتطابق أفعاله مع أقواله وأقواله مع معتقداته.
- مساعدة الطالب على اكتشاف ذاته؛ من خلال تعريفه على الخطوط الرئيسة التي توجه سلوكه، ومن خلال إطلاعه على طاقاته الكامنة، ومن

خلال تدريبه على تفحص الأفكار التي يحملها عن الحياة والأحياء بغية تنقيتها وتعديلها.

- إشعار الناشئ بضرورة تحمله للمسؤوليات والنتائج المترتبة على اختياراته الخاصة في كل شؤون حياته.
- تخليص أذهان الطلاب من الأوهام والمعتقدات والأفكار الخاطئة التي جاؤوا بها من بيئاتهم الخاصة، وتمليكهم بعض الأصول والقواعد التي تساعدهم على أن يفكروا بطريقة موضوعية ومنطقية.
- تنمية قدرات الطلاب على الملاحظة، ورؤية الارتباط بين الأسباب والمسببات، وبين المقدمات والنتائج.
- تدريبهم على الاستخدام الصحيح الدقيق للغة، وتدريبهم على صوغ الأجوبة القصيرة.
- تحفيز حب الاستطلاع، وتدعيم روح التساؤل والمشاركة والمناقشة للقضايا المختلفة.
- تكوين النظرة العلمية من خلال معرفة المسلَّمات والخلافيات في التخصص الذي يدرسه الطالب، ومن خلال معرفته بتاريخ ذلك التخصص وفلسفته وأشكال النمو المتاحة له، والآفاق التي تنتظره.
- تكوين العقل المثقف، وهو الذي يملك عددًا جيدًا من المقولات والخبرات التي تؤهله للتعامل مع مسائل الحضارة والتخلف والإنجاز والإخفاق.
- تدريب الطلاب على تقديم الحلول البديلة، وإثراء وجهات النظر في معالجة المشكلات المطروحة من خلال حصص للعصف الفكري.

- تحسين مستوى اتخاذ القرار في الشأن الخاص، ومساعدة الطالب على رسم أهدافه وتحديد أولوياته، وتنظيم ردود أفعاله.
- تمليك الطالب المبادئ والأساليب التي تساعده على التعلم المستمر، والاستزادة من المعرفة مدى الحياة.
- تدريب الطالب على امتلاك أسس المرونة الذهنية، والتلاؤم مع المتغيرات الجديدة.
- تعزيز الاحترام للمعرفة، وبيان دورها في إحراز التقدم الإنساني.
- تكوين الإنسان الحر الذي يمتلك حريته لا عن طريق الشعارات، ولكن عن طريق توفر البدائل، وعن طريق العلم والإرادة ومقاومة الرغبات.
- دلالة الطالب على العوامل والمقومات التي تجعله ناجحًا في حياته، وتخليصه من المفاهيم الخاطئة في هذا الشأن.
- تعزيز فهم الطالب للواقع وما يدور في أفق حياته اليومية، وتبصيره بأحوال العالم المعاصر.
- إظهاره على أسرار التقدم، ومكامن الغلبة لدى الأمم المتقدمة.
- تهيئة الطالب ليكون قادرًا على كسب رزقه؛ من خلال تلبية متطلبات سوق العمل، والتلاؤم مع الفرص المتاحة فيه.

وإني لأرجو من الله -تعالى- أن يعينني على توضيح المبادئ والمفهومات والآليات التي تسهم في مساعدة الأجيال على تحقيق هذه الأهداف.

وهو حسبنا ونعم الوكيل.

مبادئ ومفهومات مهمة

إن الأمم حين تمارس التربية في البيوت، وحين تضع المناهج لأبنائها في المدارس؛ تنطلق من مجموعة من المبادئ والمفهومات التي تشكل الأرضية العامة التي يلتقي فيها حاضرها مع ماضيها من أجل مستقبلها. وهذه المبادئ والمفهومات كثيرًا ما يشوبها الغموض والاختلاط في بعض المجتمعات، ولا سيما المجتمعات التي لا تتمتع بدرجة عالية من شيوع المعرفة بين أبنائها. وهذا كثيرًا ما يحدث في البيوت حيث يكون الأبوان أميين في بعض الأحيان، أو يكون حظهما من الثقافة التربوية ضئيلاً.

والحقيقة أن هذه المشكلة لا تقتصر على البيوت ولا على الأشخاص الذين هم أقل ثقافة، وإنما تمتد إلى بعض الذين فرَّغوا أنفسهم لمهنة التعليم؛ إذ إن أعدادًا ليست قليلة منهم ينشغلون بالتخصص عن امتلاك الثقافة الإسلامية الجيدة، كما أن ثقافتهم العامة تكون أيضًا دون المستوى المطلوب.

هذه المبادئ والمفهومات الأساسية مع أنها قد لا تتصل جميعًا بالعمل التربوي على نحو مباشر، لكنها على كل حال تشكِّل الفضاء الحضاري الذي تتنفس فيه كل جهودنا الإصلاحية على اختلاف مجالاتها ومستوياتها. ونحن نعلم أن من خصوصيات ميدان التربية أنه يعتمد في حركته وتطوره على حقائق ومفهومات مأخوذة من ميادين معرفية متعددة، قريبة من التربية أحيانًا وبعيدة عنها أحيانًا أخرى؛ فالتربية أداة تنفيذية، تعكس في أحسن أحوالها ما تتطلع الأمم إلى تحقيقه في أبنائها بناءً على ما جدَّ لديها من معارف وخبرات وظروف.

ولعلي أسوق هنا بعضًا مما أعُدُّه مهمًّا جدًّا في تشكيل خلفية مفهوماتية للتربية في النقاط الآتية:

عصر جديد:

يعيش العالم الإسلامي اليوم في مركز إعصار العولمة، حيث وُضِع العالم فيما يشبه الخلاطة الكبيرة، ولم يعد هناك شيء مغلق أو بعيد. والعزلة التي كانت تحمي الأمم الضعيفة خصوصيتها الثقافية من خلالها صارت الآن على مستويات عدة مستحيلة. وصارت السمكة الصغيرة أمام السمكة الكبيرة وجهًا لوجه فماذا عساها أن تفعل؟

إن لأمة الإسلام طريقها الخاص في الحياة، ونظرتها للفرص والمخاطر نظرة متفردة، تنبع من خصوصية عقيدتها ومنهجها. إنها ذات هوية خاصة تشكلت من مجموع مبادئها الكبرى ورؤاها الكلية، وهذه الهوية تتعرض للمخاطر أكثر فأكثر كلما زادت الحياة تعقيدًا، فالوعي البشري يرتبك ارتباكًا شديدًا في التمييز بين الأمور حين يواجه فيضًا غير معتاد من الصور والرموز والمفهومات والنماذج التي لا عهد له بها، كما ترتبك معدة إنسان نباتي إذا أكل وجبة دسمة جدًّا. الهوية تنطمس في أذهان الناشئة، ويضيع الكثير من معالمها في ظل انعدام التكافؤ الإعلامي بين الداعين إلى ترسيخ الهوية الإسلامية وبين المطبلين للعولمة والحالبين في إنائها.

هذا فضلاً عن أن من طبيعة (الهُوية) أنها تحتاج إلى اكتشاف مستمر وبلورة دائمة؛ وذلك من خلال الطرح النظري والموقف العملي. وأعتقد أن الأمة لن تستطيع المحافظة على أبنائها إلا من خلال تحسين أدائها الإعلامي والتربوي ليكون أصيلاً ومعاصرًا في آن واحد. وعلينا العمل على عدد من الخطوط الثقافية؛ منها:

1ـ الاهتمام بتوعية الجيل بخصوصية أهداف الأمة في هذه الحياة، والتي تتمثل في الفوز برضوان الله ـتعالىـ، ونشر الإسلام وتبليغ الدعوة، إلى جانب توفير الحياة الكريمة والعزيزة والآمنة لكل واحد من المسلمين. والمفروض أن تسعى كل الجهات المهتمة بالتثقيف إلى بلورة هذه الأهداف وعرضها في أعمال إعلامية وقصصية ومسرحية كثيرة، وإيجاد أُطُر وقنوات مهمتها شرح تلك الأهداف للأبناء في البيوت والمدارس، وتوضيح متطلبات تحقيقها، بالإضافة إلى تبيين الآثار التي تترتب على عدم الاكتراث بها.

2ـ إدارة الإمكانات المتاحة على نحو جيد. وقد أثبتت شواهد كثيرة معاصرة أن الإدارة الجيدة للإمكانات البشرية والمادية المتوفرة؛ لا تقل أهمية عن حجم الإمكانات نفسها بل تزيد. وتتوقف جودة الإدارة هنا على ارتقاء العنصر البشري الذي تلقى من التأهيل والتدريب ما يجعله واعيًا بعصره، مستعدًّا لدفع تكاليف العيش فيه من الجدية والمثابرة، وتنظيم الشأن الخاص، والتفاعل مع الجديد، واحترام النظم السارية، وحسن التدبير والاقتصاد في الإنفاق.

3ـ الانفتاح ومحاولة فهم المتغيرات الحاصلة. وكثيرًا ما يفسر بعض الناس ـمع الأسفـ الانفتاح على أنه نوع من الترهل الأخلاقي، وتلقف كل جديد مهما كان. وهذا يشكل إساءة بالغة للفكرة. إن الانفتاح لا ينبغي أن يُراد منه أكثر من الاستعداد والرغبة في الاطلاع على الجديد، ومحاولة الاستفادة منه في تحقيق أهدافنا، إنه أشبه باستعداد المحاور للسماع لمن يحاوره، وبعد أن يسمع بوضوح يقرر وجهة نظره تجاه ما سمع.

إن من المهم جدًّا أن نوضح للأبناء أن من الخطأ منح التقدير والأهمية لبعض الأشياء لا لشيء إلا لأنها قديمة، وأن نتوجس خيفة من بعض الأشياء لأنها

جديدة. الانفتاح المتزن يمكِّن الناشئ من رؤية الجديد ليس في إطار حداثته، ولكن في إطار نفعه وانسجامه مع ذاتيتنا وأهدافنا.

4ـ الاستعداد للارتحال والانتقال من بلد إلى بلد ومن وظيفة إلى أخرى؛ حيث إن من طبيعة التعقيد الشديد الذي يلف حياتنا المعاصرة، ويزداد يومًا بعد يوم أن يوفر الكثير والكثير من البدائل والفرص المختلفة، ولكن قصورنا الثقافي والتربوي لا يمكننا من التلاؤم مع البدائل والفرص الجديدة. إن أبناءنا بحاجة إلى العقلية وإلى النفسية التي تساعدهم على اكتساب المهارات، والتعرف على الوضعيات الجديدة. ولا ريب أن في ذلك نوعًا من الإزعاج، ولكن يظل ـعلى كل حالـ أفضل من البطالة والعيش على هامش العصر.

تشجيع المبادرة الحرة:

لعل مما أفادتنا به الخبرة والتجربة أن الأعمال الحضارية الكبرى لا تقوم إلا عن طريق الحماسة والرغبة والمبادرة الحرة؛ وأن الأمم العظيمة لا تشيد صروحها الحضارية عن طريق فرض القيود، ولا عن طريق المنع والزجر والتخويف، وإنما عن طريق التحفيز والتشجيع والمكافأة والمشاركة الواسعة.

وهذا يحتاج إلى روح مغاير للروح السائد في معظم بلادنا الإسلامية؛ حيث إننا نرى كثيرًا من المعلمين والمربين الأخيار يضبطون إيقاع الحركة في بيوتهم وفي مدارسهم ومؤسساتهم التعليمية أكثر بكثير مما ينبغي، ويستهلكون الكثير من جهودهم في هذا الشأن. وربما كانوا يفعلون ذلك لأنهم لا يتصورون بديلاً لما يقومون به سوى الفوضى والتفلت، وتضييع الواجبات، والخروج على النظام والآداب العامة. وهم ينسون أنهم بذلك ينشغلون عن بناء الوعي لدى الطلاب، وتنمية روح المسؤولية الشخصية التي من غير قسط من الحرية لا تنمو ولا

تترسخ، كما لا تنمو الحاسة الأخلاقية والوازع الداخلي من غير ترك فرصة للاختيار. وينسى أولئك المربون أيضًا أن الحرفية الزائدة تؤدي إلى سوء الأخلاق، وتورث السأم والملل وضيق الأفق.

من المعروف أن نظام التعليم في اليابان صارم جدًّا، وهو يحاول بكل وسيلة تعزيز النمطية السائدة في المجتمع الياباني، لكنَّ المشرفين التربويين هناك وجدوا أن ذلك لن يتم على الوجه الصحيح إلا عن طريق حب الأولاد للنظام، واقتناعهم بضرورته للحياة. وهذا لن يتأتى إلا عن طريق واحد هو الانضباط الذاتي؛ ولذا فإنهم يسمحون بشيء من الفوضى داخل الفصول الدراسية؛ حتى تتولد الدوافع الذاتية للنهوض والنظام من خلال التوجيه الرفيق والهادئ. وأعتقد أن هذا ما يجب أن نقوم به.

مباهج الروح:

لا يخفى أن التنظيم العام لعالم التجارة والمال والأعمال جعل من أهم أسس نجاحه ونموه: جذب الناس إلى المزيد من الاستهلاك والإنفاق. وقد تولى الإعلان التجاري في الوسائل الإعلامية المختلفة قيادة المهمة. وفي ظل الفراغ الفكري والروحي الهائل الذي تعاني منه البشرية انساق الناس نحو المطلوب منهم، وصار من أكثر ما يشغل بالهم، ويستحوذ على اهتمامهم توفير المال الذي يحتاجونه؛ لإرواء غليلهم من امتلاك السلع الجديدة والمطورة والتي صارت توزع إلى أجيال، وقد وصل بعضها إلى الجيل السادس والسابع!! وكذلك توفير المال الذي يحتاجونه لارتياد الفنادق الفخمة والمطاعم الفاخرة!

وفي ظل وضعية كهذه صار من المستحيل توليد أي شعور بوفرة المال وكفايته؛ مما تسبب في إشاعة السرقة والغش والرشوة والتحايل والكذب

والتنافس غير الشريف والخروج على القانون... وهذه الوضعية آخذة ـمع الأسفـ في التوسع والانتشار!

إلى جانب هذا هناك نوع من الإعراض عن المتع الروحية والأخلاقيةـربما لأنها لم تجد الدعاية المناسبة!ـمع أنها أطول زمنًا من متع الجسم وأقل كلفة، وصاحبها أبعد عن المشاحّة والمزاحمة. من المتع الروحية متعة القراءة والتزود من المعرفة واكتشاف المجهول. وهناك متعة تفوقها وهي متعة يجدها من يناصر الحق، ومن ينشر مبدأ يؤمن به، ومن يخلّص الناس من داء خلقي يفتك بهم، ومن يتغلب على شهواته، ويسيطر على نوازع الشر فيه. وهناك متعة تفوق كل ذلك، وهي نوعية الأحاسيس والمشاعر التي تغمر كيان المسلم حين يناجي الله ـجل وعلاـ ويتذلل بين يديه، وحين يؤدي واجباته الشرعية، ويجاهد نفسه في ذات الله.

من المهم جدًّا أن نوقف التدهور الحاصل الآن، ونقوم بالعمل بجدية على توجيه الناشئة نحو الإقبال على تحقيق سعادة لا تحتاج إلى المال، ولا تُدخل المرء في صراع مع الآخرين. ويجب أن يلمس ذلك الفتيان في بيوتهم ومدارسهم من خلال اهتمامات المربين وسلوكياتهم قبل نصائحهم ومواعظهم.

مجتمع مستنير:

من العسير أن تتقدم التربية في المدارس على النحو الذي نريد إذا لم يحدث تقدم اجتماعي عام؛ فالمعلمون مهما جوَّدوا أداءهم لا يستطيعون الانفراد ببناء الأجيال، فوسائل الإعلام وأخلاق الأقرباء والجوار وعاداتهم، بالإضافة إلى المفهومات الاجتماعية السائدة، والظروف الاقتصادية التي نحيا فيها... إن كل ذلك يترك بصمات قوية في شخصيات أبنائنا؛ وعلى سبيل المثال فإن الأمية

تتفشى بين كثير من أبناء المسلمين، حتى إنها تصل في بعض البلدان إلى نحوٍ من 80 ٪ في صفوف الرجال و 90 ٪ في صفوف النساء. وهذه الوضعية تجعل المجتمع يقوم على نخبة متعلمة بيدها كل شيء تقريبًا، لكنها لا تلقى المساندة المطلوبة من الجماهير الغفيرة التي لم تتلق التأهيل الكافي للقيام بدورها التربوي المطلوب، بل إن النخبة نفسها تتأثر سلبيًّا بأوضاع تلك القاعدة الاجتماعية العريضة. وقد تصاب النخبة بالترهل والإهمال بسبب عدم وجود قوة شعبية تحركها، وتدفعها نحو الأمام.

لن تستقيم أمور مدارسنا وجامعاتنا، ولن تستطيع القيام بدورها المنشود ما لم يتم ترتيب أوضاعنا الاجتماعية على هدي العلم والمعرفة، وذلك هو الذي يصبغ المجتمع بالصبغة العلمية؛ إذ إن المجتمع المتقدم علميًّا ليس هو المجتمع الذي يشيد المدارس والجامعات، وينشر الكتب ويقيم المهرجانات الثقافية... وإنما المجتمع الذي يسعى على نحو دائب إلى أن يصوغ حياته اليومية ونظمه وطروحاته وأعرافه وفق المعارف والمناهج التي يلقنها لطلابه في المدارس. وإذا أردت أن تعرف مدى توطن الروح العلمية والاهتمام بالعلم، فانظر إلى نوعية المناقشات والاهتمامات التي تسيطر على معظم الناس في أوقات إجازاتهم وفي أوقات الفراغ.

إن أمة الإسلام حظيت بصفوة مستنيرة، ومن مسؤولية هذه الصفوة أن تنشر في القاعدة العريضة من الناس استنارة عامة؛ من خلال وسائل الإعلام وبرامج الدعوة وخدمة المجتمع، ومن خلال جعل الجامعات والمؤسسات العلمية المختلفة منصات لمناقشة أشكال التخلف الذي يجثم على صدر الأمة، ومناقشة أشكال التصدع بين ما يعتقده المجتمع وبين ما يمارسه في حياته اليومية. ولدينا بعد هذا وذاك شريحة عريضة من الناس يمكن أن نسميها بالأغلبية الصامتة، وهي

لا تستطيع التعبير عن مشكلاتها ولا عن مصالحها، وإن من واجب الصفوة المستنيرة أن تجادل عنها، وتساعدها على تحقيق طموحاتها ونيل حقوقها.

وإذا استطعنا أن نجعل البحث عن الجديد، ومحاكمة الأمور إلى منطق العقيدة ومنطق العلم ـ حركة أمة لا حركة صفوة؛ فإننا نكون قد قطعنا نصف الطريق نحو المكانة المنشودة التي تليق بنا.

لا بديل عن السعي إلى التمدن:

لدى الإنسان قابلية كبيرة للانزلاق نحو البربرية والتوحش، بل إن في داخل كل منا وحشًا كامنًا يتلمظ، وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض. وقد استهدفت الشرائع والرسالات السماوية حماية الإنسان من شرور نفسه، ومساعدته على السيطرة عليها، لكن ظل معظم الناس في كل زمان ومكان مهزومين أمام أنفسهم، وكانوا يجدون دائمًا أن (التحضر) وامتلاك أدواته ومعداته؛ أسهل عليهم من (التمدن) الذي يعني ارتقاء أهداف الإنسان وثقافته وفكره، وتعامله، وتحقيقه لذاته، وطريقة حله لمشكلاته. ولهذا فالمتمدنون قليلون على حين أن المتحضرين كثيرون. وهذا هو السبب الرئيس في فقد الحياة لطعمها الأصلي، وفي انتشار الظلم والعنف والفساد وأكل الحقوق.

لا بد لنا ـ ونحن نسعى إلى بناء جيل متمدن ـ من أن نؤكد عددًا من المعاني المهمة؛ منها:

1ـ يعد الإسلامُ الإنسانَ مركز الكون، ويعد الارتقاء به مقدمًا على الارتقاء في العمران. ولذا فإن معظم نصوص الكتاب والسنة تركز ـ على نحوٍ ما ـ على تهذيب الإنسان، وتنقية عقله، وتوجيه مشاعره واهتماماته، وتحسين علاقاته.

2ـ لا يُقاس تقدم الإنسان بكثرة اختراعاته واكتشافاته، ولا بكثرة تجاربه، ولكن بتحقيق إنسانيته وتفوقه على ذاته. كما أن المدنية الحقة ليست هي التي توفر للناس الكثير من السلع والمرفهات، ولكنها التي توفر لهم السعادة والاستقرار والهناء. ولهذا فإن حوادث الانتحار ووضعيات التفكك الأسري شهود عدول على بؤس الحضارة الغربية التي يستظل بها الناس اليوم.

3ـ دائمًا في حياتنا أمور لا يمكن ضبطها عن طريق النظام والقانون، كما هو الشأن في العلاقة الأسرية وفي العلاقة بين الأساتذة والطلاب... وفي هذه الحالة فإن الإنسان المتمدن هو الذي يدير تلك الأمور والعلاقات بالرحمة واللطف والتسامح. أما الذي لا يمتاز إلا بأنه يملك كومة من الأشياء الثمينة؛ فإنه يديرها بالظلم والعنف والأنانية، على نحو ما تفعل بعض الدول العظمى بالشعوب المستضعفة، وكما يفعل بعض الأزواج وبعض أصحاب الأعمال!

4ـ الحيوان مسيَّر من قِبَل خطوط الغريزة لديه. والإنسان المحروم من التمدن تظهر غرائزه في سلوكه على نحو لافت؛ لأنه قريب في وضعيته العامة من الحيوان، ولو كان يتقلب بين الرياش، ويركب أفخم السيارات. أما الإنسان المتمدن، فإنه ينظم غرائزه، ويظهر براعة في السيطرة عليها، وبذلك يتحرر من سلطانها، ويخضع لسلطان العقل والحكمة. وبما أن الغرائز تلح دائمًا على الإرواء المباشر دون أي اعتبار، فإن التمدن الحقيقي يتجلى في اهتمام الإنسان بالآجل والتضحية بالعاجل للفوز به، وبهذا المقياس فإن المسلم الذي يسيطر على رغباته رجاء ما عند الله ـتعالى ـ متمدن حقيقي.

5ـ يسعى الإنسان المتمدن إلى أن يكون هناك نوع من التطابق والانسجام بين متطلبات هويته وعقيدته ومتطلبات عيشه؛ فلا تكون حركته اليومية في تحقيق مصالحه عبارة عن صفعات متتالية على مبادئه وقيمه. إنه يجاهد في كل

اتجاه من أجل أن يستمر في ترتيب شؤونه وأوضاعه في إطار عقيدته. وحين يفقد الإنسان الإحساس بضرورة تلك المجاهدة يكون قد تلبس بأسوأ حالات الهمجية والتخلف.

إن استحضار هذه المعاني ونحن نربي الجيل الجديد ـ في غاية الأهمية. ويجب أن يلمس أبناؤنا وطلابنا من خلال علاقاتنا بهم أننا نعطي هذه الأمور أهمية خاصة؛ ولذا فإننا نحاول تجسيدها في حياتنا اليومية.

الحوار لا المناظرة:

لو عدنا إلى التربية الأسرية التي تلقيناها ونحن صغار، ولو عدنا كذلك إلى أسلوب التعليم الذي تعلمنا به في المدارس ـ لوجدنا أن الكبار كانوا يمارسون عملية إلغاء للصغار، فتكلّم الصغير أمام الكبير مُخِلٌّ بالأدب الرفيع الذي يجب أن يتحلى به الناشئ، وسؤال الطالب لأستاذه عن دليل القول الذي يقوله تشكيك في معرفة الأستاذ، وأحيانًا في أمانته وهكذا... لكن تاريخنا الثقافي والاجتماعي ينضح بما سموه (المناظرة)؛ حيث يمارس كل واحد من المتناظرين ـعلى مستوى الكبارـ نوعًا من الإلغاء للآخر؛ حين يبذل كل جهده لإظهار أن مناظره على خطأ. وهو ينطلق أساسًا من اعتقاد خاطئ يجعله يرى أنه على الحق القاطع الذي لا يشوبه شك. وبهذا نكون قد مارسنا الإلغاء في حالة الصمت وفي حالة المثاقفة!

لسنا بحاجة إلى المناظرة، ولكننا بحاجة ماسة إلى الحوار؛ حيث إن كل واحد من المتحاورين لا يحرص على إقناع صاحبه برأيه ليتبناه، ويعدل عن رأيه الخاص، وإنما يقوم بإضاءة نقطة مظلمة، وتوضيح قضية غامضة لا يراها المحاور الآخر على الوجه الصحيح. وهكذا يكون الحوار هادئًا باردًا وديًّا؛ لأنه

يستهدف النفع المتبادل، وليس الاستيلاء والاستحواذ. ومن المهم جدًّا أن نجعل الحوار أساسًا في حياتنا؛ ولا سيما في المجال التربوي. إنه لا ينبغي أن نطلب من الحوار أن يوصلنا إلى الاتفاق مع من نحاوره، ولكن نأمل منه أن يوفر لنا أساسًا مقنعًا للاختلاف وتعدد وجهات النظر. ومن الواضح أننا كثيرًا ما نزعم أننا نتحاور، ولكننا في الحقيقة نتناظر؛ ولذا فإننا نُكدِّر قلوبنا، ولا ننير عقولنا. وكثيرًا ما يبدأ حديثنا مع من نربيهم على شكل محاورة، وينتهي إلى أن يكون مناظرة خشنة؛ حيث نحاول فرض رأينا عليهم بالقوة؛ وإذا لم يُظهروا لنا أنهم مقتنعون غضبنا، وكثيرًا ما نستشعر في طول المحاورة نوعًا من الإهانة لنا!

إن طلابنا يملكون كثيرًا من الرؤى والأفكار الجميلة، لكن لأننا مشغولون جدًّا بشرح المناهج والمقررات، فإننا لا نتيح لهم الفرصة لإظهار ما لديهم. ويكون مصير تلك الأفكار ـ والتي قد تكون حيوية ـ إما الذبول والضمور، وإما الانحراف والاعوجاج. والحقيقة أننا حين نمارس الحوار على وجهه الصحيح لا ننفع طلابنا فحسب، وإنما ننفع أنفسنا أيضًا؛ حيث إننا من خلال الحوار والنقاش ننضج أفكارنا حين نعرضها للتشذيب والتهذيب والإضافة والنقد. وإن جزءًا مهمًّا من عظمة أي أسلوب وأي نظام يُستمد من كونه قابلاً للمراجعة والتطوير.

الحذر في إدارة معطيات العلم:

لا يستطيع أحد أن ينكر الرفاهية التي تولدت عن التقدم العلمي، كما لا يمكن إنكار المشكلات الكثيرة التي تم حلها عن طريق البحوث الأساسية

والتطبيقية خلال القرنين الماضيين. ومع أن المسافة التي تفصل المسلمين عن الدول الصناعية على الصعيد البحثي والتقني ما زالت شاسعة؛ فإن هذا لا يمنعنا من التحذير من أضرار الثقة المفرطة بالعلم. ولا أقصد هنا التهوين من شأن العلم والتقدم العلمي، وإنما أقصد أن العلم لا يملك أخلاقية خاصة تجعل معطياته غير قابلة للتوظيف فيما يعود على البشرية بالضرر. ومن الواضح اليوم أن الوازع الأخلاقي يتراجع على مستوى العالم لدى شرائح كثيرة، وأن سيطرة نظام التجارة سهَّلت التزوير والغش على صعيد كل الصناعات. كما أن الإعلان التجاري يُوجِد لكثير من السلع والخدمات ميزات غير ثابتة علميًّا. هذا كله يعني أن علينا أن نتعامل مع معطيات العلم بحذر، وألا نثق بكل ما ينشر ويقال عنه: إنه مبني على دراسات وبحوث علمية. وعلينا أن ننبه الأجيال الجديدة إلى أن المستقبل سوف يشهد المزيد من الاستخدام السيئ للمعطيات العلمية؛ حيث إن التقدم العلمي نفسه يسهِّل القيام بعمليات خطرة جدًّا من خلال استخدام عتاد محدود، كما هو الشأن في الاستنساخ، وفي الهندسة النفسية، والحرب الجرثومية.

تربيتنا مرآة لنا:

حين يولد الطفل يكون أكثر ما يملكه عبارة عن استعدادات للنمو والاكتمال. ومن خلال الصور اليومية التي يشاهدها تتشكل شخصيته وتتراكم خبراته. ولا يشترط لذلك أن يكون الطفل طرفًا في الأحداث التي ينفعل بها؛ إنه يراقب ويشاهد تفاعل أبويه وإخوته وكل القريبين منه مع بعضهم ومع أحداث الحياة المختلفة؛ ومن مراقبته لذلك التفاعل يلتقط الكثير من الصور التي تترك بدورها في ذهنيته انطباعات معينة، وعن طريق تلك الانطباعات تأخذ ملامح شخصيته بالتشكل، ولا يستفيد أولئك الذين يتظاهرون أمام الأطفال بالسلوك

الحسن شيئًا ذا قيمة من وراء ذلك التصنع، فالأطفال يدركون ما وراء المظاهر كما يدرك الكبار، وإن كانوا غير قادرين على التعبير عما أدركوه. هذا يعني أن على الأبوين خاصة أن يكونوا صرحاء مع أبنائهم، وأن يراجعوا معهم الانطباعات والمفهومات التي تتشكل لديهم عن مختلف جوانب الحياة الاجتماعية. ولا شيء يفيد في هذا الشأن كالاستقامة الشخصية لأفراد الأسرة، فهي وحدها التي تجعل تكوّن شخصية الطفل يتم على النحو الصحيح، وبطريقة آمنة. إذن كما نكون تكون تربيتنا، وهامش المناورة أمامنا ضيق.

تأسيس حُبِّ النظام:

نحن جميعًا نسعى من وراء ما نبذله من جهود تربوية إلى أن نؤسس لدى أبنائنا وطلابنا نظامًا للمفهومات الصحيحة والقيم الإيجابية والخيرة، ولكن يعكر ذلك علينا الأوضاع السائدة والمشوبة بالخير والشر والفضيلة والرذيلة؛ كما يعكره علينا الطوفان الرأسمالي من بضائع وخدمات وتقاليد وعادات لا تنسجم مع أي قيم أخلاقية، ولا تساعد على أي تقدم تربوي. وقد تحول كثير من الفتيان والشبان إلى أدوات استهلاكية! فما الوسيلة التي يمكن أن نستخدمها في غرس القيم التي نريدها، وفي تعليم أبنائنا الفرق بين الغث والسمين والنافع والضار؟

في تصوري أن أفضل وسيلة للحصول على ذلك تتمثل في ترسيخ حب النظام في نفوس الطلاب، والتأكيد على احترامه، والالتزام به في سلوكهم وعلاقاتهم. حين يرى الطفل الذين حوله ملتزمين بشد حزام الأمان في سياراتهم ـمثلاًـ فإنه يدرك أن ذلك مهم، ويبدأ بالتساؤل: لماذا هو مهم؟ وحين يرى أبويه يلتزمان الصدق، ويبتعدان عن الكذب، ويحذّران منه يبدأ بالتساؤل: لماذا يجب أن نبتعد عن الكذب؟ وهكذا... لكن حين يرى بعض الناس حوله يفعلون

الشيء، ويرى آخرين يفعلون ضده، فإنه سيتكوَّن لديه انطباع بأن هذا الفعل ـوليكن الصدق ـ مقبول، وهذا الفعل ـوليكن الكذب ـ أيضًا مقبول، وبذلك تختلط عليه الأمور، فيقلد هذا الكبير تارة وذلك الكبير تارة أخرى.

إن تأكيد الهدي النبوي على ضرورة الامتناع عن ارتكاب المنهيات والوقوع في المحظورات يهدف فيما يهدف إليه ـ إلى أن يكون الخطأ واضحًا في أذهان الأطفال على نحو لا لبس فيه؛ وبذلك يتأسس لديه نظام القيم، ويصبح الوقوع في الخطأ سببًا لتأنيب الضمير ولوم النفس. قال ـعليه الصلاة والسلام ـ : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم»[1].

---

[1] أخرجه البخاري، تاب الاعتصام، باب: الإقتداء بسد رسول الله صلى الله عله وسلم، وأخرجه مسلم، تاب الف ائل، باب: توقر صلى الله عله وسلم وترك إ ار سد اله...، واللف له.

قـــــ أســــــــاســــــة

تشكل القيم التي نحملها، ونكن لها الاحترام والتقدير ـ القاعدة التي يقوم عليها السلوك. ومع أن هناك مفارقة شبه مطردة بين الإطار النظري والاعتقادي وبين السلوك والتطبيق إلا أننا جميعًا نؤمن بضرورة نقاء القاعدة القيمية ووضوحها؛ لأن المرء من غير قاعدة قيمية متينة يفقد مصدر التوجيه الأساسي في حياته، كما يفقد البصيرة التي يرى من خلالها الأشياء.

هناك اعتقاد عام على المستوى العالمي بأن الأجيال الجديدة تعاني من نقص كبير في القيم والمُثُل والتسامي، ولذا فإن دولاً عديدة في الغرب تفكر جديًّا في إعادة التربية الدينية والخلقية إلى المدارس، بعد أن كانت تظن أن المبادئ العلمانية التي تدعو إليها تغني عن التربية الدينية. لن نبالغ إذا قلنا: إن مستقبل المسلمين جميعًا متوقف على مدى تشكيل القيم والأخلاق الإسلامية لسلوكنا ومواقفنا ومدى قدرتها على تنظيم ردود أفعالنا؛ وإنه لا يعادل صحة تلك القيم شيء سوى فاعليتها وحضورها في تفاصيل حياتنا.

وإني آمل أن نجعل الحديث عن الفضيلة آخر وسيلة يمكن أن نستخدمها في ترسيخها في نفوس أبنائنا وطلابنا؛ فالكلام الكثير عن الأخلاق قليل النفع، ويجب ألا نلجأ إليه إلا عند وجود مناسبة وفرصة ملائمة. والأصل أن يتشرب الصغار القيم لا عن طريق النصح والتوضيح؛ ولكن عن طريق المعايشة والاحتكاك بالكبار والعدوى الروحية.

لو أردنا التحدث عن كل القيم التي علينا أن نركز عليها في تربية الناشئة إذن لطال بنا الحديث، فلنقتصر على المهم منها، وذلك في الحروف الصغيرة الآتية:

الإيمان الحي:

الإيمان بالله -جل وعلا- أول قيمة ينبغي أن نهتم بها، وننشّئ أبناءنا عليها، فهو القاعدة العظمى التي من غيرها لن يجد المسلم أي إطار مرجعي ذي قيمة لكل الأخلاق والقيم الأخرى. نحن نريد ترسيخ الإيمان ليس بوصفه قناعات عقلية فحسب، ولكن بوصفه مشاعر وأحاسيس بمراقبة الله -تعالى-، والخضوع والاستسلام له، والاغتباط بفضله وإحسانه. إن الإيمان الحي يدفع المسلم دفعًا إلى مناجاة الله -تعالى- في السراء والضراء، والاعتصام به عند الكروب والأهوال. وحين يصبح الإيمان على هذه الصورة، يكون مصدرًا لابتهاج الروح وراحة الفؤاد واطمئنان النفس. وبذلك يستطيع الشباب مقاومة تيار الشهوات الجارف الذي اجتاحت أمواجه كثيرًا من الفتية اليوم. وليس أمامنا لتوليد تلك الأحاسيس والمشاعر المباركة الندية سوى طريق واحد؛ هو كثرة التعبد لله -تعالى- بأداء الفرائض، واجتناب المعاصي، وكثرة النوافل والقربات. ويجب أن يكون هذا واضحًا لدى الكبار والصغار.

النية الصالحة:

كان سلفنا -رحمهم الله- يركزون كثيرًا على موضوع (النية) وضرورة إخلاصها لله -تعالى-، وكانوا ينظرون بحساسية قوية لموضوع طلب العلم؛ حيث كانوا يشددون على ضرورة أن يكون طلبه لله -تعالى-، وأن يتأكد طالب العلم من خلوص مقاصده من شوائب الجاه والمال وحب الظهور ومنافسة الأقران؛ وما ذلك إلا لأنهم يعدُّون طلب العلم وتعليمه من أعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه، وكانوا يرون أن ثوابه أعظم من ثواب النافلة وصلاة التطوع.

يقول الغزالي -رحمه الله-: (أيها الولد، كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب، وحرّمت على نفسك النوم، لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتك نَيْل عَرَض الدنيا، وجذب حطامها، وتحصيل مناصبها، والمباهاة

على الأقران والأمثال؛ فويل لك ثم ويل لك. وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتهذيب أخلاقك، وكسر النفس الأمارة بالسوء؛ فطوبى لك ثم طوبى لك)[1].

إن أسعد الناس بالعلم هو الذي يطلبه قربة إلى الله -تعالى-؛ لأنه يقصد به إصلاح شأنه ونفع الناس. ومن طلاب العلم من يقرن بذلك الحصول على شهادة تفتح له باب رزق، وهذا دون الأول. ومن الناس من يطلب العلم سعيًا في إشباع نهمه إلى الاطلاع واجتراح المجهول. وهناك إلى جانب هؤلاء من لا يعنيه شأن العلم في شيء، وكل مراده الوصول إلى شيء من الدنيا عن طريق العلم الذي لديه، وهذا في المنزلة السفلى.

ويؤسفني القول: إن كثيرًا من طلاب العلم اليوم لا يملك أي شيء من نية الاحتساب في طلب العلم، كما لا يملك الرغبة في البحث والاطلاع، ولذا فإنه يتعامل مع المعرفة على أساس تجاري بحت، إنه يبذل أقل جهد ممكن في سبيل الحصول على الشهادة، ولو استطاع أن ينال تلك الشهادة دون أي جهد لما تردد في ذلك! وقد قالوا قديمًا: (العلم إن لم تعطه كلك لم يعطك بعضه). إن الرزق مقسوم، وإن مجرد حمل العلم يهيئ الإنسان لينال شيئًا من الدنيا، ولكن عندما تصح النية؛ فإن المرء ينال ثواب الآخرة، كما يقطف ثمار جِدَّه واجتهاده في الدنيا، وهذا من جملة التوفيق.

الابتهاج بمعرفة الحقيقة:

في زمان كثرت فيه التضحية بالحق والحقيقة من أجل تحقيق مصالح دنيوية صغيرة - يمسي الاهتمام بترسيخ هذه القيمة العظيمة أمرًا في غاية الأهمية. إن الحق اسم من أسماء الله -تعالى-، ورسالة الإسلام هي الحق الذي جاء به الرسول

---

(1) أيها الولد، لأبي حامد الغ الي، ص105، ط/ دار الاعتصام.

ـصلى الله عليه وسلمـ، وقد خلق الله السموات والأرض بالحق. والاعتراف بالحق والإذعان له، والتأثر بسبب الاهتداء إليه ـ شأن من شؤون النفوس الكبيرة. وقد قصَّ الله ـتعالىـ علينا نبأ القسيسين والرهبان الذين تفاعلوا مع الحق وأذعنوا له، وانحازوا إلى أهله حين قال: {**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴿82﴾ **وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**} [المائدة: 82،83]. إنهم من شدة اغتباطهم بمعرفة الحق الذي سمعوه لم يجدوا الكلمات التي تعبر بصدق عن عاصفة المشاعر التي اجتاحتهم، فذرفوا الدمع ليعبر عنها أصدق تعبير. ولم يكتفوا بالتأثر، ولكن بنوا عليه موقفًا جريئًا حين تركوا زعامتهم في ديانة قومهم، وأعلنوا الانضمام إلى أمة التوحيد محتملين كل الأذى الذي يترتب على ذلك.

في مقابل هذه الفئة الخيِّرة هناك فئات كثيرة من البشر تُعرِض عن الحق، وتأبى الإقرار به والانصياع له بحجج واهية، فقد يحتج المعرض عن الحق بأنه ليس حقًا ولا حقيقة، كما فعل كفار قريش حين وصفوا القرآن الكريم بأنه سحر وكهانة وشعر. وقد يعرض عنه بحجة عدم وضوحه. وقد يعرض عنه بحجة عدم قدرته على تحمل التكاليف التي تترتب على الاعتراف به. وقد يعرض عنه بحجة دفع الضرر الذي يجلبه الإقرار به... وهكذا.

من المهم جدًّا أن يفهم الناشئة أن قوة الحقيقة ذاتية، وأن تجاهلها دائمًا مؤذٍ، وأن الاعتراف بها ـوإن ترتب عليه بعض الخسائر العاجلةـ مجلبة لخير كثير على المدى البعيد. وعلينا معاشر الكبار ألا نحمل الصغار على إنكار الحق بسبب العقوبة المغلظة التي نرتبها على الاعتراف به. بل ينبغي أن نفعل العكس من ذلك، ونقول للصغير: قل الحقيقة ولا تخف من العقوبة، أو ستكون العقوبة

مخففة. وإذا أنكرت الحق الآن فسوف نكون قادرين على معرفته، وستكون العقوبة مضاعفة.

إن نصرة الحق ونشره وتقريره من المهمات الكبرى للمسلم في هذه الحياة. وإن الدعوة إلى الله ـتعالى ـ التي يعد القيام بها شرفًا لكل مسلم ـ ما هي إلا نشر للحق الذي جاء به النبي ـصلى الله عليه وسلمـ، وعلينا أن نقول الحق ولو على أنفسنا؛ فذلك من القيام لله ـتعالى ـ بالقسط.

إن المعلم الذي يقبل بحثًا أو لوحة من طالب يعلم أنه ليس من عمله، ويضع له درجات على ما تلقاه منه ـ يشجعه على الاستخفاف بالحق والحقيقة، ويكون بذلك كالتي تنقض غزلها أنكاثاً.

التحرر من القيود:

من المهم جدًّا أن نسعى في تربيتنا في البيوت، وفي تعليمنا في المدارس إلى تكوين الإنسان الحر الذي يشعر بوجوده، ويشعر بمعنى ذلك الوجود. والحقيقة أن الله ـجل وعلاـ ركز في فطرة الإنسان نزوعًا عميقًا نحو التحرر من القيود، والتخلص من الضغوط المختلفة التي يتعرض لها في حياته. لكن ذلك النزوع كثيرًا ما تنطمس معالمه بسبب الظروف السيئة التي يعيش فيها الإنسان، وبسبب التربية السيئة التي يتلقاها كثيرون منا. وإذا نظرنا في السياسات التي يتبعها كثير من المربين وجدنا أنها تركز على تنشئة الفتى المطيع الصامت الذي ينفِّذ كل ما قيل له دون أي اعتراض أو تفكير، والذي يصدق كل ما يقال له دون أي مناقشة. إنهم يسعون إلى بناء جيل من الإمَّعات المقلدين؛ حيث يكون شق طريق جديد أمرًا يبعث على الريبة، وحيث يكون السير خلف الآخرين أمرًا محمودًا ومرغوبًا! إنهم يبنون جيلا ماهرًا في العثور على محاسن الظلم الذي يقع عليه، ويعلِّمونه كيف يُصفِّق لظالمه، وكيف يكبت مشاعره إلى ما لا نهاية! مع أن

الإسلام يحث بنيه على أن يجادلوا عن الحق، ويقفوا إلى جانبه، ويدافعوا عنه؛ كما يحثهم على دفع الظلم، والأخذ على يد الظالم، والانتصاف منه لصالح المظلوم.

لا شك أن أسوأ القيود التي تشل حركتنا هي القيود غير المرئية، والتي تتمثل في أوهامنا وعاداتنا السيئة، وسيطرة رغباتنا علينا، وقلة الخيارات أمامنا. إن من واجبنا أن نوضح للناشئة الأسس والإمكانات والمفهومات التي تجعل منهم جيلاً حرًّا أبيًّا. وأعتقد أن لدينا ثلاثة أمور تحدد الدرجة التي نتمتع بها من التحرر والانعتاق من أغلال العبودية والهوان والانحسار، وتلك الأمور هي: العلم والإرادة والإمكانات. فعن طريق العلم نتخلص من قيود الجهل والخرافة والمقولات التي ليس لها أي سند من دليل أو برهان. كما نتخلص من المفهومات التي تشكل منطق التخلف ومنطق العجز لدى الإنسان المسلم.

وبالإرادة الصلبة نتخلص من عبودية الشهوات والرغبات والعادات السلبية، ونوقف التدهور في حياتنا الشخصية والخاصة. وبالإرادة نعمل ما يملي علينا العقل والخبرة القيام به.

وعن طريق تحسين الإمكانات نتخلص من ضغوط البيئة؛ حيث إن جوهر الحرية يكمن في القدرة على الاختيار؛ وهي تتحدد بمدى توفر البدائل التي سنختار منها ما يلائمنا. والبدائل لا تتوفر إلا إذا تحسنت إمكاناتنا المعنوية والمادية. إذا أرادت مؤسساتنا التعليمية أن تنشئ جيلاً حرًّا، فلتحاول تحسين مستوى التفكير لديه، وتنمية الوازع الداخلي الذي يشكل نواة الإرادة الصلبة. ولتحاول تنمية مواهب الطالب، وتحسين مهاراته، وتكوين النفسية الإيجابية لديه؛ من أجل مساعدته على العثور على البدائل المتعددة، ومساعدته على إيجادها. هذا هو فهمي للتحرر، وأعتقد أنه سيكون من انحطاط الجيل أن يشعر

أن الحرية تعني التحلل من الواجبات الشرعية والاجتماعية، والبحث عن المتع والشهوات، والتخفف من القيود الأخلاقية، والتمرد على النظم والقوانين التي تؤطر حركة الحياة.

الشعور بالمسؤولية:

شعور المرء بالمسؤولية تجاه نفسه ودينه وأهله ومجتمعه من القيم الجوهرية؛ إذ إن من أهم سمات الإنسان الحر أنه يملك حساسية فائقة نحو الواجبات المترتبة عليه، ونحو استخدام الإمكانات المتاحة له. وقد باتت حاجتنا إلى هذه القيمة كبيرة اليوم؛ لأن إمكانات الرقابة على الأشياء آخذة في الضعف المستمر؛ حيث تعوَّدنا منذ أجيال بعيدة أن نبحث عن كبش فداء نحمِّله أخطاءنا وعيوبنا.

أضف إلى هذا أننا حين نواجه مشكلة نرغب أن نعثر لها على حل نكلِّف به غيرنا؛ حتى لا نبذل أي جهد إضافي! إن تحميل الشريعة الغراء الإنسان كامل المسؤولية عن تصرفاته منذ البلوغ إلى آخر يوم في حياته؛ دليل واضح وقوي على ضرورة تربية أبنائنا وطلابنا على الاستعداد لتحمل تبعة أقوالهم وأعمالهم.

إن صِدْق الإنسان وإقراره بما فعل ـمهما كان سيئًاـ دليل على الشعور بالمسؤولية، والتوبة والاعتذار عن التقصير لا يكونان إلا عند الشعور بالمسؤولية.

اليابانيون يؤسسون الشعور بالمسؤولية لدى الأطفال منذ المرحلة الابتدائية، عن طريق جعلهم ينخرطون في أعمال خدمية تعود بالنفع على مدارسهم وعليهم في النهاية، فعند اختتام اليوم الدراسي لا يكتفي الطلاب بكنس الغبار وإزالته وترتيب قاعات الدرس، بل يمسحون الأرضيات والممرات بقِطَع القماش المبلل. كما أن الطلاب يتناولون وجبة الغداء في المدارس. والنظام السائد هناك يقضي بأن يقوم بعض الطلاب ـبحسب الدورـ بإنزال الوجبات من الشاحنات، ويقوم آخرون بوضعها في الفصل، ويقوم فريق ثالث بإعادة الفصل بعد الغداء

إلى سابق عهده. وهم يهدفون من وراء هذا النظام إلى تنمية روح المسؤولية، وتعويد الطلاب على الخدمة الاجتماعية، إلى جانب تعزيز مشاعر الانتماء للمدرسة؛ مما يجعلهم أقل ميلاً إلى التخريب الذي يمارسه بعض الطلاب عادة. إنهم يُفهِمون الطلاب هناك أن الشعور بالمسؤولية ليس أحاسيس تختلج في النفس؛ بمقدار ما هو أعمال وممارسات ومواقف وردود أفعال.

فضيلة المثابرة:

الموروث الثقافي الشعبي لدينا يركز دائمًا على الذكاء بوصفه الأداة الأساسية للتميز والتفوق. وقد كانت هذه النظرة في موضعها حين كان المتوفر من المعرفة والثقافة المتعلقة بالإنجاز محدودًا، كما كانت فوائد التدريب واكتساب المهارات معدومة أو غائبة عن الوعي. أما اليوم فقد اختلف الأمر؛ حيث إن قيم المثابرة على العمل والاستمرار في بذل الجهد، وتركيز الاهتمام ـ باتت أهم في إحراز السبق والتفوق على الأقران من الذكاء الذي يرثه الإنسان عن أبويه وأجداده. إن الله ـجلَّ وعلاـ وزَّع الذكاء على الشعوب بالتساوي؛ فليس هناك شعب اختصه الله بالذكاء المفرط، ولا شعب ابتلاه الله بالغباء الشديد، ففي كل أمة نسبة شبه متساوية من الأذكياء والأغبياء ومتوسطي الذكاء، لكن إنجازات الشعوب اليوم متفاوتة تفاوتًا هائلاً كما نرى. وهذا التفاوت يعود قطعًا لأمور غير الذكاء والإمكانات العقلية الخَلْقِيَّة. ومن أهم ما يعود إليه التفاوت المشار إليه: المثابرة على العمل، والدأب في التنفيذ؛ حتى قد صار من المسلَّم به أن قيمة أي منتج تعكس إلى حد بعيد عدد ساعات العمل التي بُذلت فيه؛ كما صار من المسلَّمات أن من أكبر عيوب الشعوب النامية أنها تؤمن بالطفرة، وترجو منها أكثر مما ترجوه من العمل البطيء الهادئ المستمر. وقد عالج النبي ـصلى الله عليه وسلمـ هذا المفهوم على مستوى القول وعلى مستوى الفعل، فقد ورد أن النبي

ـصلى الله عليه وسلمـ دخل على عائشة وعندها امرأة، قال: «من هذه؟ قالت: هذه فلانة ـتَذْكُر من صلاتهاـ قال: مَهْ! عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملُّ الله حتى تملوا. وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه»[1]. وقال ـعليه الصلاة والسلامـ لعبد الله بن عمرو بن العاص ـرضي الله عنهـ: «يا عبد الله! لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل، فترك قيام الليل»[2] أما على المستوى العملي فقد كان ـصلى الله عليه وسلمـ إذا لم يتمكن من الصلاة في الليل بسبب وجع أو غيره ـ يصلي من النهار اثنتي عشرة ركعة[3]، وذلك توكيدًا لنفسه وللأمة على ضرورة المحافظة على ما اعتاده الإنسان من الخير والبر.

إن كثيرًا من أبنائنا تجتاحهم موجات من الحماسة للقراءة والاطلاع الجيد؛ لكن ذلك لا يدوم طويلاً؛ حيث يهجرون الكتاب الشهر والشهرين؛ ولذا فإن التثقيف لديهم لا يأخذ سمة التواصل والتراكم، كما أنهم قلَّما يبدؤون بعمل وينهونه! وينعكس كل ذلك على الإنجاز لديهم.

لا بد أن نرسِّخ في نفوس الطلاب الاهتمام ببرمجة جزء من الوقت اليومي ـعلى الأقلـ، وتخصيصه لاكتساب المعارف والمهارات، وإلا فإن الأمل بتحقيق ارتقاء شخصي حقيقي سيكون ضعيفًا.

التميز الحقيقي:

إذا نظرنا في حياة السواد الأعظم من الناس لوجدنا أنهم أشخاص عاديون، أو هم أنماط مكررة للنموذج السائد في البيئة. وأمة الإسلام التي تسابق الزمن لكي تردم الهوة بينها وبين الأمم التي سبقتها في مجالات ليست قليلة ـ بحاجة إلى

(1) أخرجه البخاري، تاب الإيمان، باب: أحب الدين إلـ الله أدومه.
(2) أخرجه البخاري، تاب التهجد، باب: ما يـ ر من ترك قيام الليل لمن ان يقومه.
(3) أخرجه مسلم، تاب الصلاة، باب: جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، عن عائـ ة ـرضي الله عنهاـ قالت « ان رسول الله صلـ الله عليه وسلم إذا عمل عملاً أثبته، و ان إذا نام من الليل أو مرض صلـ من النهار ثنتي عـ رة ر عة ... »

جيل؛ لا أقول متميز، ولكن فيه شريحة جيدة من المتميزين الذين يتَّسمون بسمات أرقى مما هو سائد بين الأقران.

الشباب يحبون الاستقلال والانفراد؛ لأنهما طريقهم إلى إثبات الذات، ولكن كثيرًا منهم يخطئ الوسيلة التي تجعله متميزًا. وقد صار كثير من الناس يبحثون عن الاختلاف عما هو سائد؛ عن طريق الحصول على رقم هاتف أو رقم لوحة سيارة متميز، أو عن طريق الشراء من متاجر، أو النزول في فنادق فخمة ظانين أن ذلك يجعلهم من الصفوة! وهذا في الحقيقة جزء من مرض عام بات يجتاح حياة كثير من الناس، وهو مرض (الشكلية!)، فهناك اليوم مدارس ليس فيها من الرقي سوى فخامة مبانيها، حتى كأنها قصور تعليمية. وليس فيها من التعليم سوى حسن مجاملة إدارييها، هنا وهناك... وهذا الطلب الشديد على البروز الشكلي لدى الشباب كثيرًا ما يكون صدى لفراغ روحي وخلقي وفكري مخيف. وأعتقد أن على بناة الأجيال أن يهتموا بهذا الموضوع، وأن يزينوا في نظر الناشئة بعض صور التميز الحقيقي، مثل الحصول على شهادة أو خبرة عالية جدًّا، ومثل تقديم عمل تطوعي؛ لا يقدم عليه في العادة إلا عدد قليل من الناس، وذلك مثل خدمة مريض في مستشفى أو العمل في مؤسسة خيرية، ومثل اتباع نظام دقيق في الدراسة، أو استثمار الوقت بطريقة فذة وما شابه ذلك... إن المتميزين هم الرواد الحقيقيون الذين يمهدون الطريق ليسير الناس خلفهم؛ وفي إمكان كل واحد من أبنائنا أن يكون في عدادهم لو أحب.

روح الفريق:

لم نكن في يوم من الأيام أحوج إلى التحلي بروح التعاون والقدرة على العمل ضمن فريقٍ منَّا في هذه الأيام؛ حيث إن من طبيعة التقدم الحضاري أن

يوجد الكثير الكثير من الأعمال التي لا يمكن إنجازها إلا عن طريق المجموعات والفرق والمؤسسات.

وإن جعل الطلاب يعملون بروح الفريق الواحد يجب أن يتم عن طريق غير مباشر؛ وذلك من خلال تشكيل المجموعات المتعاونة؛ حيث يمكن تقسيم الفصل الدراسي الواحد إلى مجموعات، تتشكل كل مجموعة منها من خمسة أو ستة طلاب، ويتعاون أعضاء كل مجموعة فيما بينهم في حل الواجبات وتحضير الدروس وتنفيذ بعض المشروعات العملية، وكتابة بعض البحوث، كما أنه يمكن للطلاب الأقوياء في المجموعة أن يساعدوا الطلاب الضعفاء على فهم دروسهم. ويُعيَّن لكل مجموعة مرشد من المعلمين، يتولى رعايتها وإرشادها إلى منابع الثقافة ومصادر المعرفة، كما يقوم بإرشادها إلى الطريقة الصحيحة في الدراسة وتنظيم الوقت.

ويمكن لإدارة المدرسة أن تجد في رؤساء المجموعات من الطلاب خير معين لها في فهم مشكلاتهم والمساعدة على حلها. ولا بد مع هذا أن نرسِّخ في أذهان الطلاب أن بروز الفردية في سلوكهم يجلب لهم عددًا من الأضرار والعيوب، مثل الأنانية، والعزلة، والعجز عن التلاؤم مع الآخرين، والغرور، والشعور بالضعف، وما شاكل ذلك.

ليس المال أكثر من وسيلة:

تسود في أيامنا هذه موجة عظيمة من استهداف جمع المال، والميل إلى جعل الاستحواذ عليه هدفًا لكثير من أنشطة الحياة. وقد غطت هذه الموجة المادية الهائلة على كثير من معاني السمو الإنساني، والتروع نحو الاعتبارات الأخلاقية التي تشكل أجمل وأروع ما في هذه الحياة. وفي هذا حط من كرامة الإنسان، وتقزيم لدوره العظيم في هذه الحياة. وقد انتشرت بعض المقولات التي تعبر عن

هذه الوضعية، من مثل قولهم: المال هو كل شيء، وبالمال تستطيع أن تصنع كل شيء، وأن تحصل على كل شيء، والذي معه قرش يساوي قرشًا، والذي ليس معه شيء لا يساوي أي شيء...!!!

هذه المقولات حين تكون واقعية ومعبرة عن حقائق معيشة؛ فإنها تدل على فساد إداري واجتماعي عظيم. وهي في كل الأحوال لا تحكي سوى جزء من الحقيقة الكبرى. وحين نحاول تجاوز القشور إلى الجوهر؛ فإننا سوف نجد أن المال ليس أكثر من وسيلة نستخدمها في قضاء حوائجنا؛ ولذا فقد يستخدم في بناء الحياة وازدهارها وجلب الراحة والطمأنينة لأهله، وقد يكون وبالاً عليهم، ووسيلة لتدميرهم في حاضرهم ومستقبلهم.

إن من المهم للمربين في البيوت والمدارس أن يشرحوا بطرق مختلفة لأولئك الذين يقومون على تربيتهم أن الثروة الحقيقية والمتجددة في حياة الأفراد لا تقوَّم من خلال الأرقام والأرصدة والعقارات والممتلكات، ولكن من خلال نوعية الدوافع التي يمتلكونها ونوعية الاهتمامات التي تسيطر عليهم؛ فالذي يملك الدوافع القوية والمستمرة لعمل الخير والارتقاء بذاته، وإحراز التفوق والنجاح يملك مفاتيح الحياة الطيبة التي تستخدم المال في تحقيق ذاتها. وإن كثيرًا من العظماء لم يكونوا يملكون الكثير من المال، كما أن كثيرًا ممن يملكون الثروات فقدوها، وصاروا بلا حول ولا طول، أو صار المال مصدر شقاء يومي لهم، وكثيرين منهم فقدوا الإحساس بمعنى المال في حياتهم، ولكن لم يستطيعوا التخلص من تبعات امتلاكه!

إن جعل امتلاك المال غاية عوضًا عن أن يكون وسيلة؛ يشكل خطرًا على التزام المسلم، وعلى توازنه الشخصي، وعلى قيامه بالحقوق الأسرية والاجتماعية المترتبة عليه. إنه في جوهر الأمر يحوّله من سيد يتصرف بالمال لتحقيق غاياته إلى

عبد يستخدمه المال في تحقيق قانونه، وهو الجمع والجمع وحده! ولا بد من أن نجعل أبناءنا وطلابنا على وعي بذلك، وينبغي أن يلمسوا هذا المعنى في أحاديثنا وتحليلاتنا، وفي سلوكنا العملي أيضًا.

محاربة الغرور:

يحتاج الجيل الحالي إلى أن يحتفظ برؤية معتدلة لنفسه وللناس من حوله. وقد دلت الخبرات المتراكمة على أن المعتدلين في الناس قليل، وأن لدينا نحن البشر نزوعًا قويًّا إلى الغلو والتطرف. والاعتدال والتوسط من الأمور التي تحتاج إلى تشغيل الذهن ومجاهدة النفس في آن واحد.

وفي عالم يتصارع فيه الناس على السلطة والمكانة والنفوذ يكون الحديث عن (التواضع) أمرًا مستهجنًا لدى كثير من الناس. بل ربما ذُكرت كلمة (متواضع) في سياق الاتهام بالغفلة والسذاجة والضعف. وقد صار معظم الناس يتحدث عن الثقة بالنفس بوصفها ضرورة للنجاح في الصراع الوجودي الحالي. ومناهجنا في التعليم الجامعي على نحو أخص تبذر في نفوس الطلاب بذور الكبر والتعالي. وقد صار كثير من الطلاب يدخل الجامعة وهو جاهل متواضع، ويخرج منها وهو جاهل مغرور متكبر! والأسوأ من ذلك أن يجمع خريج الجامعة بين الكبر والغرور، وبين عدم الثقة بالنفس. وذلك لأن طريقة التعليم التي تعلَّم بها تُشعره بالامتلاء الكاذب، ولا تساعده في التعرف على إمكاناته الحقيقية.

ولذا فإن من المهم جدًّا أن يدرك طلابنا أن ما حصَّلوه من معرفة ضئيل جدًّا بالنسبة إلى ما هو موجود، وبالنسبة لما يجب أن يعرفوه أيضًا؛ وأن طريق النضج المعرفي طريق طويل وشاق، وأن الغرور مفتاح لشرور كثيرة، ولو لم يكن فيه سوى القناعة بعدم الحاجة إلى المزيد من الارتقاء والتقدم الفكري والمعرفي لكان شيئًا مدمرًا!

الجيل الجديد مطالب في الوقت نفسه أن يدرك: أن التقدم العلمي الهائل ملّكه أدوات ومفهومات للتحسن والتفوق لم تكن موجودة لدى الأجيال السابقة، وقد بقي عليه أن يعرف كيف يستفيد منها، وبوابة الاستفادة منها تتمثل في اعتقاد الطالب أنه صغير ولكنه ينمو، وجاهل ولكنه يتعلم، وضعيف ولكنه يشتد ويقوى. ثقة المرء بنفسه مطلوبة حتى لا يقع في براثن الشعور بالعجز والانحسار والتهميش؛ ولكنه بحاجة مع هذه الثقة أيضًا إلى احترام الناس، وإدراك حدود الممكن الذي يتحرك فيه، وأن في محيطه من يمكن دائمًا أن ينفتح عليه، ويستفيد منه.

الرفاهية الروحية:

في غمرة الحضارة الحديثة انفتحت شهية الناس نحو الاستهلاك على نحو لم يسبق له مثيل؛ وهذا زاد في تكاليف العيش الكريم، ومع هذه الزيادة يزداد الشعور بالضنك على الرغم من كثرة الخيرات؛ مما أشاع أمراض الشح والأنانية والأثرة والدوران في فلك الذات بعيدًا عن التفكير في هموم الأقربين من المسلمين وفي حاجاتهم الملحة. ولهذا فإننا صغارًا وكبارًا بحاجة ماسة إلى أن ننمي في نفوسنا معاني التضحية والإيثار والعطاء المجاني؛ حتى نستطيع مقاومة التيار الأناني الذي يجتاح حياة الأمة. ومن الواضح أن المكافأة على كل شيء مجاني نقدمه لنجدة من حولنا تكون دائمًا فورية؛ حيث نشعر بانشراح الصدر وغشيان السكينة، كما نشعر بغبطة الانتصار على النفس الشحيحة، وبالأناقة والرفاهية الروحية التي يشعر بها كل من قام بأمور زائدة على الواجب. وحين تخلص النية في ذلك؛ فإن ما ننتظره من مثوبة الله في الآخرة وتعويضه في الدنيا يفتح لنا أبواب الأمل والرجاء على مصاريعها، وبذلك نشعر بالأمن والاطمئنان. وقد أثنى الله -جل وعلا- على النموذج الرفيع جدًّا الذي قدمه الأنصار في استضافة إخوانهم المهاجرين حين قال: {**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ**

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

مهما كثر الخير لدى الناس، وعمهم الرخاء؛ فإنهم سيظلون يتوقعون اللمسة الإنسانية من قريب وصديق وجار وزميل؛ حيث إن في هذه الحياة أشياء كثيرة لا يمكن الحصول عليها عن طريق المال. ومن واجبنا التأكيد على معنى التضحية في البيوت والمدارس وفي كل مكان، وأن يحاول المربون أن يرسخوا هذا المعنى في نفوس الناشئة عن طريق تضحيتهم هم بشيء من جهدهم ووقتهم ومالهم وراحتهم. وبذلك نسترجع بعض ما فقدناه من مباهج الروح، ومن سلام التحقق بالمنهج الرباني الأقوم.

الوفاء بالوعد:

من القيم المهمة التي لا تستقيم حياتنا الاجتماعية من غيرها قيمة الوفاء بالوعود والعهود والعقود؛ حيث يؤدي إدمان الإخلاف لها إلى نزع الثقة بين الناس، وحيث تتعطل مصالح كثيرة؛ ولذا جاءت النصوص الصريحة بوجوب التزام المسلم بالوفاء بما قطعه على نفسه من عهود ووعود؛ وقد قال الله -تعالى-: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1] ، وقال -عليه الصلاة والسلام-: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»[1].

ومن المُشاهَد اليوم أن اهتمام كثير من الناس بما التزموا به صار ضعيفاً، وذلك صدى لضعف التدين لديهم، وعدم مبالاتهم بالقيام بأمر الله -تعالى- والانتهاء عن نهيه. ومن وجه آخر فإن طغيان المجاملة على حياتنا الاجتماعية جعلنا نسرف في إعطاء وعود لا نستطيع الوفاء بها، أو لا نعتقد أنه يجب الوفاء بها؛ لأن الذي تلقى الوعد تلقاه وهو يعلم أننا قد نكون غير جادين بالوفاء به!

(1) أخرجه البخاري، تاب الـ هادات، باب: 28، ومسلم، تاب الإيمان، باب: بيان خصال المناف . واللف له.

ونحن نعاني من مشكلة أخرى، هي عدم الدقة في تنفيذ الوعد والمماطلة في ذلك، وهذا أحد أمراضنا الحضارية الخطيرة. ويبدو أن الإحساس بقيمة الوقت منتج حضاري؛ فعلى مقدار ما ترتقي الأمم في سلم الحضارة تقدِّر قيمة الوقت، وتنظم حياتها على نحو يراعي تلك القيمة.

قد يستطيع المربون تنشئة الجيل على هذه القيمة من خلال الالتزام بتنفيذ ما قطعوه على أنفسهم من وعود وعهود، ومن خلال الاعتذار والتأسف عند عدم القدرة على التنفيذ، وعن طريق التقليل من إعطاء الوعود إلا عند التأكد القوي من إمكانية إنجازها. كما أن مما ينفع في هذا تنبيه الطالب إلى عدم التسرع بإعطاء وعد لم يكن عازمًا على الوفاء به، وعارفًا بعدم قدرته على ذلك.

إن الإسلام ينظر إلى (الكلام) على أنه (عمل)، وسوف يُحاسَب صاحبه عليه كما يُحاسَب على أعماله؛ إنْ خيرًا فخير وإن شرًا فشر. ومن كان كلامه من عمله فليدقق فيه كما يدقق في وضع رجله وهو يهبط من منحدر شديد. وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت؛ فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[1].

التفوق والنجاح:

الحرص على التفوق والنجاح والارتقاء المستمر ـ من المعاني المهمة التي ينبغي أن يحملها أبناء الجيل الجديد؛ ولا سيما أن الحياة تزداد صعوبة وقسوة، وفرص العمل الجيد لا تتاح إلا للمتفوقين المتميزين. ثم إن المسلم الملتزم حين ينجح في أمور دنياه يقدم للآخرين نموذجًا حيًا على ما يقدمه له الإسلام من هدي

---

(1) أخرجه الترمذي، تاب ال هد، رقم 2319.

وتسديد في إعمار الأرض وإصلاح شؤون الحياة. ومن واجب المربين أن يوضحوا للفتيان والفتيات بعض المفهومات الأساسية التي تساعدهم على الارتقاء والتقدم، إلى جانب تخليصهم من المفهومات الخاطئة التي كونوها عن موضوع التفوق.

وعلينا في البداية أن نؤكد أن ما يؤدي إلى نجاح المرء وسبقه لغيره عبارة عن شبكة معقدة جدًّا من العوامل. وإن من المجازفة أن نفسر نجاح فلان أو فلان من الناس بأسباب أو عوامل جزئية؛ حيث إن في مقابل كل مثال نسوقه للاستشهاد به على واحد من تلك العوامل عشرات الأمثلة الناطقة بغير ما نقول. وقد كان من الأخطاء المتوارثة في هذا الشأن تفسير نجاح فلان من الطلاب بكونه نشأ في بيت علم، وتفسير نجاح فلان بأنه ذكي؛ فلا يحتاج إلى جهد كبير في الفهم والاستيعاب، وأما فلان فقد تفوق لأنه نشأ في بيت ثراء؛ فلم يكلَّف بشيء من الأعمال التي تشغله عن بُغْيته، كما أنه قد وُفِّر له كل ما يساعده على التفوق، وفلان من الناس كان سبب تفوقه أنه درس في مدرسة أو جامعة ممتازة إلخ... ولو أنك دققت في أحوال الناس لوجدت الألوف من الناس العاديين والمخفقين والمنحرفين الذين نشؤوا في بيوت علمية، وفي أسر ثرية، والذين درسوا في جامعات ممتازة.

ما ذُكِر ـبلا شكـ من الأمور التي تساعد كثيرًا من الطلاب على التفوق، لكنها لا تشكل شروطًا حاسمة أو وحيدة لذلك؛ ولذا فمن المهم أن نوضح لمن نربيهم أن الواحد منهم قد يتفوق تفوقًا عظيمًا ولو لم يكن من أسرة ثرية، أو لا يتمتع بقدرات عقلية ممتازة أو... المهم في كل الأحوال والظروف أن يمتلك الفتى أكبر قدر ممكن من المفهومات والعادات التي تساعده على التفوق، والتي من أهمها: طلب المعونة من الله ـتعالىـ واللجوء إليه والثقة بما عنده، إلى جانب المحافظة على الوقت، والمثابرة، والتركيز على العمل في مجال واضح ومحدد،

والتغلب على الإحباط، وتنظيم الشأن الخاص، والإيجابية، والانفتاح، وتأجيل الرغبات... وإن من واجبنا ـمعاشر الآباء والمعلمينـ أن نقدم التحفيز والتشجيع على نحو مستمر، فذاك هو الوقود الروحي الذي يصنع العجائب!!

الانتماء لأمة الإسلام:

من الواضح اليوم أن العولمة تمارس عملية خلع واسعة النطاق، فهي تحاول تفكيك الأسرة بإضعاف الصلة بين أبنائها، كما تحاول تفكيك المجتمع بإضعاف الانتماء إليه، كما تحاول تفكيك الأمة من خلال جعل كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية وحدة قطرية غارقة في همومها الخاصة. وقد بدأت مظاهر التفكك تتجسد في حياة كثير من الشباب من خلال الاهتمام الزائد بالأمور الشخصية، ومن خلال ضعف الاهتمام بالشأن العام، وضعف روح الانتماء للأمة وللمجتمع المسلم الذي يعيشون فيه.

إذا تأملنا في الرؤية الإسلامية لموضوع الانتماء وجدنا أنها تكاد تحصر تجليات الانتماء في أمرين؛ هما الإحسان والإصلاح. وانظر معي إلى قول الله ـجل وعلاـ: {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**} [النحل :90] .

الإحسان يعني امتلاك المسلم القدرة على إشاعة الخير ومساعدة العناصر الضعيفة في المجتمع، كالأيتام والأرامل والمرضى... كما يعني التنازل عن بعض المصالح الخاصة في سبيل تحقيق مصلحة عامة. ويعني كذلك المحافظة على المرافق العامة التي ينتفع بها عامة الناس، والمساهمة في تشييدها وتنميتها وإغنائها. ولأمة الإسلام تاريخ مجيد في هذا الشأن لسنا بصدد استعراضه هنا.

أما الإصلاح؛ فإنه يعني تشجيع بوادر الخير في المجتمع، ونصرة الحق ومؤازرة أهله، ونصرة المظلوم والوقوف إلى جانبه، ومحاصرة الشر، والأخذ على يد المفسدين، وإصلاح ذات البين بإزالة سوء التفاهم بين الأفراد والمجموعات. كما

أن الإصلاح يعني تحسين البيئة الاجتماعية؛ لجعلها أكثر صلاحية لحياة أكرم وأجمل وأمنع.

وقد اعتدنا معاشر المربين أن نؤكد كثيراً من هذه المعاني من خلال الخطابة والوعظ المباشر وسوق الأدلة وذكر النماذج التاريخية، لكننا لم نحصل إلا على القليل مما نريد. ولو أننا أرسينا في بيوتنا ومدارسنا تقاليد ثقافية تشجع على الحوار، والنقد، والصدع بالحق، والنصح بين الكبار والصغار؛ لجعلنا الناشئة يشعرون بأن لهم دورًا مهمًّا في المجتمع، وأنهم جديرون بالاهتمام بقضاياه؛ وهذا هو الذي يجعلهم يشعرون بالانتماء.

وبعد:

فإن هناك الكثير من القيم المهمة التي لا يتسع المقام للحديث عنها، والتي يدركها المربي الحصيف من خلال ثقافته الإسلامية وزاده المعرفي، ومن خلال مشاهداته للانحرافات والمشكلات التي يقع فيها أبناؤه وطلابه. ومن الله الحول والطول.

البيـة الـ بـ ية

إن كل واحد من بني البشر مدين في تركيبته العقلية والنفسية والبدنية وفي علاقاته الاجتماعية لأمرين جوهريين؛ هما الوراثة والبيئة. ففي طريق التفاعل النشط جدًا والغامض جدًّا بين ما ورثناه عن آبائنا وأجدادنا وبين مجموعة المعطيات التي وفرها عيشنا في مجتمع ـ يبرز إلى الوجود نسخة مستقلة متميزة من ولد آدم لا تكاد تتطابق مع أي نسخة أخرى. وإذا كنا لا نملك أي خيار حيال ما ورثناه عن أسلافنا، فإننا نملك الكثير الكثير مما يمكن أن نفعله تجاه البيئة التي ننشِّئ فيها صغارنا. لكن بما أن التعقيد أصل فيما يتصل بمسائل التربية؛ فإن تكوين البيئة التربوية لا يخلو من المشكلات والأزمات: مشكلات على مستوى التنظير، ومشكلات على مستوى العمل.

أما على مستوى التنظير؛ فإننا نتساءل دائمًا عن مواصفات البيئة التربوية الجيدة. وعلى الرغم من كثرة ما ألقينا من أسئلة، وكثرة ما تلقينا من أجوبة فإن الجدل ما زال قائمًا. ويبدو أنه لن يشهد أي نهاية؛ وذلك لأن توصيفنا للبيئة التربوية الجيدة لا يمكن أن يخضع إلا لرؤيتنا الخاصة للحياة وللإنسان؛ أي إنه جزء من الفلسفة الشخصية التي بلورها كل واحد منا. وهي مهما اتفقت في الخطوط العريضة مختلفة جدًّا في التفاصيل الدقيقة.

والمشكلات التي تواجهنا في إيجاد البيئة المناسبة للجهد التربوي تتمثل في أن المفهومات والظروف التي تشكل البيئة التربوية في البيت والمدرسة والشارع... ترسخت على نحو تراكمي بطيء؛ فرؤية الأسرة للحياة وآفاقها وغاياتها وهمومها هي غالبًا جزء من رؤية المجتمع. وتلك الرؤية ولَّدتها العقيدة، والتاريخ، والظروف المعيشية الراهنة، وطبيعة الأحداث الجارية التي توجه اهتمامات الناس... وتلك المعطيات الضخمة والصلبة كثيرًا ما تستعصي على أي تغيير،

ومع هذا فإن الوعي بأهمية البيئة في تنشئة الأجيال يجعلنا ننطلق نحو التفكير فيما نستطيع عمله. ولا ريب أن إمكاناتنا في تحسين البيئة التربوية متفاوتة؛ والتوفيق من الله -تعالى-.

وإلى جانب كل ما سبق ذكره هناك اليوم تساؤلات جديدة حول وجود البيئة التربوية نفسها؛ حيث إن لدينا من يقول اليوم: ليس في ظل هذا التواصل الكوني بيئة خاصة يربي الناس فيها صغارهم، والأمر لا يعدو أن يكون ضربًا من الأوهام.

والحقيقة أن التساؤل حول وجود بيئة تربوية تساؤل مشروع ومفهوم، ولا سيما إذا علمنا أن كثيرًا من الفتيان صاروا يتنقلون عبر وسائل البث والاتصال في أرجاء العالم، وصاروا يتواصلون مع بيئات أجنبية عن بيئتهم المحلية على نحو كثيف لا يقل أحيانًا عن تواصلهم مع أهليهم وأبناء بلدهم، لكن مع هذا نقول: إن الأطفال والفتيان والشباب يظلون أَمْيَل إلى الثقة بذويهم ومُعلِّميهم -بوصفهم مرشدين وموجهين- أكثر من ثقتهم بما يرون ويسمعون مما لا يعرفون أي شيء عن مصادره وخلفياته. بل إننا إذا نجحنا في تحسين مستوى الحيوية والتفاعل في مدارسنا وجامعاتنا؛ فإن كثيرًا من الأبناء سوف يتخذون من توجيهات مُعلِّميهم ومرشديهم نظارات يرون من خلالها العالم.

ومع هذا فإنه لا ينبغي أن نقلل من شأن المخاطر والتحديات التي باتت تهدد كثيرًا من جهودنا التربوية بسبب التدفق الضخم للصور والرموز والنماذج الأجنبية على العالم الإسلامي. ومن ثم فإن المشكلة لم تقتصر على انفتاح الناشئة على البيئات الأجنبية، وإنما تجاوزتها إلى تلويث بيئاتنا المحلية؛ حيث الكثير من التطورات السلبية التي تتعرض لها البيوت.

الانسجام مع الذات:

يمتلك الأطفال والفتيان درجة عالية من البراءة، فهم يثقون بالكبار، ويعتقدون بصدق ما يقولونه، ويستغربون ما يرونه من تصدع بين الأقوال والأفعال في سلوكات الكبار؛ ويقفون في البداية موقف الحائر المتردد العاجز عن الفهم والتأويل. ومع مرور الأيام تتضح الصورة أمامهم؛ حيث يدركون أنه ليس على المرء أن يحمل كل ما يقال على محمل الجد، وألا يفهمه فهمًا حرفيًّا، بل يتضح لديهم أن التطابق بين الأقوال والأفعال لا يكون موجودًا دائمًا! وحين ينتظم الأطفال والفتيان في الدراسة، ويشرعون في التفاعل مع المواد والدروس التي يتلقونها تبدأ لديهم محاكمات من نوع جديد؛ حيث إنهم هذه المرة يقارنون بين ما يلقنهم إياه أساتذتهم وما يقرؤونه في الكتب المدرسية، وبين ما يشاهدون من سلوك آبائهم وأقربائهم وأساتذتهم وزملائهم... وبما أن المقارنات تفضي دائمًا إلى مفارقات؛ فإنهم يجدون أنفسهم تحت وطأة صراع وحركة شد وجذب؛ فهم تارة يتأثرون وينفعلون بسلوكات من يثقون بهم من أهل وأساتذة، وتارة يتأثرون بما يقرؤونه في الكتب المدرسية من قيم ومثل وأفكار. ومن خلال ذلك الصراع يتشكل لديهم عدد كبير من المشاعر والمفهومات المزعجة التي تُضعف في النهاية من صلابة الشخصية ونقاء توجهها.

وهذه الوضعية الصعبة تحمّل المدارس والمؤسسات التربوية عامة مسؤولية كبيرة؛ لا تستطيع أن تتخلص منها بوعظ الطلاب، ولفت أنظارهم إلى الفضائل التي عليهم أن يتحلوا بها، والأعمال التي يجب أن ينجزوها، بل إن ذلك قد يزيد المشكلة تعقيدًا، ويوجد نوعًا من النفور الشديد لدى الطلاب. وستجد المدارس والجامعات أنه ليس أمامها سوى حل واحد؛ هو أن تبذل كل ما في وسعها كي تجعل من نفسها بيئة منسجمة مع ذاتها، متناغمة مع الرسالة التي تسعى إلى تبليغها لطلابها، وتقوم بتربيتهم عليها. وهذا يتطلب تضييق الفجوة بين واقع المدرسة، وواقع سلوك مُعلِّميها وموظفيها وإداراتها، وعلاقاتهم ببعضهم،

وبطلابهم وبين المضامين التي تقدمها الكتب المدرسية. وذلك وحده هو الذي يمنحها المصداقية من جهة، ويجعل منها محضنًا تربويًّا ناجحًا من جهة أخرى. إن من حق الطالب أن يلمس في مدرسته الالتزام الأخلاقي والمروءة والحيوية والجدية والتعاون والنظام والنظافة؛ لأن هذه المفهومات والقيم مما اشتملت عليه المناهج المدرسية، ومما يشدد عليه المُعلِّمون في قاعات الدراسة. وإن كل خطوة تتم في هذا الاتجاه يتلقاها الطلاب بمشاعر الاغتباط والإحساس بشرف الانتماء.

ويذكرون في هذا السياق أن مدير إحدى المدارس الثانوية استمع إلى محاضرة مؤثرة ألقاها أحد كبار التربويين العرب؛ حيث ركز فيها على تأثير وضعية المدرسة في نجاح الطلاب واستقامتهم. وقد تفاعل الرجل مع ما سمع تفاعلاً شديدًا إلى درجة أنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة؛ حيث تواردت عليه خواطر التطوير للمدرسة التي يديرها من كل حدب وصوب.

وخلال شهور من التأمل والتفكير والبحث بدأت صورة المدرسة التي يريدها تتشكل في ذهنه، وبدأ التنفيذ من خلال منهجية جديدة في إدارة المدرسة، تقوم على تحسين أوضاع تلك المدرسة في كل الاتجاهات، فقد صار يسعى إلى اختيار أفضل المدرسين للعمل معه، كما صار يستشير من يأنس فيهم الرشد والجدية من الطلاب في بعض ما يشكو منه زملاؤهم، ويحاول الاستفادة من آرائهم في إزالة أسباب الشكوى. وكان يحاول إلى جانب ذلك أن تقدم مدرسته لطلابها بعض الخدمات المجانية وبعض الخدمات الرخيصة. وقام بالإضافة إلى ذلك بتفعيل مجلس الآباء في المدرسة، وأشركهم في اتخاذ بعض القرارات المهمة... وقد أدى كل ذلك مع أمور أخرى إلى أن يشعر كل طالب بأنه محظوظ إذ أتيحت له الدراسة في مدرسة بتلك المواصفات. وأظهر كثير من الطلاب تفاعلاً إيجابيًّا عجيبًا مع إدارة المدرسة، وسادت حالة نادرة من الشعور بالرضى حتى قال أحد الطلاب: أظن أن مدرستنا أول مدرسة في بلادنا يشعر

الطالب إذا دخلها أنه في بيته، لولا استمرار الدراسة ساعات طويلة! وقد انتشر خبر تلك المدرسة في المدينة، فصار الآباء يتهافتون على تسجيل أبنائهم فيها، وانهالت عليها التبرعات السخية من بعض الموسرين، وصارت تنتقل من نجاح إلى نجاح!

ليست المدرسة جزيرة معزولة:

نحن لا نتعامل مع أبنائنا وطلابنا ـكما لا نتعامل مع باقي الناسـ على نحو مباشر، وإنما عبر وسيط معرفي، وهذا الوسيط هو (اللغة). ومن الواضح أن اللغة ناقل غير شفاف، وغير دقيق؛ إذ مهما عمدنا إلى استخدام ألفاظ وأساليب دقيقة للتعبير عن مراداتنا ـ وجدنا أنفسنا مرتهنين للغموض والفهم النسبي. إن ما نقوله يظل لينًا مطواعًا قابلاً لأي تشكيل جديد. والبيئة التي يعيش فيها السامع والناشئ هي التي تبدع قوالب التشكيل من خلال مجموعة المفهومات والصور السائدة، فالمعنى الذي يفهمه الطفل الذي نشأ في قبيلة تحترف الغزو والقتال من كلمة (شجاعة)؛ مغاير على نحو كبير للمعنى الذي يفهمه طفل نشأ في مدينة يسودها النظام والقانون.

إن الأول قد ألف مشاهد القتل وسفك الدماء؛ فالشجاعة لديه فتك بالعدو وإقدام على جموعه من غير تهيب. على حين يتجه الطفل الثاني إلى فهم الشجاعة على أنها الجرأة في قول الحق أو في نقد الذات، أو في قتل فأرة، أو الخروج من بيته إلى بيت الجيران ليلاً... وهكذا فإنهما يتفاوتان في فهم مدلولات الجدية والتسامح والعدوان والكرم واللطف والنظافة... وهنا تبرز خطورة تأثير البيئة؛ فهي لا تعلم صغارنا ما يقولونه فحسب، ولكنها تمنح المعنى ما نقوله لهم أيضًا. وهكذا فالإنسان المتوحش الهمجي ليس متوحشًا بطبعه وجبلته، ولكنه على الغالب نشأ في بيئة متوحشة. والإنسان اللطيف الحساس ذو الحديث المخملي

نشأ غالبًا في بيئة تقدر هذه المعاني، وتقدم تجسيدات حية لها. وهكذا فإن وزارات التربية والتعليم تقرر مناهج دراسية واحدة، وتبعث إلى كل أقاليمها بتعليمات موحدة، لكن الآثار التي تتركها في نفوس أبنائها وعقولهم متفاوتة إلى حد بعيد. وما ذلك إلا لأن البيئة التي تقوم بترميز المعاني والمفهومات والنظم وشرحها تتفاوت بين إقليم وإقليم آخر تفاوتًا بيِّنًا. وأكثر ما يكون ذلك التفاوت في البلدان النامية؛ حيث تستحوذ المدن على أفضل الخدمات على حين يعيش أكثر سكان القرى والأرياف في بحر من المشكلات والأزمات. بل إنك تجد في المدينة الواحدة اختلافًا جوهريًّا بين حي يقطنه الأثرياء والموسرون، وبين حي يسكنه الفقراء المعدمون؛ حتى كأنهما ينتميان إلى قطرين مختلفين!

هذا كله يعني أننا بحاجة إلى تطوير بيئة التعليم والارتقاء بها؛ لأن ذلك ارتقاء بمدلولات الكلمات التي نكوِّن من خلالها المفهومات والمشاعر ورؤية الماضي والمستقبل. ولا بد أن ندرك أن البيئة المدرسية مهما نالت من العناية تظل جزءًا من بيئة عامة. ومن الصعب إدخال تحسينات جذرية عليها إذا كانت الأوضاع في البيوت والشوارع... سيئة أو منهارة. وهذا هو السر في أن كثيرًا من الدول النامية استعارت نظمًا تعليمية وغير تعليمية من بلاد الشرق والغرب، وحاولت الاستفادة من تجارب الأمم المتقدمة، لكن النتائج كانت دائمًا دون الطموحات؛ لأن النظام التعليمي ما هو إلا نظام فرعي يتنفس ويتغذى في فضاء بيئة شكلتها مجموعة النظم العقدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة، فإذا نُزع من فضائه الخاص الذي تبلور فيه، وزُرع في فضاء آخر مغاير فإنه لا يؤدي الأداء المرجو منه.

هذا كله يحيلنا على الرؤية الإسلامية في الإصلاح؛ حيث يتم التركيز على الشمول في التغيير لكل نظم الحياة، وعلى سريان عقيدة العبودية لله ـتعالى ـ، ورجاء الآخرة في كل الأنشطة التي يمارسها المسلم في أنشطته اليومية. ولا ينبغي

لهذا التحليل أن يقعدنا عن القيام بالإصلاح الجزئي؛ حيث لا يكلف الله ـ تعالى ـ نفسًا إلا وسعها، فإذا كان المديرون والمدرسون قادرين على إدخال بعض التحسينات على بيئتهم المدرسية، فليفعلوا ذلك؛ فالأمم تبني المدارس والجامعات لتتخذ منها منارات إصلاحية لتتيح لأبنائها نشأة نموذجية جديدة، تساعدهم على أن ينهضوا بمجتمعاتهم بعد تخرجهم منها. ومع أن هذا الاعتقاد يظل ينطوي على شيء من السذاجة إلا أننا بحاجة إليه حتى لا نقع فريسة للإحباط، وحتى لا نجد أنفسنا ندور في حلقات مفرغة أو في إجازة مفتوحة.

ما البيئة التعليمية الجيدة؟

المدارس والمعاهد والجامعات بيئات تربوية متخصصة مختارة، ويرتجى منها في الأصل أن تقوم بوظائف تربوية؛ لا تستطيع الأسر القيام بها، فكثير من الآباء والأمهات أميُّون، كما أن كثيرين منهم لم يتلقوا أي معلومات أو خبرات في الثقافة التربوية، مع أن البيوت هي المحاضن الأساسية للتربية.

ولعلي هنا أوجز أهم السمات التي تجعل من البيئة التربوية بيئة جيدة على النحو الآتي:

1ـ لا يمكن أن تكون المدرسة بيئة تربوية جيدة من غير التزام عام بالمبادئ والقيم الإسلامية؛ لأنها تشكل الأساس العميق الذي يقوم عليه البناء التربوي كله. إن كل مؤسسة تعليمية تحتاج إلى قاعدة ثقافية تربي وتوجه على أساسها، وإلى منطق موحد يصبغ خطابها التربوي. وليس في ديار الإسلام ما يوفر ذلك المنطق وتلك القاعدة سوى المفهومات والأدبيات الإسلامية المستخلصة من المنهج الرباني الأرشد.

وعلى مقدار ما تنجح مدارسنا في استلهام ذلك المنهج والاحتكام إليه والتحقق به؛ تقترب من النجاح الذي تنشده في إعداد أجيال المستقبل على الصعيد العلمي والتربوي. وهو منهج واضح جلي بحمد الله.

2ـ سيظل في إمكان المُعلِّمين أن يروا الأشياء من زوايا مختلفة، وأن يستخدموا مقاييس عديدة؛ إذ يمكن أن نرى أسوأ ما في الطلاب على المستوى المعرفي والسلوكي، كما يمكن أن نرى أفضل ما فيهم، ونشكل بناءً على كلٍ رؤية المشاعر والتوجهات التي تناسبها. ويمكن في الوقت نفسه أن نقارن بين الطالب، وبين نماذج سيئة جدًّا من الطلاب فنرى فيه بعض الإيجابيات، كما يمكن أن نقارنه بنماذج جيدة من الطلاب، فنرى فيه بعض الإيجابيات.كل هذا في أيدينا، وكل هذا مما يمارسه المُعلِّمون يوميًّا، وعلى هذا فإن الخير والشر والتفوق والخمول لدى الطلاب هي أشياء نسبية، وليست مطلقة؛ وينبغي أن نكون على وعي بذلك. وعلينا بعد هذا أن نتساءل: ما الذي نجنيه إذا نظرنا إلى أسوأ ما في الطلاب، وأوقعناهم من ثم في دوامة اليأس واحتقار الذات؟! وماذا نستفيد إذا نظرنا إلى نقاط القوة لديهم وأخذنا بتحفيزهم، وبث روح الأمل والرجاء فيهم؟!

في اعتقادي أن تقويم الطالب على نحو صحيح؛ سيظل أحد الثوابت في العملية التعليمية. ومن الضروري أن يعرف موقعه الحقيقي بين الطلاب، ولكن مع هذا فإن تشجيع الطالب وتذكيره بنقاط القوة لديه، وما يمكن أن ينجزه ويقوم به يظل أعود عليه بالنفع من إيقاعه في القنوط، ووضع العقبات في طريقه

إننا نعرف أن كل الأعمال الإصلاحية الناجحة كبيرها وصغيرها؛ تنطلق من خلال الارتكاز على الإيجابيات القليلة المتوفرة؛ حيث يتخذ المصلح منها رأس جسر لبناء إيجابيات أكثر وأعظم. وهذا ما ينبغي أن نقوم به.

حتى تكون المدرسة بيئة إيجابية؛ فإن عليها أن تحفز روح الانفتاح والمصارحة والمشاركة والتعاون لدى جميع المنتسبين إليها من إداريين ومُعلِّمين وطلاب. ويفوق ذلك كله شعور الطلاب بأن القائمين على المدرسة يهتمون بهم فعلاً، ويحاولون مساعدتهم على التحسن والارتقاء.

لن تصبح المدرسة بيئة إيجابية ما لم يتدرب إداريوها ومُعلِّموها على حسن الإصغاء، كما تدربوا على تجويد الكلام، فالمراهقون يعانون من الكثير من المشكلات، وحاجتهم الأولى ليست إلى من يحل لهم تلك المشكلات، وإنما إلى من يملك القدرة على أن يسمع لهم حتى النهاية.

3ـ في كثير من الأحيان لا تعرف المدارس ماذا تريد من طلابها، وأحيانًا لا تعرف كيف تطلب ما تريده. نعم هناك مطالب عامة تتعلق بالنظام والاجتهاد وأداء الواجبات وعدم التأخر عن الدوام... وهذه أمور جوهرية، ولكن طلبها بفوقية، وعلى نحو مباشر يجعل الطلاب يشعرون أنها أمور مفروضة عليهم؛ ولذا فإنهم يرفضونها في أكثر الأحيان. نحن نريد أن يساهم الطلاب أنفسهم في بلورة ما يمكن أن يلتزموا به في سلوكهم داخل المدرسة وخارجها، لا أن يُملى إملاءً عليهم؛ لأن ذلك هو الطريق الوحيد لتجذير الفضيلة والخير في نفوسهم.

في مدرسة بريطانية قام الطلاب بكتابة شعارات جميلة، وعلّقوها على جدران القاعات الدراسية. وقد شجعتهم إدارة المدرسة على ذلك. ومن تلك الشعارات:

ـ نهتم بكل شيء وكل إنسان.

ـ نبذل كل ما في وسعنا وقصارى جهدنا.

ـ نقول الحق.

ـ نستمع وننصت للآخرين.

ـ نعمل معًا.

ـ كلنا فريق واحد.

ـ شكرًا لإنصاتك.

ـ شكرًا لالتزامك الأدب.

ـ هل تلزم الهدوء؟

وهذه طريقة جميلة، وتتبعها بعض المدارس عندنا. ويمكن اتباع طرق أخرى في هذا الشأن كأن تطبع مقولات كهذه على الكتب المدرسية، أو على مقاعد الدارسة. كما يمكن تخصيص أسابيع مدرسية للتدريب على هذه القيم والسلوكات الحميدة. وينبغي أن يتولى التدريب والإشراف الطلاب الكبار في المدرسة.

4ـ يتوافد الطلاب إلى المدرسة من أسر متفاوتة في تعليمها وتهذيبها ووضعها المادي. وفي بعض البلدان تعدد عرقي وإثني، وفي بعضها تعدد مذهبي... وهذا كله يولّد مناحرات وتوترات عنصرية بين الطلاب. ومن واجب المدرسة حتى تكون بيئة تربوية صحية وجيدة أن تكون يقظة لذلك؛ حيث إنه من الممكن أن ينحاز بعض المُعلِّمين إلى بعض الفئات على حساب فئات أخرى؛ وللكلمات العابرة التي قد يلقيها هذا المُعلِّم أو ذاك، وللنكات والطرف التي يمكن أن يتداولها بعض الطلاب تأثير سيئ على الوضع الاجتماعي في المدرسة.

إن من المعلوم أن أساس التفاضل بين الناس في الإسلام هو التقوى، كما قال ـسبحانهـ: {**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**} [**الحجرات**: 13]، فيكرَّم الطالب ويقدَّم بناءً على صلاحه وبناءً على جده واجتهاده، وليس لأي أسباب أخرى. ومن المؤسف أن طبقية جديدة بدأت تتوضع في كثير من البلدان الإسلامية،

وتلك الطبقية آخذة في اختراق كل مجالات الحياة حتى وصلت إلى المدارس والجامعات؛ فالذي يدفع أكثر ينال وضعًا جيدًا متميزًا في العديد من الأمور، وهذا يشكل خطورة بالغة على أخلاق الطلاب وعلى مصداقية المدرسة.

حين يمتلك المُعلِّمون حساسية جيدة نحو العدل فإنهم يستطيعون حماية مدارسهم من التلويث العنصري الذي ما دخل إلى بيئة من البيئات إلا دفعها في اتجاه الانحطاط.

5ـ التنوع والاختلاف سنة من سنن الله ـتعالى- في خلقه، كما قال ـسبحانه-: {**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**} [**هود**: 118،119]. إن كل اختلاف بين الناس إذا أمكن تأطيره وإيقافه عند حدود معينة يصبح عامل غنى وثراء، ويمنح إمكانات جديدة للحياة الاجتماعية. وأعتقد أن المدرسة الجيدة لا تحاول أن تجعل طلابها عبارة عن نسخ مكررة، ينظرون إلى الأشياء من منظار واحد، ويشكِّلون انطباعات واحدة، ولا يحسنون سوى تنفيذ الأوامر، وإنما تترك دائمًا مساحات للتنوع الشخصي والسلوكي والفكري في إطار الالتزام الشرعي والآداب المرعية، إن التجربة تدلنا على أن محاولة جعل الإنسان يتوحد مع بيئته ليصبح نموذجًا مكررًا عما هو سائد تحوله إلى إمَّعة، وتقتل روح المبادرة لديه، كما أنها قد تفسد أخلاقه حين تهزم مشاعر الاستقلال والحرية لديه.

6ـ تدل شواهد كثيرة على أن انغلاق أي جهة تعليمية أو غير تعليمية على نفسها يسهم في إفسادها وإضعافها. وإن الانفتاح يأتي بالشمس والهواء حيث تزول العفونة. وقد رأينا الكثير من المدارس النائية عن مراكز المدن وكيف أنها صارت نموذجًا للفوضى والتسيب. ولذا فإن المدرسة الجيدة تحاول أن تكون شفافة؛ يرى الذين خارجها ما فيها، ويرى الذين فيها ما يقع خارجها. وهذا وحده هو الذي يجعلها في دائرة الضوء، ويتيح لطلابها أن يستفيدوا من الخبرات

والملاحظات الموجودة لدى الجهات الأخرى؛ ولذا فإن من المهم جدًّا أن يتواصل طلاب المدارس والجامعات مع وسائل الإعلام، ومع العلماء والمفكرين الموجودين في محيط المدرسة، وأن يقوموا بزيارات للمصانع والمؤسسات الكبرى في البلد، وأن يلتقوا على نحو دوري بالمسؤولين عن توفير الخدمات البلدية المختلفة. والهدف من كل ذلك تحويل المدرسة من بيئة راكدة مغلقة إلى بيئة مفتوحة متفاعلة، ومن مكان لتلقين المعلومات إلى إطار تواصل وتفتح وتعارف، وبذلك يزداد وعي الطلاب بالمستقبل وبمتطلبات الحياة الكثيرة والمعقدة.

7ـ المدرسة مكان لتقديم الخبرات والخدمات العلمية والتربوية. وهذه هي وظيفتها الأساسية، ولا شك؛ ولكن يجب حتى تنجح في ذلك أن ترسي بعض التقاليد التي تنظم العلاقة بين الأساتذة والطلاب على المستوى الأدبي؛ إذ ينبغي أن تظل بين الأستاذ والطالب مسافة يبقى معها المُعلِّم مُعلِّما والطالب طالبًا. كما ينبغي أن يشعر الطلاب دائمًا أن الحياة التعليمية لا تخلو من المصاعب والمشاق. وإنما أقول هذا الكلام لأن بعض المدارس الأهلية باتت تدلل طلابها من أجل اجتذابهم على نحو يفسد أخلاقهم. وبعض صور التدليل يكون على حساب كرامة مدرسيهم! وهذا يلحق أضرارًا بالغة بالحياة التعليمية وبالطلاب والمُعلِّمين جميعًا.

ومن المعروف أن الحياة السهلة الرخية توجِد نوعًا من الترهل لدى الذين يعيشون فيها، كما أن الإنسان حتى يتقدم ويترقى يحتاج إلى بعض الظروف المعاكسة؛ حتى يكتسب خبرات بذل الجهد والتغلب على الصعوبات. وعلينا أن نوقن أن الإنسان لا يشبع من المرفهات، وأنه لا بد من وضع حدود لذلك في كثير من الأحيان. نعم إن من المهم أن نوجد الظروف التي تولِّد الرغبة في طلب العلم، وتساعد على تحصيله، ولكن هذا شيء وتسهيل العلم إلى درجة تدعو إلى الكسل والإهمال، ونيل الدرجات والشهادات من غير بذل الجهد الذي يجب أن يبذل ـ شيء آخر.

بـناء العقل

يعوِّل الإسلام كثيرًا على العقل في فهم مرامي الشريعة السمحة، وفي فهم حقائق الوجود ومجريات الأحداث. ولذا فقد كثر الحديث في القرآن الكريم عن التدبر والتفكير واستخدام الطاقات الذهنية في كل شؤون الحياة. وتفيد نصوص كثيرة عدم استقامة تدين الإنسان وعدم استقامة أمور دنياه وعلاقته بربه -سبحانه- وبالناس من حوله...من غير اللجوء إلى العقل والمعطيات الفكرية الراسخة بوصفها محكات جديرة بالثقة. ومن تلك النصوص قوله -سبحانه-: {**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياًّ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**} [**الزخرف**: 3]، وقوله: {**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**} [**الملك**: 10]، وقوله: {**وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**} [**يونس**:100]، وقوله: {**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ**} [**الحشر**: 14].

قد كان الناس يتساءلون منذ قديم الزمان عما إذا كان العلم أكثر إفادة لحياة الإنسان أم العقل؟ ويحاول كثيرون أن يبرهنوا على فضل أحدهما على الآخر. اليوم اختلف الأمر بعض الشيء؛ حيث إن انتشار المعلومات وتدفقها وسهولة الحصول عليها قلل من أهميتها؛ حيث لم تعد تشكل أهم العلامات الفارقة بين الناس، وهذا دفع كثيرًا من الباحثين إلى أن يعطوا أهمية أكبر للتفكير واستخدام الإمكانات الذهنية في تعليل الأحداث، وتحليل المعلومات وتوظيفها.

ومع أن كل الأبناء يتحسن مستواهم الفكري مع مرور الأيام إلا أن عدم إعطاء اهتمام خاص لهذا الجانب؛ يجعل ما يحصلون عليه أقل بكثير مما هو موجود لدى أبناء الأمم المتقدمة؛ حيث إن معظم المدارس والجامعات العربية والإسلامية خالية من أي مواد دراسية تُعلِّم الأولاد كيف يتخلصون من الأخطاء الفكرية، وكيف يفكرون بطريقة صحيحة، مع أنهم يدرسون الكثير من المواد التي لا تغني ولا تسمن من جوع. ونحن لا نستطيع في كتاب كهذا أن

نتناول كل ما يجب عمله من أجل بناء عقول الطلاب على النحو المطلوب، فلنقتصر إذن على ما نراه مهمًّا في هذا الشأن.

تنقية العقل أولاً:

إننا ـمعاشر المُعلِّمينـ كثيرًا ما نتعامل مع عقول الطلاب الصغار منهم والكبار على أنها عقول فارغة من أي رواسب فكرية أو معطيات عقلية جاهزة، ولا تحتاج سوى أن نصب فيها المعلومات. وبناءً على هذا فإننا قلما نسعى إلى تنقية تلك العقول من الأفكار الخاطئة، ومن العادات الفكرية السيئة التي اكتسبوها من بيئاتهم، وتلك التي تتولد آليًّا من استخدام العقل، مع أن من الثابت أن كل الجهود في تحسين مستوى التفكير تذهب أدراج الرياح إذا لم تُسبق بمحاولات جادة لتخليص عقول الناشئة من طرق التفكير المغلوطة، ومن الأفكار التي تشوِّه رؤيتهم للحياة والأشياء. ومن تلك الأفكار: المبالغة، والتحيز، والتعصب، والخضوع للعاطفة، والوقوع تحت تأثير الشائعات، والرؤية النصفية، وتفسير الظواهر الكبرى بعامل واحد، وما شابه ذلك.

إن تشييد البناء العقلي يشبه عمل الفلاح في زراعة أرضه، فهو قبل أن يلقي بذوره يفلح الأرض ويقلبها ويزيل ما فيها من أعشاب ضارة. وهذا ما يجب أن نفعله من خلال تركيز النقد على عيوب التفكير وتشوهات العقل.

التفكير أثناء القراءة:

إذا نظرنا في حياتنا وجدنا أن التقدم العلمي لدينا أسرع من التقدم العقلي بما لا يقاس؛ حيث نجد المتعلم والأمي والكبير والصغير يسردون الكثير الكثير من المعلومات في كل شؤون الحياة، على حين أننا عندما نبدأ بمعالجة بعض المشكلات أو تقييم بعض الأحداث نكشف عن قصور ذهني مريع. ومع أنني لا أعرف بدقة كل أسباب ذلك إلا أني أعتقد أن اقتصارنا على القراءة والسماع

دون التفكير فيما نقرأ ونسمع يُعَدُّ من الأسباب الجوهرية لذلك. وهذه الوضعية ناتجة من عدم وجود الاهتمام الكافي بمسألة التفكير، ومن صعوبة ممارسته إذا ما قورنت بصعوبة القراءة.

إذا أردنا تحسين مستوى التقدم العقلي لدى طلابنا؛ فإن علينا أن نحاول إثارة اهتمام الطلاب بقضية التفكير وتعويدهم ممارسته خلال الدراسة في الفصول، كلما وجدنا مناسبة لذلك. وسيكون من المفيد جدًّا ترك عشر دقائق في آخر كل حصة دراسية للتفكير في المسائل الجديدة التي شرحها لهم المُعلِّم أثناء الحصة. ويمكن أن يسلك التفكير فيها مسالك عدة.

فإذا كان الدرس حول أحداث سقوط دولة من الدول _مثلاً_؛ فإنه يمكن للتفكير أن ينشط حول الأمور الآتية:

- مدى صحة المعلومات التي صورت حيثيات سقوط تلك الدولة.
- هل هناك أخبار أخرى غير ما ذكر في الكتاب؛ يمكنها تقديم رؤية مغايرة أو معدلة؟
- ما المحركات الأساسية التي كانت تدفع تلك الدولة في الاتجاه الذي سارت فيه؛ هل هي عقدية أو اقتصادية أو سياسية، أو هي مزيج من كل ذلك؟
- ما الأخطاء التي وقعت فيها تلك الدولة، وكان في إمكانها تجنبها؟
- ما العظات والدروس التي يمكن أن نستفيدها من سقوط تلك الدولة؟
- ما الآثار الإيجابية والسلبية التي تركتها أعمال تلك الدولة في التاريخ الإنساني العام؟

وهكذا يمكن أن نثير التساؤلات حول كل الموضوعات التي يدرسها الطلاب، وفي كل المواد. وإذا نجحنا في ذلك نكون قد استطعنا مزج مهارات التفكير الإبداعي والنقدي بالمقررات الدراسية. وهذا وحده هو الذي يحوّل المعلومات من عبء على الذاكرة، ومن أشياء لا معنى لها إلى وسائل لتنمية العقلية وتطويرها، لكن لن نستطيع أن نفعل ذلك إلا إذا خلصنا وعينا من الافتتان بالكم المعلوماتي الذي يتلقاه الطلاب؛ لأن نجاحنا اليوم ليس متوقفًا على كمية المعلومات التي نختزنها في ذاكرتنا، ولكن على نوعية تلك المعلومات، وعلى طريقة إدخالها إلى أذهاننا، ثم على تعاملنا معها واستفادتنا منها. وهذا ما يجب أن يلمسه طلابنا من طريقة تعليمنا لهم.

اكتشاف نقطة التفوق:

الفتى الذي يبدو لنا على أنه عادي، لا يكون عاديًّا في كل جوانب شخصيته. إنه يملك شيئًا يتفوق فيه، ويميزه عن باقي أقرانه؛ وذلك لأن الذكاء ليس نوعًا واحدًا، فهناك الذكاء اللغوي، والذكاء الرياضي، والذكاء الاجتماعي والتجاري، وهناك ذكاء في فهم الذات، وذكاء في فهم التاريخ... والمشكل دائمًا يكمن في عدم وجود من ينبه الناشئ إلى نقطة التفوق لديه أو عدم توفر الظروف التي تبرز الجانب اللامع في شخصيته. وبما أن سوء الفهم يشكل الأساس لكل المشكلات فإن كثيرًا من قصورنا في التعامل مع الإبداع؛ ربما كان يعود إلى سوء فهمنا للذكاء والإبداع؛ حيث يظن كثير من الآباء وبعض المُعلِّمين أن الذكي ذكي في كل شيء، والمبدع الحقيقي يتجلى إبداعه في كل المواد التي يدرسها. وهذا غير صحيح، فلو أننا نظرنا في تاريخ نوابغ العالم لوجدنا أنهم في جوانب عديدة من حياتهم كانوا عاديين أو أقل، ولكن اهتمامهم العظيم والبالغ بالجانب المبدع لديهم هو الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه.

إن امتحانات الذكاء يمكن أن تساعد في كشف ذلك الجانب المتوهج، ولكن يظل للممارسة الحظ الأوفر في تعريف الطالب على المجال الذي يملك فيه قدرات متميزة. ودور المُعلِّم يجب أن ينصبَّ على التوجيه والتحفيز والمتابعة والتقييم. وهذه كلها إذا تمت بطريقة صحيحة تساعد الطالب أيما مساعدة على الاستمرار في تنمية مواهبه وقدراته الخاصة.

صحة التصورات:

إذا تأملنا في المناظرات العلمية التي كانت تجري بين علمائنا قديمًا، وإذا دققنا في المناقشات العفوية التي تحدث في مجالس السمر ـ لوجدنا بينها قاسمًا مشتركًا؛ هو التركيز على بحث الأدلة والبراهين التي يدلي بها كل طرف. وقلَّما نهتم بمسألة صحة التصورات التي تحدد الفضاء الذي تولد فيه الأدلة والبراهين. إذا كان التصور فاسدًا، أو كنا اخترنا منطقة الانتباه الخاطئة؛ فإن نتائج تفكيرنا سوف تكون عليلة وبعيدة عن الحقيقة والواقع. إن قدرتنا على الإتيان بالبراهين كبيرة، لكن إذا لم يكن التصور صحيحًا؛ فإن عملنا في الاستدلال على ما نريد يكون أشبه بعمل الطائر حين يبيض في غير عشه!

لذا كان من المهم أن نثري خبرات طلابنا حول فحص تصوراتهم، وحول المداخل التي يختارونها في معالجة مشكلة من المشكلات، وزيادة وعيهم بالأفكار المسيطرة عليهم، والتي كثيرًا ما تكون غير صالحة ولا صادقة.

إن الحصول على تصورات صحيحة لكل قضية نعالجها؛ قد لا يكون متيسرًا في كل وقت، ولكن ما ينبغي أن نسعى إليه هو امتلاك طرق جيدة في بناء تصوراتنا؛ فكيف يمكن الحصول على ذلك؟

إن شرح الأفكار من خلال التدريب من أفضل الطرق التي يمكن أن نتبعها في التعليم، ولنضرب مثالين على ذلك:

1ـ نطرح أمام الطلاب موضوعًا للنقاش، ولنفترض أن ذلك الموضوع يدور حول تحليل نزاع يدور بين طائفتين من المسلمين. بعد أن نعطي الطلاب معلومات جيدة حول حيثيات ذلك الصراع وأوضاعه، نطلب منهم أن يذكروا تصوراهم حول أسباب ذلك الصراع والعوامل المؤججة له. وبعد انتهاء الطلاب من ذكر تصوراهم يضيف المُعلِّم تصوراته إلى تصوراهم، ثم نبدأ المناقشة لتلك التصورات. وسوف نجد من يقول: إن الخلاف نشب بينهم بسبب التنوع العرقي، ونجد من يقول: إنه نزاع على المراعي والمياه، ومن يقول: إن التراع احتدم بسبب قتل واحد من هذه الطائفة شخصًا من الطائفة الأخرى، ومن يقول: إن اختلافهم يعود إلى ضعف التدين، أو إلى قلة التهذيب الأسري أو إلى وحشية البيئة التي يعيشون فيها... ومن الجائز أن ينشأ ذلك التراع بسبب من الأسباب، ثم يتطور لتتحكم فيه فيما بعد عوامل جديدة.

بعد ذلك يبدأ البحث في تمحيص كل تصور على حدة؛ من أجل تحديد التصور الذي يمكن أن يكون أقرب إلى الواقع. وقد ينتهي بنا البحث إلى أن الصراع لم ينشأ بسبب عامل واحد، ولكن بسبب عدد من العوامل. وحين يكون الأمر كذلك فإن علينا أن نحاول تحديد وزن كل عامل من العوامل المذكورة، ومدى مساهمته في حدوث ذلك الصراع.

ليس المقصود هنا أن نوجد حلاً، ولا أن نصل إلى الحق القطعي، وإنما المقصود أن نوضح للطلاب الآتي:

- كل تصور من التصورات المطروحة قابل للجدل والنقاش ومن ثم النفي.
- يمكن أن تكون هناك عوامل أخرى أدت إلى التراع، و لم يذكرها أحد.
- النتائج التي انتهينا إليها في تحديد عوامل الصراع، وتحديد وزن كل عامل نتائج ظنية.

- البحث سيظل ناقصًا حتى نسمع من الفريقين المتقاتلين تحليلهم لأسباب الصراع.
- قد يتبدى الصراع على غير حقيقته، فنظن أنه صراع عقدي، وهو صراع عرقي. أو يتبدى على أنه صراع اقتصادي، وهو امتداد لصراع تاريخي.

2ـ يقرأ الطلاب مقالاً عن ظاهرة تأخر طلاب إحدى المدارس في الحضور صباحًا، ويطلب من كل واحد منهم أن يكتشف الفكرة المسيطرة على الكاتب في تحليله لتلك الظاهرة. ومن باب المساعدة لهم يمكن أن نعرض عددًا من الأفكار التي تصفي القضية على النحو الآتي:

- بُعْد المدرسة عن مساكن طلابها.
- وعورة الطريق المؤدي إليها؛ مما يجعل وسائل النقل تسير ببطء.
- ازدحام الشوارع المؤدية إليها بالسيارات أو المارة.
- سهر الطلاب إلى ساعة متأخرة؛ مما يجعل الطلاب يتأخرون في الاستيقاظ.
- تأخر الأمهات أو الآباء في مساعدة الأطفال على الاستعداد للذهاب إلى المدرسة.
- تضايق الطلاب من (الطابور) الصباحي؛ مما يجعلهم يتأخرون عمدًا.
- كثرة أعطال وسائل النقل الجماعي التي تنقل الطلاب، أو عدم انضباطها في مواعيدها.
- تأخر الطلاب عن الحضور صباحًا مشكلة غير قابلة للحل.
- تأخر الطلاب لا يشكل مشكلة.
- نقل المدرسة من مكانها إلى مكان آخر.

• جعل دوامها مختلفًا عن دوام غيرها تفاديًا للزحام.

بعد استعراض اختيارات الطلاب يمكن أن تُعرَض للمناقشة من أجل استبعاد الغريب منها وترجيح القوي، وما يمكن أن يكون أقرب إلى الحقيقة والواقع.

قضية تنبيه الوعي إلى نوعية الفكرة المسيطرة في مقال أو عمل أو اتجاه... ومحاولة تحديدها على نحو دقيق من المسائل المهمة جدًّا في بناء التصور الصحيح لدى الصغار والكبار أيضًا؛ لأن عدم تحديدها يجعل فهمنا لمجمل القضية ناقصًا أو مشوهًا. ومن الصعب جدًّا تغيير الفكرة المسيطرة أو إيجاد بديل عنها مهما كانت خاطئة إذا لم يتم اكتشافها. بل إن الفكرة المسيطرة حين تكون غامضة يتم توليد أفكار أخرى يُظن أنها بديلة عنها، ولكنها في الحقيقة تابعة لها وتدور في فلكها.

إذا تأملنا في الأخطاء، والكوارث، وحالات الإخفاق الكبرى والشديدة؛ لوجدنا أن الأفكار التي كانت تسيطر على من لهم علاقة بها كانت أفكارًا خاطئة لم يمكن اكتشافها، أو لم يمكن إقناع أصحابها بأنها خاطئة. إن الذي أدمن القمار واللعب بالميسر يخضع لفكرة خاطئة هي: أن ضربة الحظ الكبرى التي سيربح من ورائها الأرباح الطائلة، والتي سيعوض من خلالها كل خسائره قادمة لا محالة؛ ولذا فإنه يستمر في اللعب مهما كانت خسائره عظيمة.

القائد العسكري الذي هُزمت فيالقه العظيمة، واستمر في الحرب كثيرًا ما يعلق كل نتائج المعركة على كتيبة متميزة في تدريبها وتسليحها _ هذا القائد تسيطر عليه فكرة (النوعية)، فهو يتصرف على أساسها مهما كانت الدلائل التي تشير إلى أن من الخير له أن ينسحب من المعركة لينقذ ما يمكن إنقاذه من قواته، وهكذا...

إن مجرد فتح الأذهان لوجود تفسيرات عديدة لشيء من الأشياء؛ يُعَدّ في حد ذاته تقدمًا عقليًّا؛ يساعد في تخليص الذهنية من مخاطر الانغلاق على تفسير وحيد قد يكون خاطئًا.

مناخ الإبداع:

العقل الإسلامي عقل أخلاقي، فنحن ننظر نظرة ملؤها الاحترام والتقدير للقيم الأخلاقية؛ مثل العدل والمساواة والإحسان والوفاء... ولا نعبأ كثيرًا بالقيم العقلية كالذكاء والإبداع والفهم العميق... بل ربما نظرنا إلى هذه الأمور بشيء من الريبة؛ حيث يرى بعض الناس في الذكاء شيئًا مرادفًا للدهاء والاحتيال! وربما كانت نظرتنا للأذكياء والمبدعين مخلوطة بشيء من الغبطة والحسد. ومهما يكن الأمر، فنحن بحاجة إلى أن نعيد النظر في هذا الأمر؛ حيث إن أمة الإسلام تعاني من مشكلات كثيرة، ولها أيضًا طموحات وآمال عريضة؛ ومن العسير تحقيق هذه والخلاص من تلك من غير الإبداع، والتوظيف المكثف للطاقات والإمكانات العقلية التي نملكها.

حين نحترم الإبداع، ونحفز عليه، ونوجد الأطر التي تخدمه وترعاه، يظهر المبدعون، وتسري في الأمة حيوية جديدة. مع التحفيز والتقدير لا بد من توفير شرطين أساسيين من أجل تشكيل مناخ الإبداع، وهذان الشرطان هما:

1ـ الأمن؛ فالخائف ينكمش بدل أن يبدع، ولذا فإن استخدام الأبوين للتخويف والزجر يحبط القوى المبدعة في الطفل، ويصبح مآلها إلى الضمور. واستهزاء المُعلِّم بالطالب وتوبيخه أمام زملائه، وتيئيسه من التفوق؛ يؤدي إلى النتيجة نفسها؛ حيث ينصرف اهتمام الطالب عن إبصار كل نقاط التفوق لديه، لينشغل بكيفية حماية نفسه من الإهانة!

2ـ الحرية؛ وهي شرط مهم للإبداع؛ لأن كثرة القيود المفروضة على الطالب تجعله متوجسًا من كل فعل وكل كلمة. ونحن نفرق بين الفوضى والحرية، وندعو إلى الإبداع الملتزم بضوابط الشريعة الغراء، بل نرى أن الإبداع لا يكون إبداعًا حقيقيًّا لمجرد الإتيان بشيء جديد مهما كان مخربًا ومؤذيًا ـكما يتجه كثير من العلمانيين ـ وإنما يكون الجديد إبداعًا إذا خدم أهداف الأمة وتأطر بثوابتها، وساعد على توحيد كلمتها ولـمِّ شعثها. ومع هذا فلا بد من القول: إن بعضنا يتخوف في بعض الأحيان من أشياء لا تدعو إلى الخوف، ويحيل بعض المسائل الظنية المختلف فيها أو بعض الأمور ذات الدلالة الرمزية إلى مسائل قطعية لا يصح الاقتراب منها. وبعض الخيرين الذين يديرون مؤسسات تربوية يبالغون في الأخذ بمبدأ سد الذرائع، فيمنعون بعض المباحات، ويضبطون الأمور إلى حد التنفير. وكثيرًا ما تعاني مجتمعاتنا من الغموض؛ حيث تنطمس الحدود الفاصلة بين الجائز والممنوع والنافع والضار؛ مما يجعل الناس خائفين من أشياء عديدة لا تخيف ولا ينبغي أن تخيف أحدًا.

إن تغيير نظرتنا للإبداع، ومنحه أهمية جديدة؛ مما يساعدنا على توفير أجوائه وتحقيق شروطه.

الإبداع غير مطابق للذكاء:

من الأخطاء التي وقع فيها الناس قديمًا ـوما يزالون ـ الاعتقاد بأن كل ذكي مبدع، وأن كل مبدع ذكي. وبما أن كثيرًا من الناس يعتقد أن الذكاء موهبة فهم يعتقدون أنه غير قابل للتنمية. وهذا كله يعني أن الإبداع يتسم بالجمود، كما أنه لا يمكن تعلمه؛ ولذا فهو لأناس خاصين هم الموهوبون! وهذا الاعتقاد خاطئ تمامًا، فالذكاء يشكل عنصرًا مهمًّا في الإبداع، لكن لا يكون كل ذكي مبدعًا. وإذا قسنا ذكاء الطلاب ونظرنا إلى إبداعاتهم، فإننا نجد أن المبدعين لا

يشكلون سوى نسبة قليلة جدًّا من الأذكياء. وما ذلك إلا لأن الإبداع يتطلب أشياء أخرى غير الذكاء، سنتحدث ـإن شاء اللهـ عن أهمها.

الذكاء ينمو بالتدريب وبالتعليم الذي تستخدم فيه الوسائل التعليمية الجيدة. والإبداع يُعلَّم لأنه يحتاج إلى أن يتعود الإنسان بعض العادات، ويتخلق ببعض الأخلاق، ويقوم ببعض الأعمال. ولن ينتشر الإبداع في الجيل إلا إذا نظرنا إليه نظرة جديدة، نظرة تنطلق من أن الإبداع ليس فضيلة يتصف بها بعض الأذكياء، وإنما هو حاجة لكل طالب من الطلاب. ولا بد من تقرير هذه الحقيقة، والتبشير بها على كل صعيد وبكل وسيلة.

يبدأ تفتح عقل الطالب نحو الإبداع من خلال إبداعات مُعلِّميه وأساتذته، وذلك في اللحظة التي يرى، أو يسمع فيها ما يبهر، وينتزع الإعجاب الشديد. ولذا فإن تفجير الطاقات الإبداعية، وتكوين التشوق إلى الأشياء الجديدة ـ شيء يصنعه المُعلِّم من خلال إبداعاته.

والطالب الذي يتفاعل مع إبداعات مُعلِّميه، وتغمره مشاعر البهجة والغبطة بما يرى ويسمع، يبدأ بالتفاعل مع الإبداعات التي يراها من زملائه ومعارفه وغيرهم؛ ويتكون في عقله ونفسه ما يشبه غليان المرجل، إنه الانفعال الشديد الذي يبحث عن شيء يُسكب فيه. وهنا تأتي المهمة الثانية للمُعلِّم، وهي مساعدة الطالب على العثور على منفذ بنَّاء وملائم لذلك الفوران من الأفكار والأحاسيس الجياشة. يقول أحد المشتغلين بقضايا الإبداع: (إن عقل الطفل ابن الخامسة يشبه بركانًا له فوهتان، واحدة هدامة والأخرى مبدعة. ونحن بمقدار ما نوسع مدى الفوهة المبدعة؛ نوقف نمو الفوهة الهدامة).

هذا يعني أن عدم اهتمامنا بالذين يملكون إمكانات إبداعية؛ لا يحرمنا ويحرمهم من ثمرات تلك الإمكانات فحسب، وإنما يتيح لها أن تتجه اتجاهات

تخريبية. وما ذلك إلا لأن الإبداع لا يملك أي أخلاقية خاصة تجعله يتجه نحو ما هو خير ونافع؛ فهو يظل عبارة عن إمكانية قابلة للتوظيف المتعدد.

شيء آخر يحتاج منا إلى انتباه، هو أن الطاقة الإبداعية في نفوس الناشئة لا تحتاج إلى توجيه فقط، وإنما تحتاج إلى تنظيم أيضًا، فنحن مع أننا مطالبون بتنشيط الدفق الإبداعي وتحفيزه إلا أن من المهم أن نعلم أن التدفق الإبداعي إذا لم ينظم؛ فإنه قلَّما يأتي بنتائج ذات قيمة؛ فالذي يملك موهبة شعرية فائقة ـمثلاًـ لا يستفيد منها على الوجه المأمول إذا لم يثقف نفسه في مجال معرفي معين، يوظف فيه مقدرته على قرض الشعر. والذي يملك موهبة في الإدارة لا يستفيد منها إذا لم يقرأ بشكل منظم أيضًا في علم الإدارة أو أحد فروعه وهكذا...

إن تنظيم الدفق الإبداعي يقتضي فيما يقتضيه انشغال المبدع بمشروعٍ ما يخصص له معظم أوقات فراغه؛ وبذلك لا تذهب طاقاته وأوقاته في تلبية حاجات طارئة فرضتها الظروف المعيشية أو الاجتماعية أو عمل أشياء تافهة غير ذات معنى. وإذا تأملنا جيدًا في هذه النقطة وجدنا أن معظم الناس، من مبدعين وغير مبدعين، يخسرون خسائر فادحة نتيجة عدم وجود شيء (استراتيجي) في حياتهم، فيبددون أعمارهم بالانشغال بأمور صغيرة تجعلهم لا ينتجون أي شيء ذي قيمة؛ مع أن كثيرين منهم قادرون على إنجاز أشياء عظيمة.

من أجل الإبداع:

انطلاقًا من أن الحصول على إنتاج إبداعي لا يتوقف على الذكاء الخارق، وتأسيسًا على أن كل طالب بحاجة إلى أن يكون مبدعًا؛ فإنني أرى أن نحوّل حديثنا عن سمات المبدعين بوصفها أشياء خَلْقية إلى أشياء يمكن إيجادها وغرسها. ومع أن ذلك يتعذر في بعضها لأنه موروث عن الآباء والأجداد إلا أن

معظمها يستجيب لما نريد ويقبله. ولذا فإني سأسوق بعضًا من السمات التي علينا أن نرسخها في شخصية الطالب، لنساعده على الاستفادة من مواهبه على أفضل وجه ممكن. وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:

1ـ من المهم في مسألة رعاية الإبداع إشعار النابه أنه شخص مهم يعقد أهله ومُعلِّموه عليه آمالاً لا يعقدونها على كل الأبناء والطلاب. ويمكن استغلال الفرص للتعبير عن ذلك، مثل وقت فوزه بمسابقة، ووقت استلامه نتيجة امتحان، ووقت عرضه لفكرة جيدة ...

ومما يُشعر الطالب أنه مهم طلب رأيه داخل الفصل وخارجه في مسألة خلافية، أو في مشكلة من المشكلات إلخ... بعض الآباء والمُعلِّمين لا يرغبون في التعبير عن مشاعرهم تجاه النابهين؛ حتى لا يصابوا بالغرور أو الكبر، أو حتى لا يعوِّلوا على ذكائهم، ويُقصِّروا في الدراسة وتحصيل العلم. وهذا التخوف في محله؛ ولذا فإن من المهم قرن الثناء والتشجيع بالحث على التفوق، كأن نقول له: إمكانات فلان أقل من إمكاناتك، وهو حصل على درجات أفضل من درجاتك؛ وأنت تستحق فوزًا أحسن لو بذلت جهدًا أكبر. وكأن نقول له: يمكن أن تكون في وضعية أفضل من هذه الوضعية الجيدة لو أنك وضعت لنفسك برنامجًا للقراءة؛ وهكذا...

من المهم ونحن نُشعر الطالب بأهميته أن نستهدف تعزيز ثقته بنفسه، فالثقة بالنفس ضرورية لتوسيع الطموحات، وخوض التجارب، وإذكاء العزيمة. الثقة بالنفس لا تعني الغرور، كما لا تعني الوقاحة أو التهور، إنها تعني يقين الشخص بأنه قادر على القيام بأمور قد لا يستطيع كل الأقران القيام بها، كما تعني إحساسًا قويًّا بالقدرة على التقدم، والتفوق على الذات، والصمود في وجه التحديات. وينبغي أن يركز خطابنا التشجيعي لمن نربيهم على تنمية هذه

المعاني، وذكر بعض القصص التاريخية والواقعية التي تقررها وتشير إليها؛ فالقصص والحكايات كثيرًا ما تساعد على إزالة الأوهام، وكثيرًا ما تحوِّل الدلالة الرمزية لدى الناشئ، فتتغير نظرته إلى الأشياء، ويصبح ما كان يظن أنه مستحيل أو صعب ميسورًا أو ممكنًا.

2ـ كثير من الأعمال الإبداعية مدين لتمتع صاحبه بالقدرة على التفكير المركّز، والذي يعني تشغيل العقل فترة طويلة من الزمن في مشكلة واحدة. بعض الناس يملك قدرات عقلية جيدة، لكنه لا يملك الصبر على سبر أغوار قضية أو مشكلة واحدة، واستقصاء انثناءاتها وتداخلاتها وارتباطاتها والآثار المترتبة عليها... بعض الناس يظن أن التفكير المركز يعني الجلوس في مكان هادئ، والتلبس بنوع من الضغط النفسي وحصر الذهن على نحو كثيف في مسألة ما. وهذا غير صحيح؛ وإن مثل هذا العمل قد يربك العقل أكثر مما يساعده على التفتح والحصول على الأفكار الجديدة.

إن اكتشاف المجهول لا يحتاج إلى التفكير المكثف الذي لا يتخلله أي انقطاع، وإنما يحتاج إلى إبقاء ما نرغب في الوصول إليه في دائرة الاهتمام فترة طويلة من الزمان؛ وكلما حصلنا على أفق أو ملمح قمنا بتسجيله لننسج في النهاية من مجموع ما حصلنا عليه الفكرة أو النظرية المنشودة.

ولذا فإن تحديد زمن للطالب ليصل إلى شيء ما قد يكون مهمًّا، ولكن بشرط أن يكون الوقت الذي نمنحه أكثر من كاف؛ حتى لا يقع في محذور الضغط الذي أشرنا إليه. وشيء جميل أن نسأل أبناءنا وطلابنا بين الفينة والفينة إلى أين وصلوا في مشروعاتهم؛ بهدف تحفيزهم على الاستمرار وبذل الجهد العقلي المطلوب؛ لأنه ثمن لا بد من دفعه للحصول على الأشياء القيمة.

3ـ أكبر مشكلة تحول دون استمرارنا في أعمالنا، هي مشكلة الإخفاق والتعثر. إن هناك ما لا يُحصى من الطلاب الذين تركوا الدراسة في مرحلة من المراحل التعليمية بعد شهرين أو ثلاثة من بداياتهم. وهناك كثير من الطلاب الذين يتركون المدرسة عند ظهور نتيجة أول امتحان أدوه. وهذا في ظني يعود إلى نوعية التربية التي نمارسها في البيوت؛ إذ من الأمثال الشعبية التي يسلِّم الناس بمضامينها قولهم: (الديك الفصيح من البيضة يصيح)، وقولهم: (المكتوب يظهر من عنوانه)، أي إن البدايات تدل على النهايات؛ والذي لا يتغلب على أول تحدٍّ يواجهه قد لا يستطيع التغلب على التحديات التي تأتي لاحقًا! وربما رسخ بعض المُعلِّمين هذا المفهوم من خلال أحاديثهم للطلاب عن جوهر الذكاء والتفوق، فيزيدون الطين بلة!

لا بد أن نبذل جهدًا خاصًّا في تغيير مفهومات الطلاب حول قضية الإخفاق؛ إذ إن تغيير النظرة في بعض الأحيان يكون ذا أثر جوهري في تغيير سلوك الإنسان وردود أفعاله. وينبغي أن يفهم الأبناء أن إخفاق الواحد في امتحان أو مشروع لا يعني نهاية العالم، وليس له أي مؤشرات أبدية، كما يصور ذلك الخيال الشعبي.

إن الإخفاق يعني نتائج غير جيدة، كما يعني عدم إتقان المقدمات والوسائل، أو عدم التكيف مع وضعية جديدة. وإن في العالم ناجحين كُثُراً أخفقوا في محاولات عديدة، لكنهم لم يقنطوا، ورأوا أن كل حالة إخفاق تدل على اكتشاف طريق مسدود أو طريقة خاطئة، أو أسلوب غير صحيح؛ ومن ثم فإن حالات الإخفاق كانت تقربهم دائمًا من طريق الفوز والنجاح.

كم هو الفرق بين مُعلِّم يقول لطلابه: إن رسوب الطالب في بداية الدراسة يدل على أنه لا مستقبل له، وأن عليه أن يبحث عن مهنة يعمل فيها، ويكسب منها لقمة عيشه. وبين مُعلِّم يقول: إن رسوب الطالب في بداية المرحلة الثانوية

أو الجامعية أمر غير مستغرب؛ لأنه لم يتكيف بعد مع الأجواء الجديدة، ولم يتعرف على أسلوب الأساتذة في الاختبارات، وإن كثيرًا من الطلاب الذين رسبوا استطاعوا بعد ذلك أن ينجحوا ويتفوقوا!!

ينبغي أن نشرح لطلابنا أن الإخفاق يدل على وقوع خطأ ما، وأن الناجحين لا يخشون من الأخطاء، ولكنهم في الوقت نفسه يحاولون ألا يقعوا في الخطأ الواحد مرتين؛ لأنهم حين يقعون في خطأ يناقشون أسبابه، ويضعونه في دائرة الوعي حتى لا يتكرر منهم مرة أخرى.

في التاريخ ما لا يحصى من الصور والوقائع التي ولَّدت فيها الصدمات عقولاً ونفوسًا جديدة نسيت الماضي، وانشغلت للعمل في المستقبل.

4ـ يتمتع كثير من الفتيان والشباب بخيال جامح، ويخطر للواحد منهم الكثير من الأفكار التي يظن أنها ذات قيمة كبيرة. وهذا شيء إيجابي في حد ذاته، لكن عدم الوقوف عند بعض تلك الأفكار ـعلى الأقلـ يولِّد في نفس صاحبها شيئًا من الجمود أو الإحباط، كما أنه لا يكتسب منها أي خبرة تمكنه من امتحانها واكتشاف مدى إمكانية الاستفادة منها. ولذا فإن على المربي أن يحث الطالب على أن يتعامل مع الأفكار التي تخطر في ذهنه بشيء من الجدية؛ وذلك من خلال عرضها على أساتذته وزملائه ومناقشتها معهم؛ إذ إن ذلك سوف يجبره على تنظيمها وصياغتها. وهذا في حد ذاته يمنحها شيئًا من النضج والمعقولية، ويضعها في موقف يؤهلها للمحاكمة والاختبار.

كما أن علينا أن نشجع الطالب على تطبيق ما يقبل التطبيق منها، كما هو الشأن في الأفكار العلمية؛ لأن التطبيق وحده هو الذي يكشف عن اقتصادية الفكرة، وعن مدى إمكانية تجسيدها في منتج. أما إذا كانت الفكرة غير قابلة للتطبيق لكونها تتصل بالشأن الإنساني؛ فإننا نشجع الطالب آنذاك على نشرها في مجلة أو إلقائها في محاضرة أو حلقة بحث؛ لأن نشر الأفكار يعرضها للنقد،

والذي يُعد أفضل مساعد على تنقيتها وتصحيحها. ومن الطبيعي أننا إذ نفعل كل ذلك لا نستهدف الحصول على أفكار جديدة فحسب، وإنما نريد قبل ذلك تنشيط العمليات العقلية لدى الطالب، وجعله يشعر بكيانه المعرفي وتدريبه على الإبداع.

5ـ الناس بطبعهم يميلون إلى التصرف وفق الرغبات بعيدًا عن أي قيد. وهم ينظرون إلى كل نظام يُفرض عليهم على أنه عدوان على حريتهم. ولكن الحقيقة أن البشرية مدينة إلى حد بعيد في رقيها وتقدمها لما تم استحداثه من تنظيمات في المجالات المختلفة. وكثير من الناس ينظرون إلى الإبداع على أنه عبارة عن فورات وبوارق فكرية خاطفة؛ ولذا فإنه يتأبى على القولبة والتقنين. ونحن لا ننكر الاستبصارات الطارئة والومضات المفاجئة التي يجد الإنسان نفسه مغمورًا بها، كما لا ننكر ما حصدته البشرية من ثمارها وخيراتها؛ لكن الأعمال الإبداعية ـكما أشرنا من قبلـ ليست نتاجًا لتلك البوارق فحسب؛ ولذا فإن من شروط استثمار الذكاء والتفوق العقلي، ومن شروط تجسيد الإبداع في أشياء ملموسة: تنظيم بيئة عمل المبدع؛ حيث يتم تخصيص وقت للقراءة والاطلاع، ووقت للتأمل والتفكير، ووقت للنقاش، ووقت لإجراء التجارب والمراجعة... هذه الأنشطة أشبه بالأرض الخصبة التي تنتظر الغيث، وأشبه بشبكة الصياد التي تنتظر وقوع الأسماك فيها.

وإن كثيرًا من الذين يتمتعون بإمكانات إبداعية عالية لا يستفيدون منها؛ لأنهم لم يهيئوا البيئة التي يمكن لتلك الإمكانات أن تتفاعل فيها. ومن هنا فإن البيوت التي يسودها النظام في الشؤون اليومية المختلفة تقدم خدمة جليلة لأبنائها؛ حيث تؤسس لديهم النفسية التي تقبل النظام وتتعوده، وتنشأ في أجوائه. المدارس تستطيع إكمال الدور من خلال تنظيم نفسها على نحو جيد، ومن خلال توعية الطلاب بأهمية تنظيم الواحد منهم لحياته الشخصية، وشؤون تعلمه وتثقفه وإنتاجه.

6ـ كما أننا نميل إلى الفوضى فإننا نميل إلى ممارسة الأشياء السهلة، والفرار من وجه الصعوبات والتحديات. وكما كانت البشرية مدينة في تقدمها لتنظيم الحياة؛ فإنها كذلك مدينة للشدائد؛ إذ من الواضح أن العالم كان على مدار التاريخ يتقدم من خلال الأزمات أكثر من تقدمه من خلال الرخاء. التحديات التي يواجهها الطلاب هي التي تصلّب روح المقاومة لديهم، وهي التي تستنفر الطاقات الهاجعة، وهي التي تستحثهم على المزيد من بذل الجهد. ولذا فإن من المهم أن نرسِّخ في نفوس الأجيال الجديدة الترحيب بالعمل الشاق، وكل ما يتطلب جهدًا متميزًا. الكتاب الصعب الذي يفهم الطالب منه 80 ٪ أعود عليه بالنفع والفائدة من الكتاب السهل الذي يفهمه على نحو كامل؛ لأن الطالب حين يقرأ لا يفهم بسهولة إلا المسائل التي يعرفها من قبل؛ وما الفائدة من دراسة أمور يعرفها؟!

النجاح الذي يتطلب من الطالب دراسة 6 ساعات يوميًّا أنفع له من النجاح الذي يتطلب دراسة ساعتين... وهكذا.

نحن نفرق بين نجاح يُعجز الطالب وبين نجاح يتحداه؛ فالنجاح الذي يتطلب القيام بأعمال خارج إمكانيات الطالب نجاح معجز، وهو يلحق أضرارًا بالغة بنفسية الطالب. أما النجاح الذي يتحدى فهو الذي يتطلب بذل جهودٍ شاقة، لكنها ضمن طوق الطالب واستطاعته. وأتمنى أن يأتي اليوم الذي تحويَ فيه كل مدرسة فصولاً للمتفوقين؛ يدرسون فيها مناهج خاصة تؤهلهم للصعود إلى القمة، وتسلم القيادة في المجالات المهمة؛ كي يشكلوا منارًا لتقدم الأمة ونهضتها.

7ـ يشكل الفضول المعرفي والتساؤل أساسًا مهمًّا في بناء العقل؛ إذ هو المدخل الرئيس لتكوين القدرة على المحاكمة العقلية الجيدة، والتي تشكل بدورها القاعدة المتينة للنقد الذاتي والغَيْريّ. يمتاز المبدعون بأنهم لا يقبلون كل ما

يسمعونه على علاته، وإنما يحاولون تقييمه والبحث في تناقضاته وثغراته. والحقيقة أن كل ما ينتجه البشر من أفكار ومفهومات ونظم يظل قابلاً لنوع من النقد، بل محتاجًا إليه. وفي اعتقادي أن على المُعلِّمين على نحو خاص ـ كي ينمّوا الحسّ النقدي لدى طلابهم ـ أن يشجعوهم منذ السنوات الأولى على إلقاء الأسئلة المختلفة، وأن يوضحوا لهم أن إلقاء الأسئلة فن، وأنها تدل على مستوى فهم صاحبها ومعرفته دلالةً لا تقل عن دلالة جواب المجيب. وقد قالوا قديمًا: السائل مُمتحَن.

وإن كثيرًا من المُعلِّمين يتضايقون من كثرة أسئلة الطلاب، ويعدُّون التشاغل بالإجابة عنها مما يُفوِّت عليهم فرصة إكمال المناهج، وهذا غير صحيح، فما يسمعه الطالب في سياق حواري مع أستاذه أهم بكثير من المعلومات الجامدة التي يطَّلع عليها في كتاب. وقد بات من المهم أن نغير رؤيتنا للأجوبة التي نرد بها على الأسئلة الواردة؛ فقد كنا نبتهج بالجواب المفحم المقنع الذي لا يجد السائل معه أي مجال للقول. وأعتقد أن ذلك لا يخلو من الأنانية أولاً ومن ضعف الخبرة ثانيًا؛ فالعلم لا ينمو من خلال الأجوبة المُسْكتة، وإنما من خلال الأجوبة التي تثير المزيد من الأسئلة. وينبغي ألا نفرح كثيرًا بالطالب الذي يقنعه أي جواب، وإنما بالطالب الذي يفتق الأسئلة، ويطلب الأدلة والبراهين؛ فهذه الوضعية هي التي تدل على الحيوية الفكرية، وهي التي تساعد على تكوين العقل الناقد.

إذا أردنا المساعدة في تكوين خلفية جيدة لدى الطلاب فلنحاول تقوية الملاحظة لديهم، وإثارة اهتمامهم بالتفاصيل؛ إذ من الواضح أننا نرى أشياء كثيرة مهمة، لكننا لا ننتبه إليها؛ ولذا فإننا لا نكتشفها. وصار من المؤكد عند العلماء أن اهتمامنا بملاحظة الأشياء هو الذي يمنحها الأهمية؛ إذ من غير الاهتمام قد لا نعثر على أي شيء خطير. ومن وجه آخر فإننا تعودنا أن ندرك الأمور على الوجه الإجمالي دون معرفة الجزئيات؛ وذلك من آثار الثقافة

الشفاهية التي غذت أجيالاً كثيرة من أبناء المسلمين. وأعتقد أن الإبداع يتطلب دائمًا الخوض في التفاصيل؛ لأنه يساعد على إظهار الذهنية المتفوقة وينميها. ويستطيع المدرس في المرحلة الثانوية وما بعدها أن يطرح قضية ما للدراسة، مثل مشكلة الفقر أو البطالة أو الطلاق... ويطلب من الطلاب أن يفيضوا في نقاشها عارضين لأسبابها، وللعوامل التي تؤدي إلى استمرارها، والنتائج التي تترتب عليها وكيفية معالجتها، والجهات التي ينبغي أن تقوم بذلك، ومقدار تكاليف معالجتها... إلخ.

8ـ لا يصبح الإنسان مبدعًا إلا إذا تمتع بقدر جيد من المرونة الذهنية؛ حيث إن التصلب الفكري يجعل المرء لا يرى إلا في اتجاه واحد، كما أنه يصبح غير قادر على أن يتخلى في أعماله عن الأفكار التي امتلكها وبلورها. المرونة ليست سمة لجهاز التفكير لدينا؛ بقدر ما هي مفهومات تتحكم في موقفنا العقلي من المعلومات والأحداث والأفكار. وهذه المفهومات تتكون ببطء منذ الصغر، وهي كالمفهومات التي تكوِّن التصلب الفكري قابلة للنمو الذاتي إذا لم نضعها في دائرة الضوء.

إن الذي يتمتع بالمرونة الذهنية يستجيب للمعلومات الجديدة، ويتفاعل معها؛ ولذا فإنه يظل قادرًا على التخلي عن المفهومات التي بناها على المعلومات القديمة. وهذه القدرة تكاد تكون ملازمة لكل مبدع؛ كما أن فقدها يشكل معضلة شائكة لكثير من الناس، وهي عامل أساس في تخلف كثير من الأعمال والمنظمات. وإن الطالب بحاجة إلى أن نوضح له على وجه لا لبس فيه أن الإنسان الحصيف لا يستسلم للمعلومات القديمة، كما لا يستسلم للمعلومات الجديدة. وكما أن على الواحد منا أن يكون مستعدًّا للتخلي عن المعلومات القديمة؛ فإن عليه أيضًا أن يتخلى عن المعلومات الجديدة إذا توفر ما هو أحدث منها بشرط قبول المختصين له، واعتبارهم إياه ناسخًا لما سبقه. ويمكن لجميع

المُعلِّمين وفي كل المواد أن يعرضوا المعتقدات والمعلومات القديمة في موادهم، وكيف نسخت بالمعلومات والأفكار الجديدة.

المرونة الذهنية تعني القدرة على النظر من زوايا مختلفة، فالمبدعون يرون الإيجابيات والسلبيات الموجودة في العمل أو المشروع الواحد، كما يفرقون بين المقدمات والنتائج، وبين الأهداف الكبرى والنهائية وبين الأهداف الصغرى التي هي بمثابة وسائل بالنسبة إلى ما هو أكبر منها؛ إنه يملك رؤية مركَّبة وليِّنة.

أما المصاب بالتصلب الذهني فيغلب عليه أن يرى سلبيات أمر من الأمور أو إيجابياته، كما أنه تختلط عليه الأمراض بأعراضها وعقابيلها. ومواد التاريخ والاجتماع والاقتصاد تقدم للمُعلِّمين فرصة ذهبية؛ كي ينمّوا لدى طلابهم المرونة الذهنية. ولكن لا بد قبل ذلك أن يحسِّنوا خبراتهم بهذه المسائل؛ كي يستطيعوا الوقوف على تطبيقاتها في المناهج والمواد الدراسية.

المرن ذهنيًّا يستطيع التراجع عن بعض طروحاته، كما يملك القدرة على الشك في أسلوبه ووسائله؛ لأنه يعلم أن كل ما أنتجه عقله مبني على اجتهاد، والمجتهد يخطئ ويصيب. المُعلِّمون من خلال تراجعهم عن أخطائهم التي وقعوا فيها أمام الطلاب، ومن خلال شرحهم للقصور البشري في إدراك الحقائق؛ يشجعون الطلاب على سلوك هذا المسلك الحميد.

جيل يعـ ف

كلمة (اقرأ) أول كلمة نزلت على نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-. وينبغي أن نفهم الدلالة العميقة لذلك في صورة اكتشاف لأهمية العلم والمعرفة في وجودنا المعنوي والمادي؛ فنحن بحاجة إلى العلم ليس من أجل إخضاع الطبيعة، أو من أجل الحصول على فرصة عمل فحسب، وإنما نحتاجه قبل ذلك من أجل فهم أنفسنا، وفهم طبيعة علاقتنا بخالقنا -جل وعلا-، إلى جانب فهم العصر الذي نعيش فيه، والتحديات التي تواجهنا. إن أذهاننا لا تدرك الأشياء على نحو مباشر، وإنما عبر وسيط معرفي مكوّن من مبادئ علمية وعقلية ومعارف وخبرات حياتية. وعلى مقدار ما نقرأ ونتعلم ونجرب يتحسن مستوى ذلك الوسيط، وبتحسنه يتحسَّن فهمنا للوجود، وتتحسن معه نوعية الحياة.

ومع أن العلم ظل يتمتع بالاحترام والتقدير على مدار التاريخ ولدى كل الأمم المتمدنة، إلا أنه يكتسب الآن مكانة استثنائية، لم يتبوأها من قبل؛ حيث إن الأمم كانت تنظر إليه على أنه شيء مواز للعقل والذكاء الفطري؛ وبعضهم كان يرجح الذكاء عليه، وقد كان ذلك يلقى القبول في الماضي من بعض الناس نظرًا لضآلة ما كان متوفرًا بين أيديهم من المعرفة المنظمة. أما اليوم فإن هذا الكم الهائل من المعارف المتكاثرة قد جعل الموازنة غير واردة؛ حيث إن كل التراكمات والتنظيمات والترتيبات الحضارية الموجودة الآن _ مدينة على نحو أساسي للعلم والخبرة والتجربة. كما أن التعامل مع المعطيات الحضارية والاستفادة منها، ومواجهة مخاطرها لن يستقيم من غير المعرفة المعاصرة.

إن النظرة الحديثة للعلم لا تجعله في موازاة العقل، بل تجعله المصدر الأعظم لتكوين العقل وتشكيل أسلوب حياتنا وعلاقاتنا. ولهذا فإن تحسين مستوى

المعرفة والتثقف لدى الجيل المسلم الجديد ـ يجب أن يستحوذ على الكثير من اهتماماتنا وجهودنا.

ولا نستطيع هنا أن نسلط الضوء على ما يجب تعليمه للطلاب، فحديث ذلك يطول، لكن يمكن أن نذكر بعض الأفكار والمفهومات التي تبرز الملامح العامة للتثقف الجيد، وعلى الله قصد السبيل.

العزوف عن القراءة:

علينا قبل كل شيء أن نعترف أننا قد أخفقنا إخفاقًا ذريعًا في إرساء تقاليد ثقافية تمجد الكتاب والقراءة، وترعى حب الاستطلاع لدى الأطفال وتحميه؛ حيث إن هناك الكثير الكثير من البيوت التي ليس فيها مكتبات خاصة.

كما أن هناك مكتبات منزلية كثيرة ليس فيها أي شيء يناسب الأطفال. ولا يخفى إلى جانب ذلك أن هناك كثيرًا من المكتبات التي لا يستفيد أصحابها منها أي شيء، فهي في نظرهم جزء من أساس البيت، وجانب من تكميله الشكلي! ومع أننا نملك شهية للاستهلاك غير محدودة، وننفق الكثير من المال على أشياء ليس لها أي معنى؛ فإن الذين يخصصون جزءًا من مصروفهم الشهري لشراء الجديد من الكتب أو المجلات لا يشكلون سوى جزء ضئيل جدًّا من المجتمع.

ولذا فإن الوقت الذي يقضيه العربي ـوسطيًّاـ في القراءة، هو تقريبًا سُدس الوقت الذي يقضيه فيها الإنسان في العالم الصناعي! وليس هذا بالغريب؛ لأن هذه الوضعية من المؤشرات المهمة إلى مساحة الهوة الحضارية بين الدول التي تقود الحضارة، وبين تلك التي تستهلك المنتجات الحضارية.

تعليم القراءة في وقت مبكر:

يبدو أن عزوف الأبناء والآباء عن ممارسة القراءة يعود إلى القصور الذي اعترى النشأة الأولى في المترل؛ إذ إن العناية بتأسيس التوجه المعرفي لدى الأطفال في سن مبكرة شبه معدومة، فنحن نعتقد أن الطفل في السنوات الثلاث أو الأربع الأولى، يتأبى على إيصال أي أفكار أو معلومات ذات قيمة إليه. وكثير من الآباء الذين يعتقدون أنهم يملكون رؤى تربوية جيدة يرون أن الأطفال في سنواتهم الأولى لا يحتاجون إلا إلى العطف واللعب. ومع أن هذين الأمرين مهمان جدًّا إلا أن في الإمكان أيضًا توجيه الموقف النفسي لدى الصغار في اتجاه عشق المعرفة وتكوين عادة القراءة عندهم؛ فالآباء والأمهات الذين يعرفون أصول التربية يستطيعون وضع بذور المعرفة الجيدة لدى أبنائهم؛ من نحو الملاحظة، والإصغاء والانتباه، وعقد المقارنات، وتمييز المفارقات منذ وقت مبكر جدًا.

يقول أحد الباحثين: إن تعليم القراءة للأطفال يبدأ منذ سن ستة أشهر. ويقول: إذا أردت أن تربي قراءً جيدين؛ فإن عليك أولاً أن تتعرف على مهارات السرد القصصي؛ أي أن تتعلم كيف تقدم المعرفة للصغار كما يقدم القاصّ الماهر حكاياته المشوقة والممتعة لمن يقص عليهم. والقراءة للأطفال ومع الأطفال منذ سن مبكرة ذات أثر بالغ الأهمية في نموهم الذهني والوجداني. والمهم ليست الكمية التي نقرؤها لهم، ولكن المهم تشجيع الطفل على المشاركة أثناء القراءة، وإلا فإن استفادته منها ستكون شبه معدومة. إذا اخترنا بعناية ما نقصه على الأطفال الصغار؛ فإننا لا نبذر في نفوسهم الاستئناس بالمعرفة والتشوق إليها فحسب، وإنما يمكن أن نوصل إليهم بعض المبادئ والقيم المهمة أيضًا، فمن خلال قصة ممتعة يمكن أن نعلم الطفل حب الناس، واحترام النظام، وتقدير الصدق، والأمانة، والاهتمام بترتيب شأنه الخاص، إلى جانب إعطائه درسًا في

اللغة والتواصل. وسيكون لشراء سلاسل من الكتب المصورة أهمية كبيرة في كل ما ذكرناه.

إن عادة القراءة لن تتكون لدى الطفل إلا حينما يشعر بشيء من المتعة واللذة عندما يقرأ. وهذا لن يكون إلا حينما يشعر الطفل أن القراءة بالنسبة إليه تشكل نوعًا من الاكتشاف، ونوعًا من تنمية الذهن وتوسيع الفهم. وقل مثل ذلك في سرد الحكايات التي نحكيها له، فكلما كان استمتاعه بما نحكيه كبيرًا نما حبه للمعرفة والاطلاع واجتراح المجهول.

الخيال العلمي:

بين سن السادسة والتاسعة يتأجج في صدر الطفل شوق عارم إلى الاطلاع وامتلاك صور ذهنية غير معقدة؛ حيث يجمح الخيال العلمي متجاوزًا نطاق البيئة. وفي هذه المرحلة يكون لقصص الخيال العلمي نفع كبير في تنمية حب المعرفة وتوسيع نطاق الإدراك.

إن الاطلاع المكثف على قصص الخيال العلمي يساعد الطفل على فهم التغيرات التي تطرأ على العلم والحياة الاجتماعية، ومن خلالها يتهيأ للتجاوب مع الاكتشافات الحديثة التي تهدم الكثير من النماذج والمعطيات العلمية القديمة؛ وبذلك يترسخ لديه التشوف إلى معرفة الجديد، والانفتاح على التغير والاستجابة الملائمة له.

ولذا فإن مكتبات البيوت والمدارس ينبغي أن تغتني بكتب الخيال العلمي. وبعد ذلك يأتي دور المدرسة التي عليها أن تشجع على المطالعة الحرة والإضافية؛ من خلال إجراء المسابقات وتقديم المكافآت، ومن خلال توسيع مفهوم الواجبات المنزلية.

الاهتمام بالتخصص:

نحن بحاجة -في سياق بنائنا لجيل يقرأ ويعرف ويبحث- إلى أن يشجع المُعلِّم طلابه منذ المرحلة المتوسطة على أن يكون لكل واحد منهم اهتمام خاص بفرع من فروع المعرفة مثل الفقه أو التفسير أو الرياضات أو العلوم أو التاريخ... ويساعده على أن يحوِّل ذلك الاهتمام على سبيل التدريج إلى هواية يملأ بالاشتغال بها أوقات فراغه، بل يبحث عن الوقت الذي يقضيه فيها. وإذا نجح المُعلِّم في ذلك؛ فإنه يكون قد وضع قدمي الطالب على بداية طريق حب الحياة العلمية وخوض غمارها، بل التضحية من أجلها. وإذا نظرنا في تاريخنا الإسلامي، وفي تاريخ الأمم الأخرى، وفي واقعنا المعيش وجدنا أن دور الهواة في تقدم الأمم عظيم جدًّا، ولا يقل في بعض المجالات عن دور المحترفين. وإننا إذ نؤكد على ذلك نطمح إلى ملء أوقات أبنائنا بما يعود عليهم بالنفع، كما نطمح إلى زيادة أعداد المشتغلين بالمعرفة والباحثين والمكتشفين؛ لأن أمة الإسلام تعاني من نقص مريع في هذا الحقل، إذا ما قارنا ما لديها بما لدى الأمم الأخرى.

طريقة تقديم المعلومات:

لا يتعلم المرء من غير بذل الوقت والجهد، وأحيانًا المال. وحتى يجد الواحد منا الطاقة على ذلك؛ فلا بد من أن يشعر أن ما يريد تعلمه شيء يستحق التضحية؛ لأنه سيعود عليه بالخير والنفع. وأعتقد أن كثيرًا من أبنائنا لا يُقْبلون على طلب العلم بولع وشغف؛ لأنهم لا يدرون كيف يمكن للمواد التي يدرسونها أن تعود عليهم بنفع ملموس؛ كما أن أكثرهم لا يدري كيف يوظف كثيرًا من تلك المعلومات في حياته العملية. هذه الوضعية تجعلنا نؤكد أمرين: طريقة تقديم

المعلومة، وهذه من مسؤوليات المُعلِّم. وطريقة تخزينها، وهذه من مسؤوليات الطالب.

أما طريقة تقديم المعارف والمعلومات؛ فإنها تتم الآن على غير الوجه الصحيح؛ حيث يقوم المُعلِّم في كثير من الأحيان بشرح بعض المسائل والموضوعات دون إجراء حوار مع الطالب بشأنها. ويقتصر دور الطالب على قبول تلك المسائل كما شرحت، وحفظها من أجل الامتحان فيها ثم نسيانها! وحين يكون الأمر كذلك؛ فإن الطالب يشعر أن كل معلومة جديدة يتلقاها تشكل عبئًا جديدًا على ذاكرته؛ ولذا فإن عقله الباطن يستحثه على نسيانها والتخلص منها. لكن الأمر سيختلف كثيرًا حين تُقدَّم المعلومات، وتُشرَح المسائل، وتقرر الموضوعات بهدف توسيع قاعدة الفهم، وتحسين مستوى المحاكمة العقلية لدى الطالب.

وحتى يتحقق ذلك؛ فإنه يجب تقديم كل ما نعلِّمه في إطار من الحوار والنقد والترجيح والتحليل والتعليل. وآنذاك فإن الطالب يشعر حقيقة أنه ينمو ويكبر مع كل مسألة يتعلمها. وهذه الطريقة تتيح الفرصة للطالب أن يشارك، وأن يسهم في إنضاج الأفكار المطروحة.

بعد ذلك يأتي دور الطالب في تخزين المعلومات والأفكار والحلول التي يسمعها. ومع أن عليه وحده القيام بذلك إلا أنه يحتاج إلى توجيه وإرشاد. إن علينا ونحن نشرح للطلاب في أي تخصص أن نشجعهم ونساعدهم على تكوين ملاحظات ومفهومات حول ما يدرسونه، وأن يحاولوا الخروج بخلاصات مركزة منه. ونرشدهم إلى أن عليهم أن يختزنوا المعلومات الجديدة لا على أنها مفردات متناثرة، ولكن بوصفها معطيات تشكل منظورًا كليًّا لدى الواحد منهم، يفهم من خلاله التاريخ والحياة والأحياء، ويواجه من خلالها التحديات،

ويخطط للمستقبل... المعلومات الجديدة هي روافد لتشكيل نماذج وبنى إرشادية تضيء أمام الطالب طريقه في الحياة، وتحسِّن إمكاناته وقدراته. إن كل مادة يدرسها الطالب كانت في يوم من الأيام عبارة عن معلومات متناثرة، لا يربط بينها أي رابط؛ وحين تم تنظيمها صارت منهجًا ذا شخصية متماسكة ومستقلة. وإن الطالب يحتاج إلى أن ينظم ذلك المنهج على المستوى الشخصي تنظيمًا ثانيًا؛ فإذا درس الفقه أو اللغة أو التاريخ أو الأحياء أو الاقتصاد... فإنه يحاول توزيع معطيات ذلك الموضوع على مساقات عامة؛ من شأنها مساعدة الفرد والجماعة والأمة على أن يحيوا حياة طيبة، وعلى أن ينهضوا، ويتقدموا نحو أهدافهم الكبرى؛ فالإسلام ينظر إلى العلم على أنه طريق للعمل وتكثير الخير والحد من الشر. نحن نريد من وراء التعليم أن يتحول في كل مرحلة من إطار لتقديم المعرفة إلى إطار لتقديم المغزى الذي ينتفع به الطالب في حياته العملية الخاصة، فالإنسان في الرؤية الإسلامية هو مركز الكون، ويجب أن يستفيد من كل ما حوله؛ من أجل ارتقائه وتحسُّن أحواله.

دعونا نضرب مثالاً واحدًا على كل ما قلناه، وليكن هذا المثال على مادة علمية بحتة هي (الكيمياء)؛ حيث يمكن للطالب أن يستخلص من دراستها مفهومات ورموزًا ونماذج تساعده في فهم الحياة، وفي إصلاحها أيضًا. ومنها:

1ـ التفاعل ذو قيمة كبيرة في توليد أشياء جديدة.

2ـ تفقد الأشياء كثيرًا من خصائصها عند اختلاطها بغيرها.

3ـ كلما كثرت العناصر المكونة لشيء تحول إلى بنية أكثر تعقيدًا.

4ـ التعقيد يوفر بدائل وخيارات أكثر.

5ـ التجربة عامل حاسم في الاكتشاف.

6ـ حين تتفاعل الأشياء في إطار نظام مغلق فإننا نتوقع نتائج يقينية.

بهذا الأسلوب نجسِّر العلاقة بين العلوم، ونعثر على الأرضية المشتركة التي تجعل منها علومًا للحياة. وهكذا فإن الطالب حين يطَّلع على هذه المفهومات فإنه يحاول العثور على ما يؤكدها أو ينفيها أو يعدلها؛ وذلك من خلال قراءته في الكيمياء والفيزياء والتاريخ والاقتصاد وغيرها... كما أنه يحاول أن يعثر على تطبيقات عملية لها. وحين يسير الطالب في هذا الطريق؛ فإنه يشعر أنه صار يملك عددًا ضخمًا من المفهومات القابلة للحوار، وعددًا ضخمًا من المستخلصات التي يمكنها أن تجعل منه في المستقبل فيلسوفًا وحكيمًا ومصلحًا. وبهذا يتجاوز الطالب تفريعات العلوم وتجزيئات المواد إلى وحدة المعرفة وكلية النظرة والخبرة. وهذا ليس بالأمر الشاق كما قد نتوهم، لكن يحتاج إلى المُعلِّم الخبير الذي عنده ما يقدمه على هذا المستوى من التعليم.

اكتشاف السنن:

يمكن للمعلومات أن تكون صماء إذا لم نقدمها ضمن إطار فلسفي يلقي الضوء على طبيعة تركيبها ومدى صلابتها. ونحن ـمع الأسف ـ لا نولي مقدمات العلوم وتاريخها وفلسفتها الأهمية التي تستحقها في أي مرحلة من مراحل التعليم، وليس لدينا أي جامعة ـفيما أعلم ـ تملك شيئًا يجعلها متفردة في هذا المجال، على خلاف ما هو الشأن في الغرب. وعلى كل حال فإن مما ينبغي التركيز عليه في هذا المجال تدريب الطالب على استخلاص رؤى وقوانين كلية من مجموعة المعلومات الجزئية المفككة. إن العلم يشكّل تنظيمًا أوليًّا للمعرفة. ومعرفة سنن الله في الخلق تمكننا من إيجاد تنظيم شبه نهائي لها.

إن من المهم ـونحن نعلِّم ونربي ـ أن نحاول تمليك الطلاب أكبر عدد ممكن من المستخلصات المعرفية التي تعمق معرفتهم بقوانين الوجود، تلك القوانين التي

تدلنا على ثبات الأشياء، والتي تتجسد على نحو رئيس في طبائع الأشياء ومنطقها؛ أي معرفة القوانين التي تدلنا على ثبات الأشياء، والقوانين التي تدلنا على اتجاهات تطورها. والهدف من ذلك تأمين قاعدة صلبة للفهم وللتعامل مع مفردات الوجود.

إن مما يجب أن نوضحه لطلابنا وأبنائنا أن استقراءنا للمعلومات في أي قضية يشوبه دائمًا نوع من النقص والقصور. كما أن المعلومات المتوافرة باتت تتعرض للتزوير والمتاجرة والتوظيف غير الموضوعي؛ أي أن كثيرًا مما يذاع وينشر ويقال ويتداول من معلومات حول مختلف القضايا؛ لا يتمتع دائمًا بالمصداقية. وهذا يدعونا إلى ألا نعوِّل كثيرًا على المعلومات المتاحة في أي قضية، وفي أي مجال، وأن ننمي في المقابل معارفنا في مجال سنن الله -تعالى- في الخلق.

إن المعارف الجزئية تحاول دائمًا أن تملكنا شيئًا محددًا. أما السنن فإنها لا تفعل ذلك، وإنما تساعدنا على تشكيل رؤى بعيدة المدى وكلية. إنها توفر لنا حقلاً من الدلالات المرنة، لكنها مع مرونتها لا تخطئ ولا تُضلِّل. ونحن مع هذا نعترف أن المشكلة الكبرى في هذا الشأن تتجسد في معرفة السنة والاهتداء إليها. وتظل معرفة سنن الله -تعالى- في كل الأحوال أسهل في المجالات العلمية والطبيعية الجامدة، مثل الفلك والكيمياء والفيزياء... منها في المجالات الإنسانية؛ حيث إن من سنن الله -تعالى- في الإنسان أن كل ما يتصل به يميل إلى أن يكون معقدًا وغامضًا؛ ولذا فإن الوقوف عليه يتطلب دائمًا جهدًا إضافيًّا، ولكن مع هذا فإن كل سُنَّة يمكن أن نصل إليها في الشأن الإنساني تعدل آلاف المعلومات المتفرقة.

وأعتقد أن في إمكان المختصين في كل علم أن يكتشفوا من سنن الله فيه ما يغني ذلك العلم، ويقطع الجدل حول كثير من مسائله، ويجعله من ثم أكثر قابلية

للفهم والتطوير. ولكن ذلك لن يحدث إلا إذا أعطوا هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام. إن لدينا عشرات بل مئات الكتب في كل علم من العلوم، وإذا تأملت فيها، فقد لا تجد بينها أي كتاب يتحدث عن السنن التي تحكم ذلك العلم؛ فنحن فقراء إلى حد الإدقاع في محصلتنا السننية. ولا يشبه هذه الحالة سوى غنى مكتباتنا بالكتب التي تتحدث عن التشريع إلى جانب فقرها في الكتب التي تتحدث عن مقاصد التشريع ومراميه الكلية.

إن هذا الدفق الهائل من المعلومات حول كل شيء، وفي كل اتجاه يشكل تحديًا كبيرًا لعقول الناشئة؛ حيث إنه يربك الوعي، ويضعف القدرة على المحاكمة العقلية الرشيدة. وليس هناك من حل سوى تحسين مستوى الفهم للسنن الربانية. وقد كان أحد كبار العلماء يعقد جلسات للعصف الفكري مع زملائه أحيانًا، ومع طلابه أحيانًا أخرى؛ من أجل الوصول إلى قوانين كلية في مسائل الحضارة المطروحة. ولأنه كان باحثًا ممتازًا في النهوض الحضاري وأسبابه ومعوقاته، فقد استطاع أن يبلور عددًا من المفهومات التي تتعلق بهذا الموضوع، واستطاع عن طريقها إيجاد حساسيات جديدة نحو التخلف الحضاري، كما استطاع اكتشاف عدد من السنن التي تحكم الجهد البشري في التقدم والنمو، وفي انعكاسات كل مجال من مجالات الحياة على المجالات الأخرى. وقد كان يحرص على أن يعرض ما توصل إليه على بعض طلابه، وكانوا يشعرون كلما سمعوا منه قانونًا أو سُنَّة أو مفهومًا كليًّا أنهم عثروا على كنْزٍ عظيم؛ حتى قال أحدهم: إن الأستاذ الفلاني يذيقنا من حلاوة العلم ما ينسينا كل حلاوة!

تكوين القارئ المعاصر:

في عصرنا الحاضر تتبلور مفهومات كثيرة تتمحور حول ضرورة تربية الناشئة على الاستقلال الشخصي؛ حيث إن على الواحد منهم أن يرشد نفسه،

ويحرسها، ويسعى إلى نفعها، كما أن عليه أن يعتقد أنه إذا لم يساعد نفسه لم يساعده أحد. وليست مهارة القراءة مستثناة من ذلك. ولذا فإن تثقيفنا لجيل المستقبل ينبغي أن يركز على تربية القارئ الجيد والنهم. وإن على الأهل في المترل أن يقوموا ببذر البذور الأولى للشغف بالمعرفة والاطلاع على الجديد. وعلى المؤسسات التعليمية أن تتولى رعاية النبتات الغضة. وإني أعتقد أن تمليك مهارات القراءة الجيدة أجدى على الطالب من تحفيظه متنًا من المتون أو ديوانًا من الدواوين، وأجدى عليه من أن نجلس معه الساعات الطويلة من أجل أن نشرح له درسًا من الدروس الصعبة.

وهذه بعض الملاحظات في هذا الموضوع:

1ـ في الماضي كان كل شيء في الحياة متقاربًا لضآلة التنوع الحضاري ومحدوديته؛ ولذا فإن قراءة ما يكتب كان متيسرًا لمعظم الذين يقرؤون. أضف إلى هذا أن الناس كانوا ينظرون بحرفية زائدة إلى قطعية مدلولات كلمات (الكاتب) وتقولبها ضمن الأصول والمفهومات المعرفية السائدة. أما الآن فقد تغير كل ذلك؛ فالمدرج المعرفي صار طويلاً جدًّا، وصارت المسافة بين من يقف في أوله وبين من يقف في آخره كبيرة. كما أن النص الجيد لم يعد ذلك النص الذي يفهمه الجميع، والذي يتحمل كاتبه كل أعبائه، وإنما صار النص الجيد هو ذلك النص الذي يشتمل على فراغات معرفية تفصل بينه وبين قارئه. وملء تلك الفراغات من الآن فصاعدًا صار من مسؤوليات القارئ المؤهل.

ماذا يعني كل هذا للمربين؟

إنه يعني أن علينا أن نعد جيلاً يتمتع بحب القراءة إلى جانب تمتعه بالخبرة التي تمكنه من اختيار الكتاب الملائم له؛ كما تمكنه من قراءة النصوص الصعبة التي تحفزه على التفكير كما تحفزه على استخدام حصيلته المعرفية في فهمها؛

حيث تراجع دور (اللغة) بوصفها وسيطًا معرفيًّا لصالح الخلفية الثقافية التي يمتلكها القارئ لموضوع أو كتاب ما. قد أضحت القراءة النوعية مهارة يمكن اكتسابها؛ والمؤسسات التعليمية هي الجهة الوحيدة المؤهلة لتقديمها.

2ـ في عصرنا الحاضر يتسارع كل شيء؛ حيث لا يعادل السرعة في البناء سوى السرعة في الهدم. وكما تحل البيوت الإسمنتية محل البيوت الطينية، تحل مفهومات وأفكار وأنماط معرفية جديدة محل الأفكار والمفهومات والأنماط القديمة. ومع أنه لا يمكن للجديد أن يستحوذ على الصواب دائمًا إلا أنه يستحق أن يُتلقى بانفتاح وبقابلية للاستيعاب. بعض من يأتي إلى المدارس والجامعات نشأ في أسرة أمية لا تعرف للاهتمام بالكتاب أو المعرفة أي معنى. وبعضهم خضعوا في بيوتهم لتربية حرفية ضيقة. وبعضهم نشأ في أسر ثرية تهتم بجمع المال، ولا ترى للعلم والمعرفة أي دور ذي شأن في تطوير الحياة. وبعضهم وبعضهم... وهذه الوضعيات تبرمج عقول الطلاب برمجات مشوهة؛ مما يلقي على المدارس مسؤولية نقدها وتخليص الطلاب منها.

لا بد أن يفهم أبناؤنا وطلابنا أن التكوين الأولي لثقافتنا وعقولنا قد تم عبر ما قرأناه وسمعناه وخبرناه في الصغر، وأنه ليس هناك أي ضمان لصواب كل ما تلقيناه مهما كانت الأسر التي نشأنا فيها علمية وراقية. وحين يستقر هذا المعنى في أذهان الصغار؛ فإنهم يملكون القابلية للتعامل مع المعلومات والمعطيات الجديدة على أنها روافد لتجديد الذهنية. وهو ما يشكل المعنى العميق للنمو المعرفي. وينبغي أن نشرح لهم أن الذي لا تغير القراءة في رؤاه وطروحاته ونظرته للأشياء – مصاب بالعقم والجمود والتكلس العقلي. ولا يعني هذا بالطبع أن نُخْضِعَ القديم لعملية نسْخٍ مستمرة، لكنه يعني أن المفهومات القديمة التي نملكها قادرة على استيعاب المعطيات الجديدة. وعلى سبيل المثال فإن مفهوماتنا عن النجاح والإخفاق والتخلف والتحضر والشورى والمعارضة – تظل قابلة للنمو

من خلال تطعيمها بالخبرات الجديدة. النمو هو سنة الحياة، والمعرفة وسيلة لتحقيقه، وعلى الكبار والصغار أن يتعاملوا معها على أنها كذلك.

3ـ لدى كثير من الفتيان والشباب رغبة في التثقف والاطلاع، لكنهم يواجهون بمشكلة، هي بالنسبة إليهم عويصة؛ حيث يحار الواحد منهم في التعامل مع هذا السيل الجارف من الكتب التي تقذف بها المطابع كل يوم: ماذا يقرأ، وماذا يدع، وإمكاناتهم المادية وطاقاتهم وأوقاتهم محدودة؟ ولذا فإنهم في أمسِّ الحاجة إلى توجيه أساتذتهم ومُعلِّميهم. والحقيقة أن القضية بالنسبة إلى المُعلِّمين لا تخلو أيضًا من شيء من التعقيد، فحتى ينصح المُعلِّم الطالب بقراءة كتاب أو الإعراض عنه يجب أن يعرف شيئًا عن الكتاب أو الكاتب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الكُتَّاب الجيدين لا يكتبون دائمًا كتبًا جيدة، كما أن المكتبات قد تحظى بكتب ممتازة لكُتَّاب ليسوا معروفين في الساحة الثقافية.

كما أن على المُعلِّم قبل ذلك أن يعرف سوية الطالب وحاجاته المعرفية؛ لأن الكتاب الممتاز كالدواء لا يفيد كل الناس، وكالثوب الجيد لا يناسب جميع من يلبسه؛ ولذا فإننا قبل أن ننصح الطالب بقراءة كتابٍ ما علينا أن نسأله: ماذا قرأ في الموضوع أو العلم الذي تناوله الكتاب؟ ولماذا يرغب في قراءة هذا الكتاب دون غيره؟ وفي ضوء إجابته يتم إرشاده. وعلى كل حال أعتقد أن هناك بعض المفهومات العامة التي تتعلق بالكتاب المفيد، ويمكن أن نثقف بها طلابنا.

ولعل منها:

أ ـ مما أنتجه التغير السريع في المفهومات والأشياء والتطلعات والحاجات ـ أن كثيرًا من الكتب صار له مدة صلاحية ـ كما هو الشأن في كثير من الأشياء ـ وبانتهاء تلك المدة يكون الكتاب قد استنفد كثيرًا من أغراضه. وهذا الكلام لا ينطبق ـ بالطبع ـ على كل الكتب، فأمهات المصادر في كل العلوم بالإضافة إلى

المعاجم والموسوعات وروائع الشعر والرواية والقصة تحتفظ بالكثير من قيمتها، ولكن قد تعاني من انصراف الاهتمام عنها؛ ولذا فإنه يستحسن أن يتم توجيه الطالب إلى قراءة الدراسات التحليلية والنقدية لها؛ حيث إن الأعمال النقدية للكتب القديمة هي بمثابة إصدار ثان لها، أو بمثابة تحديث لمضموناتها. أضف إلى كل ما سبق أن ما تستقبله المكتبات كل يوم من كتب تراثية يتفاوت في نقائه، ومدى قدرته على تلبية حاجات الناشئة؛ حيث إن هناك كتبًا تعبر عن رؤية مغشوشة للتدين الحق، كما أن هناك كتبًا كتبها كُتَّاب معاصرون قبل أن يستوعبوا المستجدات العلمية في موضوعاتها، فهي معاصرة التأليف قديمة المحتوى. وهناك كتب ضخمة تناقش قضايا صغيرة جدًّا؛ ولذا فإن حصيلة الطالب والشاب منها تظل ضئيلة مهما شعر أنه استوعبها. وهناك كتب تشتمل على معلومات خاطئة وتعليلات فاسدة... إلخ. وقراءة مثل هذه الكتب لا تستهلك الجهد والوقت فحسب، ولكنها تشوه عقل القارئ وثقافته، فتكون خسارته أكثر من ربحه.

والخلاصة أن علينا أن نوجه الطلاب إلى قراءة أحدث الطبعات المتوفرة، وأن ننصحهم بالقراءة للمبدعين وأولئك المتعمقين في تخصصاتهم، كما أن علينا أن نوجههم إلى قراءة الكتب الغنية بالمصادر والمراجع.

إن الانفتاح المعرفي لا يعني أن يقرأ الإنسان كل ما هبّ ودب، ولكن يعني أن يعي الإنسان المسلم حاجاته المعرفية الحقيقية، وأن يسعى إلى تلبيتها عن طريق قراءة أفضل ما كتب سواء كان قديمًا أم معاصرًا.

ب- من المهم ألا نعوّد أبناءنا وطلابنا أن يبحثوا دائمًا عن الطرق السهلة للحصول على المعرفة؛ لأن لتلك العادة آثارًا سيئة عليهم. وعلينا في المقابل أن نعلمهم احترام العمل الشاق، فالارتقاء العقلي والروحي لا يأتي من غير ثمن،

ولو كان الأمر كذلك لما بقي أحد جاهلاً أو منحطًّا. مهما كانت براعة أحدنا في القراءة، ومهما كان ذكيًّا ألمعيًّا، فسيظل لساعات العمل التي تُبْذَل في استيعاب علم أو موضوع أو قضية ما ـ وزنها المعتبر. ومن الملاحظ أن كثيرًا من الطلاب يسعون إلى الحصول على أعلى الشهادات عن أي طريق إلا طريق العمل الجاد. وربما استطاع بعضهم الفوز بمراده، لكنه يظل يدرك أنه أصغر من الشهادة التي يحملها أو المنصب الذي يحتله. وبعضهم يسعى إلى الحصول على أعلى الدرجات دون الوفاء بمتطلبات ذلك. وهذا بسبب غلبة الحسِّ التجاري عليه. وهذه ليست أمراضًا، ولكنها أعراض للمرض الذي هو انعدام الشغف الحقيقي بالعلم ومعرفة الجديد!

ومن الملاحظ كذلك نفور كثير من الطلاب والشباب من الكتب الصعبة، والبحث عن الكتب السهلة، فهو يريد أن يفخر بأنه يقرأ في كل أسبوع أو كل شهر كتابًا. والكتاب الصعب لا يمكِّنه من ذلك دائمًا. والحقيقة أن القارئ الجيد ليس الذي يقرأ كتبًا كثيرة، ولكنه الذي إذا قرأ قرأ بطريقة جيدة. ولا يبذل الإنسان الجهد عادة إلا في الكتب الصعبة. أما الكتب السهلة فيقرؤها المرء وهو مستلق على ظهره، لكن فائدته منها محدودة؛ لأنها لا تضيف إلى علمه إلا القليل. وأكثر ما تقدمه هو التذكير ببعض ما نسيه.

ولا نريد هنا بالكتاب الصعب ذلك الكتاب الذي لا يفهم منه الطالب سوى النذر اليسير، فذاك كتاب غير ملائم. وإنما نريد به ذلك الكتاب الذي لا يفهم منه الطالب إلا 60 ٪ أو 70 ٪. إنه كتاب يتحدى قارئه، ويستنفر قواه العقلية، ويدفعه إلى التأمل والتفكير. وهذا في حد ذاته مكسب كبير؛ لأن القراء الذين لا يفكرون في معنى ما يقرؤونه وفي مغزاه بالنسبة إليهم لا يحصلون إلا على القليل من ورائه؛ إنهم يمرون على الكتاب مرور الكرام، وليس لديهم الوقت للتأمل فيما قرؤوه؛ مع أننا لا نملك ما نقرؤه إلا من خلال التفكير فيه.

بالتفكير فيما نقرأ تتم برمجة المعلومات التي نطَّلع عليها، وإدخالها في أنساقنا الثقافية ورؤانا الحضارية؛ ولذا فإن على الطالب أن يفكر ما بين ربع إلى ثلث ساعة بعد كل ساعة قراءة. وهذا مرة أخرى لا يتأتى إلا إذا كان يقرأ كتابًا فيه نوع من العمق.

حتى لا يشوِّه التعليمُ العقلَ:

كثير من الطلاب يصيبه الغرور مع قلة ما يعرف وكثرة ما يجهل. وبعضهم يجنح إلى الغلو والتطرف وتسفيه الآخرين والمبالغة في نقدهم من غير أساس علمي مؤصل. كما أن المصاب بهذه الأدواء يشعر بالتشبع المعرفي قبل أوانه، فيكون كالذي يتجشأ من غير شبع! وذلك قد يعود إلى أسلوبنا في تقديم المعرفة له، وإلى أسلوب وسائل الإعلام أيضًا. وربما عادت بذور ذلك إلى مرحلة الطفولة الأولى في المترل؛ حيث يغلب على الناس الأميين ومتوسطي الثقافة التحدث بأسلوب التعميم وإطلاق الأفكار الكبرى، وعدم التفريق بين الصواب القطعي والصواب الاجتهادي.

وأعتقد أن علينا أن نراجع أسلوبنا في التثقيف العام، وفي التعليم المدرسي أيضًا حتى لا يصبح التعليم مصدرًا لتشويه العقل والثقافة.

ولعل مما يفيد في هذا الشأن الأمور الآتية:

1ـ البعد عن التحيز للتخصص؛ حيث لا يجوز لأي مدرس أن يُشْعِر الطلاب بأن المادة التي يُدَرِّسُها خطيرة جدًّا بكل تفاصيلها وملحقاتها، وأن عدم فهمها يؤدي إلى كارثة، على حين أن المواد الأخرى هي مواد مساعدة أو تكميلية؛ لأن تشييد الحضارات وتلبية الحاجات الإنسانية المختلفة لا يستغني عن أي علم من العلوم. ثم إن خطورة أي علم، ومدى إسهامه في تطوير الحياة

العامة، وفي الارتقاء بالطالب كثيرًا ما يتوقف على مدى موافقته لميول الطالب ومواهبه وإمكاناته وظروفه.

2ـ علينا ألا نسوق الظنيات مساق القطعيات، وأن نسوق القطعيات مساق الظنيات، وألا نسرد أقوال العلماء على أنها مسلّمات لا خلاف فيها، فذلك يولد لدى الطلاب عقلية البعد الواحد، كما يولد لديهم ضيق الأفق، ويجعل إمكانات تشغيل عقولهم فيما يتلقونه محدودة. وإنما علينا أن نسوق الأقوال والنظريات المتعددة في المسألة الواحدة، حتى لو لم نتمكن من الترجيح بينها؛ فإن مجرد سوقها يلقي في روع الطالب أن الصواب في القضية المطروحة، إنما هو صواب نسبي أو اجتهادي. وهذا ـكما قلناـ لا يساعد على تعزيز المرونة الذهنية وروح الانفتاح فحسب، وإنما يساعد كذلك على التخفيف من وطأة الأفكار المغالية. وكل هذا يتم بطريقة آلية ولا شعورية.

3ـ من واجبنا أن ننتبه ونحن نعلّم أن هناك مئات ألوف الباحثين الذين يشتغلون بقضايا تتصل على نحوٍ ما بما نعلمه، وأن نتائج تلك البحوث لا بد أن تُدْخِل بعض التغييرات على جوهر ما نقدمه للطلاب، وهذا يدعونا إلى أمرين:

الأول: أن نقدر ونحن نفكر فيما نعلِّمه حجم ما لا نعْلمه في تخصصاتنا؛ فالعالم الحقيقي لا يعتدُّ بما يعرف فحسب، وإنما يحسب حساب ما لا يعرف أيضًا ـوهو ليس بالقليلـ ويأخذه بعين الاعتبار.

الثاني: أن نحتفظ بنهايات مفتوحة للرؤى والنظريات والأفكار والمقولات التي نشرحها ونقررها لطلابنا كل يوم؛ بمعنى أن نترك دائمًا مجالاً للاحتمال والخطأ، كأن يقول المُعلِّم: هذه وجهة نظري، وقد تكون هناك وجهة نظر أخرى. أو يقول: هذا ما أعرفه، وقد يكون هناك أقوال أخرى. أو يقول: إن

كلمة العلم في هذا ليست قاطعة وما زالت في هذه القضايا بعض الزوايا الغامضة... إلخ.

بعض المُعلِّمين يخشى أن يؤدي هذا التطريز على الأسلوب التعليمي إلى وقوع الطلاب في (بلبلة فكرية)، أو يؤدي إلى جعل المعرفة في عيونهم هشة أكثر مما ينبغي. ومع أن هذا الكلام قد ينطبق على الطلاب الصغار نسبيًّا؛ فإن الميزات التي نحصل عليها من وراء ذلك أكبر بكثير من المحذورات.

إننا نريد من العلم ومن التعليم تحفيز الطاقات العقلية وإطلاقها لا تقييدها وتكبيلها. والطريقة المذكورة مما يساعد على ذلك.

شد ة الـُعلّ

دور المُعلِّم في التعليم هو الدور الأساسي، ومن غير النهوض به لا يمكن الحديث عن أي تقدم في التعليم؛ مهما أُنفق عليه من مال وهُيِّئ له من أسباب.

وقد خَرَّج التعليم منذ عشرات القرون علماء كبارًا دون توفر الكثير مما هو موجود الآن؛ لأن المُعلِّم كان موجودًا بعلمه وخلقه وسموه. عمل المُعلِّم في أدبيات التعليم الإسلامي عملٌ خطيرٌ وشامل، فهو مثقِّف ومربٍّ ومرشد ومبلِّغ وداعية ومشرف وداعٍ إلى الخير. والتعليم في بعض معانيه يشكل امتدادًا لما قام به الرسل ـعليهم الصلاة والسلامـ من هداية الخلق وتزكيتهم وإرشادهم؛ ولا عجب فالعلماء هم ورثة الأنبياء والحاملون للوائهم المقتفون لآثارهم.

ولا نستطيع معرفة فضل المُعلِّم على الوجه الصحيح إلا إذا أدركنا المسافة الفاصلة بين المثقف والأمي، وتلك المسافة هي من صناعة المُعلِّمين؛ ولذا فإن المُعلِّم يستحق كل الاحترام والتقدير والتشجيع. واحترامنا له هو في الحقيقة احترام للعلم الذي يحمله، وتقدير للمدنية، واعتراف بالسمو الإنساني الذي ينميه التعليم في نفوس الناشئة. وتاريخنا زاخر بالأقوال والمواقف التي تعبر عن ذلك، يقول الإمام الشافعي ـرحمه اللهـ: (قَدِمْتُ المدينة، فرأيت من مالك بن أنس ما رأيته من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك أدبًا؛ حتى ربما أكون في مجلسه، فأريد أن أقلب الورقة في كتابي، فأقلبها قلبًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمعها). وهذا الإمام مسلم المحدث الشهير يأتي إلى إمام المحدثين البخاري، ويقول له: (دعني أقبِّلُ رجلك يا أستاذ الأساتيذ، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث وعلله!). وفينا إلى اليوم من يسمي أولاده بأسماء شيوخه، وهذا لا يكاد يوجد عند أي أمة من الأمم!

في زماننا هذا سرى في كثير من الأطفال والفتيان والشباب داء خطير، هو داء الاستخفاف والاستهانة بكل شيء، وصار الطعن في المُعلِّمين والمدرسين من الأشياء المنتشرة بين الطلاب على نحو واسع ودون أي رادع. وكثير من الآباء والأمهات يصدقون ما يقوله أبناؤهم وبناتهم في مُعلِّميهم ومُعلِّماتهن، ويبنون على ذلك بعض المواقف عوضًا عن تحذيرهم من هذا السلوك، ومحاولة التثبت في الأمور المهمة. لا ريب أن بعض المُعلِّمين يتصرفون تصرفات تثير الجدل بين الطلاب، أو تجعل التطاول عليهم سهلاً أو مقبولاً، لكن علينا أن نتذكر دائمًا أن المُعلِّم في مقام الوالد، وأنه مهما كان الشأن، فإنه يظل مُعلِّمًا، ويظل صاحب فضل يستوجب الشكر والعرفان. كما أنه ينبغي أن ندرك أن إسقاط المُعلِّمين من عيون طلابهم يحرمهم من نماذج يقتدون بهم، وهذا يعرضهم للضياع.

والآن لعلي أُوجز في المسائل الآتية ما ينبغي أن يتحلى به المُعلِّم من سمات، وما يحمله من ثقافة، بالإضافة إلى المهمات والمسؤوليات الملقاة على عاتقه:

ثقافة المُعلِّم:

العمل الأساسي للمُعلِّم هو نقل المعرفة من مصادرها ومراجعها إلى الطلاب بشكل منظم واحترافي؛ ولذا فإن (المعرفة) بالنسبة إليه هي مثل البضاعة بالنسبة إلى التاجر، ومثل القماش بالنسبة إلى الخياط، لكن مع وجود فارق جوهري هو أن المُعلِّم الذي يطور معارفه، ويوسع دائرة مفهوماته لا يفعل ذلك من أجل طلابه فحسب، وإنما يفعله قبل ذلك من أجل نمو ذاته؛ إذ إن من العسير أن نفصل بين تطوير الثقافة وتطوير الذات؛ فالمُعلِّم بحاجة إلى المعرفة الواسعة من أجل إثبات وجوده وتحقيق ذاته. وإن المُعلِّم الذي يخفق في الاستحواذ على الحد الأدنى من المعرفة التي يحتاجها في عمله؛ لا يخفق في أداء رسالته فحسب، ولكنه يفقد إلى جانب ذلك جزءًا من لياقته الاجتماعية والمهنية.

وهذه بعض الملاحظات حول ثقافة المُعلِّم:

1ـ عصرنا الذي نعيش فيه بات يزهّد في الحصول على المعرفة، فكثرة متطلبات الحياة أشغلت الناس عن تثقيف أنفسهم. ووجود أشخاص كثيرين حققوا نجاحات دنيوية واسعة دون تعمق في المعرفة؛ جعل الناس يعتقدون أن التفوق المالي والتألق الاجتماعي؛ لا يتوقفان بالضرورة على الانغماس في القراءة والاطلاع. لكن المُعلِّم يختلف عن باقي الناس؛ إذ إن امتلاكه للمعرفة الجيدة أحد متطلبات مهنة التدريس التي اختارها. ورفضه للتزود المستمر من المعرفة هو رفض للمهنة التي ندب نفسه للعمل فيها. وما من مهنة إلا ولها متطلبات، قد تكون في بعض الأحيان مزعجة؛ فالأخلاقية الطبية تحتم على الطبيب أن يتحلى بروح الجاهزية لإسعاف مرضاه في أي ساعة من ليل أو نهار، وعليه أن يقوم بذلك عن طيب خاطر. وفي إمكان المُعلِّم ألا ينظر إلى متطلبات المهنة على أنها أمور تقيد حياته، وتثقل كاهله، بل ينظر إليها على أنها محفزات على المزيد من الاستنارة، والمزيد من الارتقاء بالذات للعيش وفق مستويات أرقى.

سيجد كثير من المُعلِّمين ما يتخذونه حجة لتقاعسهم عن توسيع معارفهم وتجديدها، لكن ذلك لن يكون مقبولاً؛ حيث إن هناك ألوف المُعلِّمين الجيدين الذين يعيشون في ظروف مماثلة ـ يجدون الوقت للقراءة، والبحث والتأليف، وإلقاء المحاضرات، وإقامة بعض الدورات، والمشاركة في الأنشطة الخيرية والاجتماعية... ومهما يكن الأمر فإن القضية في النهاية ليست قضية تنفل أو تطوع، وإنما هي قضية التزام وقضية كرامة؛ إذ من الصعب أن يحافظ المُعلِّم على كرامته مع ضحالة معلوماته؛ كما أن من الصعب عليه أن يستمتع بمشاعر الرضا عن الذات؛ إذا لم يشعر أنه يؤدي واجبه المهني على نحو مقبول. إن الوقت يتوفر دائمًا للمزيد من طلب العلم حين يكون طلب العلم أولوية في حياتنا.

2ـ شبَّه أحد كبار التربويين المعرفة بالسمك، فكما أن السمك لا يصمد طويلاً حتى يفقد صلاحيته، فإن المعرفة كذلك، فالطلاب يستهلكون المعرفة، كما يستهلكون الطعام والثياب. وكما أن السمك يكون أشهى كلما كان طازجًا، فإن المعرفة الجديدة تظل ذات نكهة خاصة في حسّ الطلاب. وقد قال أحدهم: إن أجمل ما في المُعلِّم أن يلمع باستمرار، ولمعانه لا يأتي من أناقته، ولكن من حداثة معلوماته. ولن يستطيع المُعلِّم ذلك إلا من خلال المتابعة المستمرة للشأن الثقافي عن طريق قراءة الكتاب والمجلة والجريدة، وسماع وسائل الإعلام المختلفة. وتلك المتابعة ليست شرطًا لأداء مهمته التعليمية على الوجه المطلوب فحسب، ولكنها شرط أيضًا للقيام بوظيفته بوصفه مربيًا ومرشدًا.

3ـ كثير من المعارف والمعلومات الموجودة في الكتب المدرسية وأحيانًا الجامعية، يكتنفه الغموض والتحجر، فهي أشبه بالهياكل العظمية، لا حياة فيها ولا معنى. وقد يحار الطالب لماذا يدرسها، وما الذي سوف يستفيده منها. وهنا تأتي مهمة المُعلِّم الحصيف الذي من خلال ثقافته الواسعة يبث الحيوية في تلك المعلومات، ويجعلها ذات مغزى لدى الطلاب؛ فهو حين يدرّس مادة مثل مادة الفقه ـمثلاًـ يحدثهم عن نشأة ذلك العلم، وعن المؤلفات الأولى فيه، وعن المدارس الفقهية، ويكلفهم بكتابة بحوث عن تراجم بعض رجالها، ويوضح لهم مدى ارتباطه بعلم الحديث وعلم التفسير، كما يحدثهم عن شروط الاجتهاد، وآداب المفتي، وعن التقليد والتمذهب والتعصب المذهبي، وعن العزيمة والرخصة وتيسير الفقه ومدى حاجة الناس إليه في استقامة حياتهم، وما شابه ذلك... إن الطلاب يشعرون وهم يتعلمون على هذا النحو أنهم لا يدرسون أحكامًا فقهية متناثرة ومعزولة عن واقع الحياة، ولكنهم يشعرون أنهم يوسِّعون مداركهم، ويثرون خبراتهم في علوم التاريخ والحضارة والتراجم والاجتماع والجغرافيا...

وبذلك يقفون على وحدة المعرفة، وتتسع آفاقهم، وتتحول المادة من أجزاء معزولة يتم سردها إلى نوع من الاكتشاف المفعم بالحيوية.

4ـ المُعلِّم طبيب الفكر وطبيب المعرفة، وكما أنه لا بد للطبيب من أن يقدم نموذجًا في توفر شروط الصحة؛ كذلك لا بد للمُعلِّم أن يقدم نموذجًا في نقاء الفكر ورصانة المعرفة والثقافة؛ فهو في طروحاته ومقولاته وشروحاته يتوخى دائمًا أن يكون كلامه مؤصلاً لكونه قد أخذه من مراجع ومصادر معتمدة، ولكونه مدعمًا بالأدلة والبراهين. كما أن عليه أن يحذر من الوقوع في حبائل أهواء الذات، فيؤيد بعض الأقوال لا لاقتناعه بها، ولكن لأنها تدعم طروحات يتبناها، أو لأنها تؤيد مذهبًا يقلده أو يتبعه، أو لأنها تُعلي من شأن تخصصه والمواد التي يدرّسها لطلابه.

الثقافة الرصينة هي دائمًا ثقافة عقلانية، تبتعد عن تأثيرات العواطف والميول الشخصية. بعض المُعلِّمين يسوق قصصًا وأخبارًا غريبة من أجل جذب الطلاب إلى متابعته. وهذا أسلوب ضار بعقول الطلاب؛ لأن الغرائب تشوّه البنية العقلية لدى الطلاب، وتساعد على محو الفواصل القائمة في أذهانهم بين المعقول واللامعقول، والسهل والصعب. وانمحاء تلك الفواصل يحيل أي عقلية إلى عقلية خرافية. ومع علمنا بأن الموضوعية التامة في كل المواقف الفكرية أشبه بالمستحيل؛ إلا أن على كل واحد منا أن يجاهد نفسه ليتحلى بأكبر قدر ممكن منها في تقويمه وشرحه، وأن يحاول بناء أسس التفكير الموضوعي لدى طلابه أيضًا.

5ـ الثقافة أداة للتربية، وأداة للإصلاح، وأداة لتصور المشكلات وتحديد التحديات؛ إنها الوسيط الذي نستخدمه في كل أعمالنا الحضارية الكبرى. والذي أود أن أؤكد عليه هنا هو أن ما نتعلمه، ونَجْهَدُ في تحصيله من معارف،

يجب أن يستهدف على نحو جوهري خدمة مبادئنا، وخدمة الناس من حولنا. وعلينا أن نعي دائمًا أن الثقافة تفقد الكثير من قيمتها والكثير من وظائفها إذا أصبحت مقطوعة الصلة بالناس. والمُعلِّم على وجه أخص بحاجة إلى أن يثري ثقافته فيما يعود على طلابه بالنفع، فهو ـمثلاًـ بحاجة إلى أن يتقن فن التحفيز ومقاومة الإحباط، وكل ما يتصل بأسس النجاح وأخلاقياته ومستلزماته؛ وأن يكون لديه بعض الأفكار حول القلق والتوتر، وكيفية مساعدة الطالب على خفضهما. كما أنه بحاجة إلى أن يغني ثقافته في صعوبات التعلم التي كثيرًا ما تواجه الطلاب في المراحل الدراسية المختلفة. والساحة الثقافية تعج الآن بكتب الهندسة النفسية، وكتب النجاح، واستثمار الوقت، وإدارة الذات، والاتصال... وما شابه ذلك. وفي إمكان المُعلِّم أن يستفيد منها في معالجة مشكلات طلابه.

إن المدارس قد أخذت على عاتقها أن تخرج جيلاً صالحًا للمشاركة في الحياة العامة، وخدمة قضايا الأمة ومصالحها، وهذا لن يتم دون أن يُثقِّف المُعلِّمون أنفسهم على نحو جيد بثقافة تقوي إحساسهم ووعيهم بالشأن العام، وبحقوق الأغلبية المستضعفة من الناس الذين لا يجدون حولاً ولا طولاً في التعبير عنها.

إن أمة الإسلام تعاني من حزمة من المشكلات، مثل الفقر، والجهل، والتفكك السياسي، والتخلف التقني، والظلم الاجتماعي، وانخفاض سوية أداء الفرد المسلم، وقصور المفهومات الحضارية والاجتماعية... ولديها إلى جانب ذلك إمكانات ظاهرة وكامنة؛ أهمها المنهج الرباني الذي أكرمها الله به، والرؤية الحضارية الشاملة والمتوازنة، بالإضافة إلى الطاقة البشرية الهائلة.

والمُعلِّمون بحاجة إلى وعي كل ذلك في إطار منهجي واقعي؛ حتى يتمكنوا

من الأخذ بأيدي الناشئة إلى بر الأمان، وحتى يولّدوا لديهم هواجس الاهتمام بمستقبل أمة الإسلام وإصلاح شأنها.

6ـ تحتاج ثقافة المُعلِّم بعد كل ما ذكر إلى الاتزان والشمول. وفي ظني أن العناصر الأساسية التي ينبغي أن تشكل ثقافة المُعلِّم المسلم ثلاثة؛ هي: ثقافة التخصص الذي يقوم المُعلِّم بتدريسه، والثقافة الشرعية، والثقافة العامة. ومن الملاحظ أن معظم المُعلِّمين يعانون من خلل ما في هذا الشأن؛ مما يوجب تركيز الانتباه ولفت النظر إليه.

ليس هناك ما يسمى بالاختصاص الكامل، فالمرء كلما تعمق في معرفة تخصص ما وجد نفسه محتاجًا إلى معرفة بعض المعارف اللصيقة به، والبعيدة عنه، حتى قال أحد التربويين: إن المعرفة التامة بموضوع معين تعني معرفة جميع الأشياء. ولن يكون من مصلحة أي تخصص أن ينغلق على نفسه؛ لأن ذلك يحرمه من النمو الطبيعي، ويبعده عن أداء دوره الاجتماعي. ومع هذا فإننا نعترف أن التقدم العلمي والتقني مدين على نحو جوهري لأولئك المتخصصين تخصصات دقيقة، والذين أفنوا أعمارهم في معالجة قضية صغيرة جدًّا، لكن لا بد من التفريق بين المُعلِّم وبين الباحث الذي يهمه الوصول إلى اكتشاف محدد أو تطوير آلة أو أسلوب... فالمُعلِّم طبيب نفوس وعقول. والمادة التي يعمل عليها والتي بين يديه مادة خاصة جدًا؛ هي هذا الإنسان الغامض الحساس؛ ولذا فإن إتقان المُعلِّم لتخصصه لا يمكِّـــنه بمفرده من القيام بكل مهامه.

المُعلِّم المسلم بحاجة إلى ثقافة شرعية جيدة، فهو يقوم بتربية أبناء المسلمين، ويعمل على تخريج جيل مسلم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ ولذا فإنه بحاجة إلى أن يفهم روح الشريعة ومقاصدها العامة، كما أنه بحاجة إلى أن يعرف كمية

جيدة من الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات والسلوك والعلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى بعض الآداب الإسلامية والسنن النبوية.

أما ثقافة المُعلِّم العامة؛ فينبغي أن تشمل شيئًا من المعرفة بوقائع التاريخ الخاصة بوطنه، وتلك التي تتحدث عن الحضارة الإسلامية في فترات ازدهارها، مع محاولة امتلاك رؤية تحليلية لأسباب خمود جذوتها وتوقفها عن العطاء. وذلك لن يغنيه عن فهم ما يجري في محيطه من أحداث على مختلف الصُعُد؛ لأن الأحداث الجارية، تسهم في تشكيل طموحات الشباب، وتثير تساؤلاتهم... ومن خلال اطِّلاعه عليها يمكنه القيام بالتوجيه الذي يحتاجونه.

المُعلِّم القدوة:

مهما تقدم الوعي الإنساني، وترسخت مكانة العلم في النفوس؛ فإن مصداقية العلم تظل تشكو من شيء من الهشاشة؛ ولا سيما العلوم الإنسانية؛ حيث إن وثوق الناس بالمعرفة كثيرًا ما يرتبط بمدى ثقتهم بالحاملين لها. وانطلاقًا من هذا فإن انسجام المُعلِّم مع طبيعة المعرفة التي يقدمها ومع طبيعة المهمة العظيمة التي ندب نفسه إليها ـ يعد شرطًا لا غنى عنه لنجاحه في عمله. ويبدو أن المُعلِّم لا يستطيع أن يتفلت من نظرة الطالب إليه على أنه قدوة، ولا من تعامله معه على أنه شخص يفترض فيه أنه أكثر منه وعيًا واستقامة واتزانًا. فكون المُعلِّم قدوة حالة تنبثق من صميم التعليم. وعندما يرفض المُعلِّم ذلك، أو يتأفف منه فإنه يقلل من فاعليته إلى حد كبير. وما ذلك إلا لأن التعليم ليس مهنة كباقي المهن، فالمُعلِّم ليس كالحدّاد أو النجار، والذي لا يهمنا منه سوى أن يقدم لنا خدمة أو قطعة أثاث جيدة مهما كان سلوكه الشخصي، ومهما كانت وضعيته العامة. إن ما يحتاجه الطلاب من مُعلِّميهم ليس ما يقولونه فحسب، وإنما ما يتمثلونه من قيم ومبادئ، وما يختطونه من منهج أيضًا.

وإذا كان مطلوبًا من كل مُعلِّم أن يكون قدوة لطلابه، فإن للمُعلِّم المسلم خصوصية في هذا الشأن؛ فهو لا يجسد قيمًا وضعية تعارف عليها أهل مجتمعه ـكما هو شأن المُعلِّم غير المسلمـ وإنما يمضي على خطى نبيه ـصلى الله عليه وسلمـ في التعليم والتبليغ والهداية والتزكية. وإذا كان الله ـتعالىـ أكرم رسله بالعصمة ليقدموا أرقى نموذج إنساني ممكن؛ فإن على المُعلِّم المسلم أن يجاهد نفسه ليقترب ما استطاع من ذلك النموذج. وإذا نظرنا في تاريخ التربية والتعليم وجدنا لدينا أدبيات كثيرة تحث المُعلِّم المسلم على التميز والحرص على العمل بما يعلم؛ يقول سفيان بن عيينة: (إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟)، وقال الحسن: (لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء)، وقال أيضًا: (كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تَخَشُّعه وهديه ولسانه وبصره ويده). إنه صياغة جديدة وتامة للشخصية.

إن كل مفارقة بين أقوال المُعلِّم وبين اهتماماته وسلوكه؛ تشكل مصدر حيرة وإحباط لدى الطلاب، ومصدر استخفاف بالعلم الذي يتلقونه، واستخفاف بدوره في توجيه الحياة.

وهذه إشارات سريعة فيما يتعلق بهذه القضية الخطيرة:

1ـ تقدم المدارس لطلابها مناهج ومواد دراسية منظمة ومتسلسلة؛ ولذا فإنها تخاطب وعي الطالب وعقله الظاهر. كما أنها تقدم منهجًا آخر لا يقل أهمية لكنه منهج غير منظم وغير مكتوب؛ ولذا فإنه ينفذ إلى العقل الباطن؛ ليؤثر في القاعدة الأعمق لسلوك الطلاب. إنه المنهج الغامض المختبئ الذي يشكل البيئة الروحية والوجدانية والأخلاقية للحياة التعليمية. هذا المنهج يتجلى في كل حركة يتحركها المدرسون وإدارة المدرسة وموظفوها، إنه يتجلى في طريقة

تعامل المدرسين مع بعضهم ومع طلابهم، ويُلمَح في طريقة مكافأة المُعلِّم للطالب المتفوق، وفي طريقة معاقبته للطالب المسيء. يُلمَح في طريقة تعليقه على الأخطاء التي يقع فيها الطلاب، وفي تعليقه على الأحداث الجارية، وفي ملاحظاته الخاصة على الأزمات التي قد تقع فيها المدرسة...

إن سلوك المُعلِّم القدوة يشكل أداة انسجام وتلاؤم بين المنهج المنظم الظاهر وبين المنهج المستتر؛ حيث يصبح ما يقرؤه الطالب في الكتب المدرسية عبارة عن أدلة وإرشادات نظرية لجوهر الحياة الطيبة الفاضلة، ويصبح المنهج المستتر عبارة عن بيان عملي تنفيذي لذلك الجوهر. ومن المؤسف أن أعدادًا غير قليلة من المُعلِّمين لا يأبهون بهذه المسألة؛ فتراهم وكأنهم قد أخذوا على عاتقهم أن يبرهنوا على قدرة الإنسان على الجمع بين السمو والتفاهة في آن واحد؛ حيث إن ما يقولونه داخل الفصول الدراسية يُعَدّ شيئًا رائعًا. أما اهتماماتهم وأحاديثهم في حصص الفراغ، وأسلوبهم في الحديث خارج المدرسة... فإنها لا تدل إلا على أن أصحابها أشبه بالعامة؛ حيث ينعدم الإحساس بالقيادة والريادة والمسؤولية التربوية!

المُعلِّم الذي لا يصلي، ولا يهتم بشعائر الإسلام، وذلك الذي يدخِّن، والذي يضع الدرجات لطلابه دون تصحيح جيد لأوراق الإجابة، والذي يسب طلابه ويعيِّرهم ببعض الأشياء، والمُعلِّم الذي همه مديح نفسه، والذي يستخدم الطلاب لقضاء حوائجه الشخصية... هؤلاء المُعلِّمون لا يقال فيهم: إنهم لا يصلحون أن يكونوا قدوات لطلابهم فحسب، بل إنهم يمارسون دورًا تخريبيًّا؛ إذ يسمِّمون الحياة الفاضلة التي يجب أن يجدها الطلاب في المؤسسات التعليمية، كما أنهم يشجعون طلابهم بطريقة خفية على الانحطاط الخلقي والسلوكي، ويساعدونهم على تبخير ما بقي من هيبة واحترام للعلم وأهله!

2ـ مما يساعد الواحد منا على الارتقاء بذاته أن يتخذ مِن بعض مَن علَّمه مثلاً أعلى يقتدي به. ومع أنه ما من مُعلِّم إلا ويمكن أنْ يكون لنا بعض الملاحظات على جانب من جوانب شخصيته؛ إلا أننا نشعر أن بعض من علّمنا يتسم بسمات فائقة تجذبنا نحوه. وأعتقد أن اكتشاف تلك السمات يسبق الاقتداء، فنحن من خلال التأمل نستطيع أن نقف على أفضل ما كان يحمله المُعلِّم الفلاني والمُعلِّم الفلاني من صفات، ثم نحاول أن نستلهم التصرفات التي كانت تجسِّد تلك السمات. ولنضرب على ذلك مثالين:

أـ إذا وجدتُ أن أفضل سمة لدى أستاذي الفلاني هي حسن التعامل مع الطلاب؛ حاولتُ أن أكتشف نوعية التصرفات التي جعلته في نظري كذلك، ثم أحاول أن أقوم بها. وربما وجدت منها: اللطف في الخطاب، الصفح عن المسيء، السؤال عن حال الطالب المتعثر في دراسته، السؤال عن أسباب غياب أحد الطلاب، سعة الصدر، إفساح وقت للإجابة عن تساؤلات الطلاب، مداعبة بعض الطلاب، مساعدة الفقير منهم... إلخ.

ب ـ وجدت أن أعظم صفة تجذبني نحو أستاذي الفلاني؛ هي تواضعه وإنكاره لذاته. وهنا عليّ أن أحاول العثور على التصرفات التي كان يتجلى فيها ذلك، وحينئذ فإني ربما وجدت منها: عدم مديحه لذاته، ونقده أحيانًا لها، واعترافه بالخطأ، والثناء على الطالب المتميز، والابتداء بإلقاء السلام على طلابه وزملائه...

إن المُعلِّمين الجدد هم على نحو خاص في أمسّ الحاجة إلى اتخاذ مَثَل أعلى من أساتذهم الذين تخرجوا من تحت أيديهم منذ عهد قريب؛ وهذا يريحهم من عناء التفكير والبحث عن التصرف المناسب في كل موقف. كما أنه بالإضافة

إلى ذلك يشعرهم بأنهم يسيرون في الطريق الصحيح الذي شقه بعض أساتذتهم من قبلهم. إني آمل أن نجرب هذه الطريقة، وأن نُغْنيَها ونطورها إن استطعنا.

3ـ معرفة الصغار بالصواب والخطأ محدودة، وتعلمهم لهما من خلال المناهج أمر ليس باليسير؛ لأن فهم القيم والمبادئ واستيعابها عن طريق القراءة والدراسة يظل ناقصًا وقاصرًا؛ بسبب كون اللغة ناقلاً غير كفء وغير شفاف. أكثر ما يظهر ذلك عندما نستخدمها في المسائل التجريدية؛ ولذا فإن عقول الصغار تظل مملوءة بالضبابية والغموض مهما قرؤوا عن الأخلاق الحسنة والسيئة. وهذا يجعلهم يعوِّلون في فهمها على ما يشاهدونه من سلوكيات الكبار وتصرفاتهم في كل ما يحتاجه نموهم وانتقالهم إلى عالم الكبار.

ومع أن الأبوين في المنزل مطالبان ـمن الناحية المنطقيةـ بأكثر مما يطالَب به المُعلِّم في هذا الشأن، إلا أن الواقع يقول غير هذا؛ حيث إن معظم الأسر الإسلامية لم تمر بأي تأهيل خاص للقيام بوظيفتها التربوية، على خلاف ما عليه حال المُعلِّمين والمُعلِّمات.

ومن وجه آخر فإن إعجاب الطالب بأستاذه يفوق في الغالب إعجابه بأبيه ـ وهو غير الحب وغير الاحترام ـ، وذلك يعود إلى أنه يرى أباه في كل أحواله، فيشاهد منه ما يسر، وما يسوء، وما يصلح للاقتداء، وما لا يصلح؛ لكنه لا يرى أستاذه إلا في أفضل أحواله.

وهذا كله يلقي على المُعلِّمين والأساتذة في دُور التعليم مسؤولية خاصة؛ حيث لا يصح أن تقتصر المهمة المنوطة بهم على تقديم بعض المعارف وبعض التدريبات، وإنما تتعداها إلى تعليم أساليب الحياة على المستوى الشخصي وعلى المستوى الاجتماعي.

وأظن أن من أهم ما يحتاج فيه الصغار إلى رؤية نماذج إنسانية جيدة الآتي:

أ ـ الموقف النفسي الأساسي حيال المسائل الكبرى والمهمة؛ مثل الخضوع لله ـتعالى ـ، وتكييف الاتجاه وفق هدي الشريعة الغراء، بالإضافة إلى بعض المسائل الأخرى ذات الصلة بالحياة العامة، مثل النجاح والإخفاق، والإنجاز والعمل، والتعليم والتعلم، وأوقات الفراغ، وقضايا العنصرية والعرقية والقبلية، وما شاكل ذلك؛ حيث إن على المُعلِّم أن يقدم دائمًا الموقف النفسي الإيجابي المنفتح والفاعل والموضوعي من كل هذه المسائل؛ مهتديًا بالأصول والآداب الشرعية، وبحصيلة الخبرات الإنسانية المتراكمة.

ب ـ استعمال اللغة بوصفها أداة للتفكير، وبوصفها ناقلاً للأفكار والمشاعر؛ فالطالب يتعلم من أساتذته الدقة في استخدام الألفاظ، كما يتعلم اختيار الكلمات المعبرة واللطيفة والملائمة للظرف والموقف الذي يمر به. إن الكلمات التي يمكن استخدامها للتعبير عن الذات كثيرة لكن بعضها فقط هو الذي يكتسي حلة الذوق واللطف والكياسة. وثمة فرق كبير بين المُعلِّم الذي يكثر أثناء كلامه من قوله: شكرًا وعفوًا، ومن فضلك، وإذا سمحت، وبين الذي يقول: يا ولد، ويا كسول، ويا مهمل، ويا عديم التربية...

ج ـ الأسلوب الذي يؤدي به الإنسان عمله اليومي، فالطالب يتعلم من أساتذته هيئة الدخول إلى الفصل والخروج منه، ومدى التزامه بمواعيد الحضور للدروس والمحاضرات والانصراف منها، كما يتعلم كيفية محاورته مع الطلاب.

د ـ اللباس والمظهر، وهما الامتداد المادي للذات، والعاكس المهم لكثير من كوامن الشخصية وخصائصها. ومن المهم أن ينسجم مظهر الأستاذ مع المنهج الإسلامي الذي يدرسه للطلاب، كما أن من المهم أن يقدم لباس الأستاذ

وسيارته وكل ما يتصل به إحساسًا بالنظافة والترتيب والاهتمام، من غير إسراف ولا مخيلة.

هـــ ـ الموقف من الأخطاء التي تقع في البيئة المدرسية، والتعامل الحكيم معها؛ حيث إن على المُعلِّم أن يمتلك الشجاعة الأدبية في التراجع عن الخطأ العلمي، والاعتذار عن الخطأ الشخصي. أما أخطاء الزملاء والطلاب، فيتعامل معها على أنها أشياء طبيعية، فلا يضخمها، ولا يبالغ في تصويرها، بالإضافة إلى إبداء القدرة على استيعابها ومقابلتها بالصفح والإصلاح. ومن الواضح أن مثل هذا السلوك قد يكون سهلاً إذا كانت أخطاء الآخرين قليلة، أو كانت تقع في ظروف معتادة؛ لكن يختلف الأمر عند تكرار الخطأ، كما يختلف حين يكون المُعلِّم مجهَدًا أو واقعًا تحت ضغوط نفسية؛ حيث تكون مجاهدة النفس آنذاك أكثر إلحاحًا.

و ـ طريقة التفكير والمحاكمة العقلية للأشياء والأحداث. ومن المهم ـ كما ذكرنا ـ مقاومة أهواء الذات من التعصب والتحيز والمبالغة والاستخفاف بالآخرين، والغلو في إضفاء الأهمية على بعض الأمور. وفي تصوري أن المُعلِّمين يستطيعون من خلال الانفتاح والمصارحة والتناصح والتعاون على البر والتقوى أن يحسِّنوا البيئة الأخلاقية، وأن يرفعوا من سوية بعضهم بعضًا في كل المجالات؛ وبذلك يستطيعون تقديم نماذج متقدمة في الخير والرقي والتقدم؛ مما ينعكس على الحياة عامة وعلى الحياة التعليمية خاصة.

المُعلِّم مربٍّ:

كما تفرض طبيعة التعليم على المُعلِّم أن يكون قدوة؛ تفرض عليه كذلك أن يكون مربيًا. والحقيقة أن الهدف الجوهري الذي تُبنى من أجله المؤسسات التعليمية هو (التربية). والتعليم ما هو إلا وسيلة تستخدمها تلك المؤسسات؛

حيث إن المقصود الأكبر هو تنمية شخصية الطالب بكل جوانبها: العقلية والعاطفية والثقافية والاجتماعية. وهذا هو معنى التربية.

ومن المؤسف أننا نشعر على نحو متزايد أن المُعلِّمين باتوا ينشغلون بالوسيلة عن الهدف، بل ربما صار هناك من يجادل، ويتساءل: هل على المُعلِّم أن يكون مربيًا؟ وهل التربية من مهمات المدارس أو من مهمات البيوت؟ إن هذه الوضعية جعلت كثيرًا من المُعلِّمين لا يهتمون بموضوع التربية، ولا يهتمون بملاحظة انعكاسات جهودهم التعليمية على شخصيات الذين يعلموهم. وعلامة ذلك أننا أَوْكَلْنَا إلى الامتحانات على نحو كلي لتقيس لنا مدى التقدم الذي ولّده التعلم، وهو معرفي محض. والأسوأ من هذا وذاك أن كثيرًا من المُعلِّمين قد بدؤوا يتخلون عن المشاعر والأخلاقيات والسلوكيات التي يفرضها قيامهم بالدور التربوي. وهذا في تصوري سيؤثر سلبًا أيضًا على دورهم التعليمي.

حتى ينجح المُعلِّم في أن يكون مربيًا فإن عليه أن يتمثل شخصية (الأب الواعي)، ويحاول أن يتصرف مع طلابه، كما يتصرف الأب مع أبنائه. وحتى ينجح مثل هذا التقليد؛ فإن على المُعلِّمين أن يقوموا بالآتي:

1ـ النظر إلى ما يصدر عن الطالب من تصرفات خاطئة على أنها نتيجة عدم نضجه وعدم فهمه لقوانين الحياة، وليس على أنها صادرة عن خبث وسوء نية. وهذه النظرة تمنح المُعلِّم سعة في الصدر، وتزوده بطاقة كبيرة على التحمل. وقد حدث منذ عهد غير بعيد أن دخل أحد الأساتذة الجامعيين إلى قاعة التدريس، وكان الجو مشحونًا بسبب بعض الأحداث التي تمر بها البلاد. وتحدث الأستاذ قبل أن يبدأ محاضرته عن تلك الأحداث؛ مما أدى إلى انقسام الطلاب بين موافق للأستاذ ومخالف له. وفجأة وفي لحظة سادها الهدوء قام أحد الطلاب، وصرخ في وجه الأستاذ قائلاً: (أنت معتوه!). ونتيجة لذلك ساد القاعة توتر شديد،

ووقف الطلاب إلى جانب الأستاذ؛ لأنه أستاذهم، ولأنه صاحب سلطة؛ ولأن الطالب لم يكن على حق فيما قال. وكان في استطاعة الأستاذ أن يأمر الطالب بالخروج من القاعة، ولو فعل ذلك لحظي بمساندة الطلاب. ولكنه قال للطالب: (أنت على حق). وبعد فترة صمت أضاف المُعلِّم قائلاً: (لأنك تعتقد أنني معتوه). وسرعان ما أخذ الطالب يبكي بدمع غزير. وهنا صرف الأستاذ الطلاب من القاعة، ثم دنا من الطالب ليقول له: إن ما فعلته لم يكن صائبًا. وبعد ذلك ظل الطالب سنوات يحدِّث الناس عن ذلك الأستاذ، وكان يقول: إن موقفه مثَّل لي نقطة تحوُّل من الظلام إلى النور! إنه الكرم الذاتي الذي لا يستطيع الإنسان أن يقابله بغير الشكر والعرفان.

2ـ لدى الأبوين درجة عالية من الشفافية نحو أوضاع ابنهما، إنهما يحسّان به ولو لم تتوفر لديهما معلومات عنه. وهكذا المُعلِّم المربي يقرأ في عيون طلابه ووجوههم وحركاتهم الهموم والمشكلات التي تؤرقهم وتعكر صفوهم. إنه يصل إلى شيء ما على الرغم من قلة المعلومات والتفاصيل التي في حوزته. والذي يجعله كذلك هو عطفه وشفقته على طلابه، واهتمامه بنجاحهم وتقدمهم. وهذا ما يجعله أيضًا يعثر لهم على مخرج من أزماتهم وضائقاتهم؛ حيث يشعرون أنه لا مخرج.

3ـ المُعلِّم الجيد مثل الأب يعد نجاح طالبه نجاحًا له، ولا يجد أي حرج في تفوق طلابه، لأن ذلك في صحائف من علموهم. ولذا فإن المُعلِّم يدفع طلابه دائمًا نحو الأمام، إنه لا يستطيع التخلي عن النصح والتوجيه والإرشاد، وهو مع ذلك يبث روح الأمل والرجاء في نفوس من يعلمهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وأبناؤنا بأمسِّ الحاجة اليوم إلى هذا النوع من المُعلِّمين؛ حيث يسود الإحباط واليأس في كثير من الأوساط، وحيث يشعر كثير من الشباب بضغوط نفسية ومعيشية شديدة.

ومن المؤسف أن بعض المُعلِّمين صار يشعر بأن نصحه وإرشاده لطلابه يتنافى مع احترام استقلالهم وحرياقم الشخصية؛ مما جعله يصرف النظر عنهم. وهذا شعور خاطئ؛ فالمُعلِّم ليس كباقي الناس، إنه أشبه بالأب، ولا يستطيع الأب أن يحجم عن توجيه أبنائه خوفًا من إقحام نفسه في شؤونهم الخاصة. من أجل مواجهة الإحباط ومساعدة الطلاب على بلوغ الذروة؛ علينا ألا نبخل عليهم بكل ما يشعرهم بقيمتهم وقدراقم وأهليتهم للنجاح، ورُبّ كلمة تشجيع وتحفيز غيرت مسار طالب، أو بعثت طاقة كامنة، أو داوت جرحًا غائرًا!

المُعلِّم مجدد معرفة:

خبرات الشعوب مختزنة في الكتب التي كتبتها أجيالها على مدار التاريخ. وتلك الخبرات تكتسب أهمية خاصة بالنسبة إلينا نحن المسلمين، إنها تشكل الجذور العميقة لوجودنا الثقافي والحضاري، ولكن تطور اللغة واختلاف الذائقة الثقافية لدى الأجيال الجديدة؛ تجعل الاستفادة من الكتب والخبرات التراثية محدودة؛ حيث إنها تبدو باهتة وغير عملية، وهنا تظهر براعة المُعلِّمين الأكفاء في إعادة صياغة اللغة التي يستخدمونها في التعليم حتى تلائم الذائقة الثقافية الجديدة.

وهذا التجديد في التعبير عن المبادئ والمفهومات التراثية، لا يساعد الطلاب على استيعاب إنجازات السلف فحسب، إنما يساعدهم أيضًا على توسيع مدى الرؤية والإحساس بالتجذر واتصال الأجيال ووحدة المعرفة.

إن كثيرًا من شبابنا يشعرون بالغربة والوحشة اليوم نتيجة شعورهم بأن أمة الإسلام تعيش على هامش العالم، ونتيجة إحساس كثير منهم بعدم صلاحية المعارف القديمة لتحسين الحياة الحاضرة، فصاروا حائرين بين ماضٍ لا يعرفون

كيف ينتمون إليه وكيف يستفيدون منه، وبين حاضر لا يجدون القدرة على تكييفه وتطويعه والتأثير فيه!

تجديد المعرفة قد يكون بشرح المعارف القديمة بعبارات جديدة، أو بضرب أمثلة من الواقع عليها، أو تطويرها ونقدها وإدخال بعض التعديلات عليها. لا ريب أن هذه المهمة ليست سهلة، ولكن لا بديل عن الاجتهاد وبذل ما يمكن بذله؛ والله المستعان.

أنماط المُعلِّمين:

المُعلِّم طبيب، ولكنه طبيب عقول ونفوس. وكما أن الذين يمارسون الطب ليسوا جميعًا مؤهلين، كذلك ليس كل من انتمى إلى مهنة التعليم كان جديرًا بها. وكما أن المرض قد يعتري الطبيب، فيجعل أداءه لعمله صعبًا، بل قد يقعده عنه، كذلك المُعلِّم يمر بأزمات عديدة، ويتعرض لانتكاسات ومشكلات تختلف في حدتها وشدتها من مُعلِّم إلى آخر. وإلى جانب هذا هناك المُعلِّم الناجح الذي يؤدي عمله على أفضل وجه ممكن، وينتزع إعجاب طلابه به. ولا أريد هنا أن أتحدث عن المُعلِّم المتميز، فقد ذكرنا الكثير من سماته وخصائصه، ولكن أريد أن أتحدث عن الأصناف الأخرى من المُعلِّمين؛ لكن أود قبل كل شيء أن ألفت النظر إلى أنه ليس هناك حدود فاصلة بين هذه الأصناف، وقد يتصف بعض المُعلِّمين الناجحين ببعض صفات المُعلِّمين المخفقين أو السيئين. وقد يتصف هؤلاء ببعض صفات أولئك.

وهذه إشارات سريعة في هذا الشأن:

1ـ المُعلِّم المهمل:

هو إنسان دخل مهنة التعليم على سبيل الخطأ، وعلاقته بها علاقة شكلية وسطحية؛ فأنت لا تكتشف وأنت تتحدث معه أن له أي اهتمامات بالثقافة أو

التعليم أو مستقبل الأجيال. ويظهر إهماله في تحضيره لدروسه، وفي تصحيحه لواجبات الطلاب وأوراق امتحاناتهم. ولا يلقي بالاً لشكواهم، ولا يفكر في أحوالهم.

2ـ المُعلِّم المستبد:

من سمات هذا الصنف من المُعلِّمين أنه يفتقر إلى الروح الرياضية والمرونة الذهنية. وهو قوي الإحساس بمركزه وسلطته. ويغلب عليه طابع الحرفية والتمسك بالأنظمة دون أن يأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة التي يمر بها بعض الطلاب. والهم الذي يسيطر عليه هو إنهاء المناهج؛ فلا يعطي للثقافة العامة وتنمية شخصيات الطلاب ما تستحقه من عناية واهتمام. وهو إلى جانب هذا مستبد برأيه؛ لأنه لا يرى أن طلابه مؤهلون لأن يقفوا أمامه موقف الند من الند، مع أن أعظم المُعلِّمين قد يجد لدى طلابه آراء أو معلومات جيدة ليست في حوزته. ويقوم المُعلِّم المستبد بضبط إيقاع الحركة في الفصل أكثر مما ينبغي؛ لأنه يرى أي حركة أو كلمة من أي طالب على أنها شيء مخل بآداب التعلم ومخل بهيبة الأستاذ. وبالإضافة إلى كل ما سبق؛ فإن المُعلِّم المستبد لا يؤمن بالتحفيز والتشجيع كثيرًا، ويلجأ إلى العقاب بوصفه أداة لحمل الطلاب على تنفيذ ما يطلب منهم.

3ـ المُعلِّم الفوضوي:

يسير المُعلِّم الفوضوي في الاتجاه المعاكس للمُعلِّم المستبد، فهو لا يأبه بتوجيهات الإدارة، ولا يلتزم بالنظم المرعية، كما لا يهتم بإنهاء المناهج، ولا يكترث بما يسمى الأهداف التعليمية. وهو يحمل في نفسه نوعًا من الرفض للتقاليد التعليمية المعترف بها. إن الذي يسيطر عليه هو العلاقات الإنسانية مع

الطلاب. وحرصه على رضا طلابه ومسامرتهم يقع عنده في المرتبة الأولى. ولهذا فإن المحصلة العلمية التي يحصل عليها طلابه من وراء تدريسه تعد متواضعة.

4ـ المُعلِّم العادي:

نمط المُعلِّم العادي هو النمط السائد في معظم المدارس. ومستوى ما هو عادي وغير عادي تحدده البيئة التعليمية العامة؛ فالمُعلِّم العادي في دولة متقدمة يختلف كثيرًا عن المُعلِّم العادي في بلد متخلف فقير. يحرص المُعلِّم العادي على إنهاء المناهج، كما يحرص على تنفيذ التعليمات العليا، لكنه مع هذا يتيح للطلاب نوعًا من المشاركة، كما يتيح فرصة محدودة لطرح الأسئلة. ومعرفته بمادته عادية، واهتمامه بتنمية شخصيته وتحسين فاعليته ضئيل أو دون المتوسط. وفي اعتقادي أن من شروط نهضة التعليم في أي بلد ـ تسليط الضوء على هذه الأنماط وبلورة خصائصها على نحو أعمق، وإجراء بعض البحوث والمحاورات حولها، وتوضيح التعديلات التي ينبغي إدخالها على كل واحد منها، بالإضافة إلى بحث السبل التي تساعد كل صنف من هذه الأصناف الأربعة؛ على التخلص من العيوب التي تقعد به عن أن يكون واحدًا من المُعلِّمين الجيدين.

المُعلِّم بين الحقوق والواجبات:

من الواضح أن الناس يعوِّلون على المدارس أكثر من أي وقت مضى، فهم يطلبون منها الكثير والكثير. وهذا يرتب على المُعلِّم مهمات إضافية. كما أن هناك من وجه آخر شعورًا عامًّا لدى المُعلِّمين بأنهم لا ينالون حقوقهم المادية التي يستحقونها، ولا يلقون الاحترام والدعم الذي يؤملونه.

ولعلنا نستبين في هذه القضية الملامح الآتية:

1ـ اتهامات متبادلة:

التعليم بوصفه من القضايا الكبرى في حياة الأمم؛ فإنه ينطوي باستمرار

على مفارقات وتناقضات، كما ينطوي على الالتباس وسوء الفهم؛ إذ إن هناك دائمًا مشاعر ومواقف ومطالبات مختلفة. في المدارس أحاديث متواصلة وتأفف مستمر من تقصير البيوت في القيام بواجبها التربوي. وفي البيوت أحاديث مشابهة عن المُعلِّمين والمدارس. وبما أن البيوت والمدارس تشترك في العمل على جهاز واحد هو الطفل؛ فإن المتوقع أن يجور كل طرف على الآخر، ويطلب منه ما ليس عليه أن يقوم به، وأن يحمله مسؤولية ما لم يفعله، وهكذا سنة الله ـ تعالى ـ في الشركاء والخلطاء: {**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ** } [ص: 24]. وإذا تأملت في أحاديث كل من الطرفين وجدت أنها تنطوي على شيء من الحق، وشيء من المبالغة، وشيء من الخطأ المحض. ولا أعتقد أننا سنتمكن في يوم من الأيام من إصدار أحكام واضحة وفاصلة في هذه المسألة. ولا بد من أن نرضى بالرؤية الإجمالية والأحكام التقريبية.

2ـ الفجوة بين الممكن والمطلوب:

أكثرنا على وعي بأن الكمال لا حدود له، وأنه ستظل هناك فجوة بين ما نحن عليه، وبين ما يمكن أن نفعله من جهة، وبين ما يمكن أن نفعله، وبين ما يجب أن نفعله من جهة أخرى.

وفي خضم هذه البينيات والفجوات؛ فإن من المألوف جدًا ألا تعرف الأسر ما الذي تريده تمامًا من المدارس، كما أن من المألوف أيضًا ألا تعرف المدارس ما الذي تريده من الأسر. ويصبح الأمر أكثر صعوبة في ظل عدم تواصل جيد بين الجهتين.

وسوف تستمر شكوى المُعلِّمين من أهالي الطلاب، وتستمر شكوى الأهالي من أداء المدارس. وذلك لا يعود إلى غموض المطلوب عمله فحسب، وإنما

يعود أيضًا إلى أن طموحات الناس هي دائمًا أكثر من إمكاناتهم؛ ولهذا كله فإن الاستمرار في تحسين الأداء التربوي في البيوت والمدارس من خلال الجهود الذاتية، ومن خلال التعاون بين الآباء والمُعلِّمين ـ قد يكون هو الشيء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه من وراء التلاوم، وتحميل كل طرف مسؤولية القصور للطرف الآخر.

3ـ حقوق المُعلِّم من نوع مختلف:

إذا تحدثنا عن حقوق المُعلِّم؛ فلا ينبغي أن ننظر إليها على أنها شر لا بد منه، أو ننظر إليها كما ينظر دافع الضرائب لما يدفعه، فهو يبحث عن فرصة تمكنه من عدم الدفع؛ لأننا إذا فعلنا ذلك نسيء إلى التعليم، ونسيء إلى المكانة المرموقة التي ينبغي أن يحتلها المُعلِّم في أمة تحترم العلم، وتتعشقه وتضحي في سبيله.

إن ما يقدمه المُعلِّمون لأبنائنا هو أكبر بكثير من أن يُقوَّم بالمال، إنهم يقدمون نوعية جديدة من الحياة، ونوعية جديدة من بلورة الشخصية. ولذا فإننا إذ نلحّ على تحسين وضعية المُعلِّم، لا نقصد دفع ثمن لما يقدمه، وإنما نقصد التعبير عن الشكر والعرفان أولاً، ثم توفير بيئة تمكنه من القيام بعمله على نحو جيد ثانيًا.

إن الضغوط المادية تلاحق الموظفين عامة والمدرسين خاصة، وإن المُعلِّم من الموظفين القلائل الذين يحملون معهم بعض أعمالهم الوظيفية إلى بيوتهم. وهو ـحتى يستمر في العطاءـ بحاجة إلى وقت إضافي في المساء كي يُتَمِّم عمله فيما أحضره من المدرسة، وكي يثقف نفسه ويجدد خبراته. وإذا انصرف عن ذلك إلى العمل في أمور أخرى بسبب الحاجة؛ فإن ذلك يشكل نكسة لأدائه التعليمي. إن انشغال المُعلِّم بمشكلاته الشخصية وتدبير شؤون عيشه، وإحساسه بأنه لا ينال حقوقه المالية، أو أنه لا ينال المكانة الاجتماعية التي يستحقها... إن

ذلك لا يشجعه على أداء عمله على الوجه المطلوب، كما لا يشجع أصحاب المواهب والطموحات على الدخول في مهنة التعليم.

ويذكرون أن من أسباب جودة التعليم في اليابان أنه قادر على اجتذاب أفضل العناصر. وتُظهر استطلاعات الرأي هناك الاحترام الكبير الذي يكنه الشعب الياباني للمُعلِّم. ورواتب المُعلِّمين تفوق رواتب المهندسين والصيادلة. ولذا فإنه يتقدم لكل وظيفة شاغرة هناك خمسة من المُعلِّمين؛ مما يتيح للقائمين على التعليم اختيار أفضل الكفاءات من خريجي الجامعات وكليات التربية.

إن الدعم الذي يحتاجه المُعلِّمون منا ينقسم إلى قسمين: دعم مادي، ودعم معنوي:

الدعم المادي يتجسد أساسًا في زيادة الرواتب والمكافآتفي معظم البلدان إلى جانب مساعدة المُعلِّمين في توفير السكن وتوفير تعليم جامعي جيد لأبنائهم. ومن الواضح أن إعطاء الميزات المادية يجب أن يقترن بوضع معايير دقيقة في التوظيف لاختيار أفضل المتقدمين من حيث الكفاءة المهنية، ومن حيث الرغبة الحقيقية في العمل في هذه المهنة الشاقة. وإنما نقول ذلك لأن إعطاء الميزات دون تدقيق في الاختيار قد يؤدي إلى نتائج عكسية تمامًا؛ حيث يجتذب التعليم آنذاك أسوأ العناصر، والذين لم ينتسبوا إليه إلا رغبة في المزايا التي يوفرها.

وأعتقد أن على الأهالي من الآن فصاعدًا أن يساهموا في تحسين الأوضاع المادية للمُعلِّمين والمدارس عامة. ولا أرى أي غضاضة أو مشكلة في أن يدفع ولي أمر الطالب في بداية كل سنة دراسية مبلغًا من المال يعد مساهمة منه في دعم صندوق خاص بتحسين أوضاع المُعلِّمين، وفي تحسين التجهيزات المدرسية من معامل ومكتبات ومختبرات... وحين يفعل الأب ذلك فإنه يعد هو الرابح الأول؛ لأن ذلك سيساعد على توفير تعليم أرقى وأجود لولده.

أما الدعم المعنوي فيتمثل في تقدير المهمة التي يقوم بها الْمُعلِّمون، وتوكيد حب العلم وأهله في نفوس الناشئة، والتجاوب مع الْمُعلِّمين في متابعة الأولاد، والمساعدة على تحسين مستواهم من خلال الاهتمام بحل الواجبات، وحفظ الدروس وكتابة البحوث؛ بالإضافة إلى عدم الإصغاء إلى كل ما يقوله الأولاد في مُعلِّميهم من النقد والتجريح.

إن هذا وحده لا يكفي في تعزيز المهمة الكبرى التي يقوم بها الْمُعلِّمون، بل لا بد من الارتقاء ببرامج إعداد الْمُعلِّم من خلال تحسين مستوى التعليم في الكليات، ومن خلال التثقيف والتدريب المهني المستمر أثناء العمل. كما يجب من وجه آخر إشراك أكبر عدد ممكن من الْمُعلِّمين في تطوير مناهج التعليم ونظمه، فما داموا هم الذين ينفذون كل ذلك في الفصول؛ فإن نجاحه سيظل مرتبطًا باقتناعهم به وحماستهم له.

إن دور الْمُعلِّم في تنشئة الأجيال سوف يتعزز إذا ما كثر المهتمون بالتعليم من خارج الجهاز التعليمي. وإن من المسؤوليات الكبرى للإعلام المسموع والمرئي والمقروء: أن يوفر الأرضيات والأطر للحوار والنقاش الجاد والفعال بين أولياء أمور الطلاب والْمُعلِّمين، وبين المسؤولين وعامة الناس؛ من أجل تشكيل نشاط مواز يدعم أنشطة المدارس التربوية والتثقيفية، وسوف تستفيد المدارس كثيرًا من ذلك النشاط.

4ـ مزيد من العطاء:

في مقابل اهتمام المجتمع بالْمُعلِّم؛ فإن على الْمُعلِّم كذلك أن يهتم أكثر فأكثر بمهمته. ويستطيع كل مُعلِّم مهما كانت الظروف التي يعمل فيها ممتازة أن يجد المعاذير التي تقنعه بأنه مظلوم، وأن هناك ما يسوِّغ تقصيره، لكن تظل هناك شواهد ومقارنات تكشف حقائق الأمور؛ إذ إن هناك مدارس في داخل كل

دولة وخارجها تعيش ظروفًا صعبة، ومع هذا فإنها تقدم مستويات من الخريجين أعلى من مستويات خريجي مدارس كثيرة، تتمتع بإمكانات كبيرة. وذلك الفارق يعود إلى جهود الأساتذة على نحو أساسي.

وهناك إلى جانب هذا أشكال من الخلل في النظام المدرسي، وفي المستوى التعليمي ليس لها تفسير سوى عدم قيام المديرين والمدرسين بواجباتهم؛ فكثرة غياب المُعلِّمين والمُعلِّمات، وكثرة التأخر عن الحضور للمدرسة، والضعف الظاهر في معرفة بعض المُعلِّمين لقواعد الإملاء والنحو، ونسبة التفلت الأخلاقي لدى كثير من الطلاب على نحو لافت، وكَيْل الدرجات للطلاب من غير حساب؛ مما لا يعكس المستوى الحقيقي لهم، وشعور الطلاب بالإحباط من تدني مستوى مدرستهم، والاهتمام بالشكليات على حساب المضامين إلخ...؛ كل هذا مؤشرات تدل على خلل في قيام بعض المدرسين بواجباتهم الأساسية، وقد ذكرنا كثيرًا من تلك الواجبات، وسنذكر بعضها في الصفحات القادمة أيضًا، لكن ذلك سيكون محدود الفائدة ما لم يتم اتخاذ خطوات حثيثة على صعيد اختيار المُعلِّمين وتدريبهم، وعلى صعيد إيجاد آليات جديدة لتقويم أداء المدارس، وإيجاد فرصة لمشاركة الأهالي في ذلك.

علاقة ال ُعلّ بال ال

من الواضح أن تركيبنا الثقافي لا يعطي لمسألة العلاقة بين الأشياء إلا القليل من الاهتمام؛ حيث إنه يغلب علينا الإحساس بالأمور بوصفها وحدات معزولة؛ مع أن العلاقات بين الأشياء كثيرًا ما يكون لها الدور الحاسم في صياغتها وتوجيهها. وأظهر مثال على ما نقول هو صحبة الطالب للمُعلِّم، فهو من خلال احتكاكه بمُعلِّميه ينتقل من طور لا يعرف فيه شيئًا حتى كتابة اسمه، إلى طور يكون مؤهلاً فيه ليكون متخصصًا على مستوى عال في فرع من فروع المعرفة. وهما طوران متباينان أشد التباين.

نحن لا ننكر قابلية الطالب للتعلم، وجهده في سبيل الحصول عليه، لكن علينا أيضًا ألا نهمل الدور الأساسي والمهم الذي يقوم به الُمعلِّم في تشكيل عقلية الطالب ومشاعره ورؤيته للحياة والأحياء. الُمعلِّم المسلم مطالب بأن يجسّد في علاقته مع طلابه القيم والمبادئ التي يؤمن بها، وأن يكون واعيًا بطبيعة الروح التي ينفخها في الكيانات الصغيرة التي يقوم على تعليمها. ولو أننا تأملنا في البصمات التي يتركها الُمعلِّمون في طلابهم، لوجدنا أنها أقوى بكثير مما نظن، لكن ذلك لا يظهر على نحو جلي إلا حينما يكبر الصغار، ويصبحون في موقع المؤثر والمعطي والمربي؛ إنهم غالبًا يقومون بنقل المفهومات التي تلقوها من مُعلِّميهم، كما يستخدمون معظم الأساليب التربوية والتعليمية التي علموهم بها.

مُعلِّم يزرع الثقة:

يشكِّل تردد الطالب على المدرسة لأول مرة نقلة كبيرة في حياته. وهكذا كل مرحلة دراسية جديدة تشكل له ما يشبه اللغز، وتثور في نفسه نحوها المخاوف والهواجس. وتشكل العلاقة مع الُمعلِّمين بالإضافة إلى المناهج محور تلك المخاوف. فهو يخشى من أن تكون المناهج صعبة، أو تكون هناك مواد لا

يستطيع النجاح فيها، كما يخشى من أن يدرسه مُعلِّمون متشددون في التصحيح أو يصعب التلاؤم معهم. أضف إلى كل هذا أن بعض الطلاب يأتي إلى المدرسة وهو يحمل بين جنبيه ثقة منخفضة بالنفس؛ نتيجة سوء التربية التي تلقاها، أو نتيجة المشكلات التي تعصف بأسرته، أو نتيجة إحساسه بالدونية...

وهنا يأتي دور المُعلِّم الحصيف الذي يحاول أن يزرع ثقة الطالب بأهليته للنجاح، وأهليته للتلاؤم مع البيئة الجديدة. إن المُعلِّم إنسان كبير، والإنسان الكبير ليس الذي إذا جلست معه وجدت نفسك صغيرًا، ولكنه الذي إذا جلست معه وجدت نفسك كبيرًا. والأساليب والأدوات التي يمكن أن يستخدمها المُعلِّم بوصفه كبيرًا وزارعًا للثقة عديدة؛ منها:

- إفشاء السلام على الطلاب، وسؤالهم عن أحوالهم.
- التحدث معهم في أمور مهمة بالنسبة إليهم خارج نطاق المسائل التعليمية؛ حيث يتم بذلك كسر الحواجز بين المُعلِّم والطالب؛ تلك الحواجز التي يصنعها التعليم وسُلطة المُعلِّم. وتشجيع الطلاب على التحدث بأمور لا يعتقدون أن للمُعلِّم معرفة خاصة بها. ولكن الاقتصاد والاتزان في هذا الشأن من الأمور المطلوبة دائمًا.
- مشاورة الطلاب في بعض الأمور التي تتعلق بالتعليم، وطلب رأيهم في جدول الاختبارات، وتنظيم الفصل، واختيار أماكن الرحلات، وأنشطة التعليم اللامنهجي، وما شابه ذلك مما يؤكد لهم أخذ وجهات نظرهم بعين الاعتبار.
- عدم تسرع المُعلِّم في إصدار الأحكام، وأخذ الطلاب بالشبهة؛ حيث إن بعض الطلاب يعيش فيما يشبه الخوف الدائم من أن يُتهم بأمور لم يقم بها، أو أن يساء فهمه، أو تُدبر له مكيدة. ولذا كان من المهم أن يمنح

المُعلِّمون ومديرو المدارس الطلاب الإحساس بالأمان من حدوث مثل هذه الأمور.

- جعل العفو هو الأساس في معالجة المشكلات، وليس المعاقبة؛ ولا سيما حين يقع خطأ من طالب لم يُعهد منه مثل ذلك، وإنما كان عبارة عن هفوة أو زلة. ولا ننسى القولة المشهورة: (لأن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة)؛ فالسياسات التربوية التي تؤدي إلى العفو عن شخص لا يستحق العفو تظل أقرب إلى الصواب والأمان من تلك التي تؤدي إلى معاقبة أشخاص أبرياء.
- الوقوف إلى جانب الضعيف والمظلوم وذوي الحالات الخاصة؛ إذ من المهم جدًا حتى يسترجع الطالب ثقته بنفسه أن يشعر أنه لا يواجه مشكلات الحياة دون أي سند أو نصير. كما أن من المهم أن يشعر أن هناك جهة تنصفه إذا وقع عليه شيء من الظلم.

هيبة المُعلِّم:

كثرت شكوى المُعلِّمين في العقود الثلاثة الأخيرة من انخفاض مستوى ما يلقونه من تقدير واحترام، ومن انخفاض مستوى مكانتهم في نفوس طلابهم. وهذا في اعتقادي ليس عامًا، ولكنه ملموس. والحقيقة أن من مصلحة العملية التعليمية، ومن مصلحة الطلاب في المقام الأول أن يكون للمُعلِّم شيء من الهيبة في نفوس طلابه. ولسنا نعني بالهيبة هنا الخوف، وإنما الشعور بأن لدى المُعلِّم أشياء كثيرة؛ الطالب في حاجة إليها، والشعور بتفوق المُعلِّم خُلقيًّا وسلوكيًّا. وقد ذكرنا من قبل طرفًا من احترام أسلافنا للمُعلِّم والعلماء والعلم والتعليم، لكن المشكل أن الهيبة والاحترام والتقدير أشياء تكتسب، ولا تورث؛ فإذا أراد

المُعلِّمون استعادة ما فقدوه؛ فإن عليهم أن يتصفوا بالصفات التي تجعل الطلاب يهابونهم، ويقدرونهم عن طيب خاطر. وإن من تلك الصفات الآتي:

- انسجام المُعلِّم مع جوهر الثقافة الإسلامية التي تعد محور التربية في كل المجتمعات الإسلامية، كما أنها تشكل أساس المعايير الأخلاقية التي تحملها المناهج الدراسية. وكلما اقترب المُعلِّم من التطابق مع قيم تلك الثقافة ازدادت مصداقيته، وجعل الآخرين أكثر إعجابًا به.
- كلما اتسعت المسافة بين وضعية المُعلِّم وبين ما هو مختزن في خبرات الطلاب عنه علت مكانته في نفوسهم؛ حيث إن الطلاب كلما انتقلوا إلى مرحلة من مراحل التعليم توقعوا من أساتذتهم مستويات علمية وأخلاقية معينة من منظور ما رأوا وما سمعوا في الماضي. وهم يشعرون بالكثير من الاغتباط والانتماء لمدارسهم، كما يشعرون بمزيد من التقدير لمدرسيهم حين يجدون البيئة التعليمية الجديدة أفضل مما كانوا يتوقعون. وعلى مقدار ما تتدنى عما كانوا يتوقعونه ترتفع درجة الإحباط والشعور بالخيبة لديهم.
- تماسك شخصية المُعلِّم ومدى سيطرته على انفعالاته. ومن المعروف أن كثيرًا من هيبة المُعلِّم يمسي موضع تساؤل نتيجة كثرة ضحكه وسرعة غضبه وتدني سوية اهتماماته. وكم من مُعلِّم سقط من عيون طلابه نتيجة اهتمامه بأسعار الأشياء وشكواه من الغلاء. وكم من مُعلِّم فقد هيبته نتيجة حديثه عن شؤونه الخاصة، وما يمكن أن يعد أسرارًا عائلية. إن اتزان المُعلِّم لا يقل في إكسابه التقدير عن المعلومات التي لديه، بل إنه أهم.

جو الاحترام:

كلما تقدمت الأمم صار إحساس الأفراد بعضهم ببعض أكبر. والمدارس بما أنها هي محاضن لبناء الأجيال، ونشر الأفكار، وتطوير الحياة؛ مدعوة إلى أن تقدم النموذج الذي يقتدي به الناس خارجها. وقد تحدثنا عن أهمية احترام الطلاب والمجتمع للمُعلِّم حتى يتمكن من أداء رسالته على الوجه المطلوب.

ونؤكد هنا أن الاحترام الحقيقي الذي يتلقاه المُعلِّم من طلابه يجب أن يكون صادرًا عن حبهم له وإعجابهم به. ولا قيمة لأي احترام يكون مصدره خوف الطلاب على مستقبلهم، أي سلطة المُعلِّم. إن الوضعية الصحيحة هي الوضعية التي يكون فيها احترام المُعلِّم مصدر سلطاته، لا الوضعية التي تكون فيها سلطته مصدر احترامه.

إن جو الاحترام ليس شيئًا يصنعه الطلاب وحدهم، وإنما هو مسؤولية المُعلِّمين والموظفين والأهالي أيضًا.

إن من مفاتيح تكوين أجواء الاحترام والتقدير المتبادل: امتلاك المُعلِّمين قدرًا من الشفافية؛ يمكنهم من الشعور بأزمات الطلاب ومشكلاتهم من غير أن يطلعوا على تفاصيل حياتهم، إنهم من خلال دقة الملاحظة وسعة الفهم والخبرة العريقة يستطيعون تقدير العوامل التي تدفع الطلاب إلى النجاح، والمعوقات التي تعترض طريقهم. ومن المهم دائمًا أن يتصرف المُعلِّم على أنه كبير يتعامل مع صغار، فيتيح لهم المجال للتعلم في كل الظروف، بل إن المُعلِّم الحصيف قد يتظاهر بالجهل من أجل جعل الطلاب يشعرون بأنهم يعرفون ما لا يعرف، فيندفعون إلى التفاعل معه والسرد أمامه. يقول عطاء: (إن الشاب ليتحدث بحديث فأسمع له كأني لم أسمع به، وقد سمعته قبل أن يولد).

إن إرسال الله -جل وعلا- الرسل إلى جميع البشر مهما كانت أعراقهم وأوضاعهم ينطوي على دلالة رمزية عميقة؛ هي أن بني الإنسان جميعًا يملكون

الاستعدادات الفطرية للتقدم والنمو والارتقاء والصلاح، ولم لا وقد نال كل واحد منهم قسطًا من التكريم الإلهي: {**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**}

[الإسراء: 70]

إن حاجة المُعلِّمين لاحترام طلابهم ليست حاجة أخلاقية وإنسانية فحسب، وإنما هي حاجة مهنية أيضًا؛ إذ إنهم من غير الاحترام لذلك الكائن الذي اؤتمنوا عليه، لا تكتمل معرفتهم به؛ فمن غير التقدير والنظرة الإيجابية للطلاب لا يستطيع المُعلِّمون معرفة الطلاب الذين لا يبالون بالتعليم، كما لا يستطيعون معرفة الأفكار السلبية التي كوّنها عنهم طلابهم. ولا يدركون أيضًا مدى تفاوت قدرات أولئك الطلاب على تحصيل العلم.

إن احترام الإنسان يُخرج أفضل ما لديه من إمكانات وطاقات. وهذا في الحقيقة ليس مقصورًا على الإنسان، بل قد يمتد إلى الحيوان أيضًا؛ إذ إن هناك ملاحظات كثيرة حول عمق العلاقة بين الحيوان ومدربه.

وتلك الملاحظات، وإن كانت تأخذ طابعًا أسطوريًا، إلا أنها جميعًا تشير إلى إدراك المدرب لقدرة الحيوان الذي يدربه، وإلى احترامه لحدود تلك القدرة؛ مما يؤدي إلى بناء جو من الثقة والتقدير المتبادل. وهذا بدوره يؤدي إلى تحقيق نتائج مذهلة.

الاحتساب في التعليم:

كانت فكرة الاحتساب وطلب المثوبة من الله -تعالى- على التعليم تسيطر على حسِّ الكثيرين من المُعلِّمين المسلمين في الماضي؛ حيث إنهم كانوا يرون في ممارسة التعليم قربة من أعظم القرب إلى الله -تعالى-؛ ولذا فإنهم كانوا يتحرون

النية الصالحة فيه، ويحاولون جعله خالصًا من الشوائب المادية. وقد تجاوزوا ذلك إلى الاهتمام بالشأن المادي للطالب والإنفاق عليه حتى يتفرغ لطلب العلم.

يذكرون في هذا السياق ما حدَّث به أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، قال: (توفي أبي وخلفني صغيرًا في حِجْر أمي، فأسلمتني إلى خياط أخدمه، فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة، فأجلس فيها، فكانت أمي تتبعني، فتأخذ بيدي من الحلقة، وتذهب إلى الخياط. ثم كنت أخالفها في ذلك، وأذهب إلى أبي حنيفة لأسمع دروسه، فلما طال بي ذلك عليها قالت لأبي حنيفة: إن هذا الصبي يتيم، ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي (أي من عملها في الغزل) ، فدعه يكتسب دانقًا كل يوم ينفقه على نفسه. فقال لها الإمام أبو حنيفة ـرحمه اللهـ: يا امرأة! إني أرى في ابنك عقلاً، وما يدريك أن يأتي عليه يوم يأكل فيه الفالوذج بدهن الفستق!) وهذه أكلة لم يكن يأكلها إلا السلاطين لغلاء ثمنها.

يقول أبو يوسف: فواظبت على مجلس أبي حنيفة، وفي أول يوم أتيته جلس معي حتى انصرف الناس، فدفع إليّ صرة فإذا فيها مئة درهم، وقال لي: الزم الحلقة، وإذا نفدت هذه فأعلمني. فلزمت مجلسه. فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مئة أخرى، ثم كان يتعاهدني، فما ترك لي حاجة إلا قضاها، فنفعني الله بعلمه...) ، ولا حاجة بنا إلى تكملة القصة؛ حيث أكل أبو يوسف ـرحمه اللهـ الفالوذج على مائدة هارون الرشيد بعد سنوات في قصة طويلة. وتذكّر كلام شيخه أبي حنيفة في ذلك.

وقد أدركت صورًا مشابهة في علاقة بعض شيوخي ـحفظهم الله ورحم الأموات منهمـ مع طلابهم. وما زال عالَم التعليم مطرزًا بمثل هذه النماذج الرفيعة من الشيوخ والمُعلِّمين؛ على قِلَّتهم.

وبلغ بهم الاحتساب وطلب الأجر كاملاً من الله ـتعالى ـ على التعليم أنهم كانوا لا يكلفون طلابهم بشيء من أمر الدنيا، ويرفضون قبول خدماتهم. وأخبارهم في ذلك كثيرة؛ منها ما ذكره الحسن بن الربيع قال: (كنت عند عبد الله بن إدريس، فلما قمت قال لي: سل عن سعر الأشنان! فلما مشيت ردَّني، فقال لي: لا تسأل عنه، فإنك تكتب عني الحديث، وأنا أكره أن أسأل من يسمع الحديث مني حاجة). وقد ذكروا أن الإمام أحمد بن حنبل ـرحمه الله ـ رفض قبول الدواء من أحد طلابه قائلاً: (أنت تسمع مني). وقال جرير بن عبدالحميد: (مرَّ بنا حمزة الزيات، فاستسقى الماء، وقعد. ودخلت البيت، فلما أردت أن أناوله الماء نظر إليَّ، وقال: أنت هو؟ قلت: نعم. قال: أليس تحضرنا في القراءة؟ قلت: نعم. قال: رُدَّه. وأبى أن يشرب وقام ومضى).

إن هذه الصور التي ترسم أعلى درجات التعفف تدل بوضوح على سمو نظرتهم للتعليم، وعلى حرصهم على نقائه من الشوائب المادية. وهذه الصور نفسها تفسِّر لماذا كان العلم أحد أهم الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية، كما أنها تفسر ذلك الحب الكبير الذي كان يكنه طلاب العلم لشيوخهم ومُعلِّميهم!

العلاقة التفاعلية:

المُعلِّم الجيد يقيم علاقة تفاعلية مع الطلاب؛ إذ إن بعضهم ينجذب إليه بوصفه قدوة له، وبعضهم يستمع إليه ليستفيد من معلوماته، وبعضهم يصغي ليكتشف ما لديه من صواب وخطأ وخير وشر...

ومهما يكن من أمر فإن الجميع في النهاية يستفيد. وفي المقابل فإن المُعلِّم الذي تبرز لديه صفات سيئة مثل السخرية والمحاباة والقسوة والاستخفاف بالقيم والتحيز... إن هذا المُعلِّم يدمر العلاقة الطيبة والإيجابية بينه وبين الطلاب.

والحقيقة أن الطلاب هم الذين ينسحبون من تلك العلاقة بطريقتهم الخاصة؛ فهم حتى يحموا أنفسهم من تأثير تلك الشخصية غير المحبوبة يندفعون من غير شعور منهم إلى تشكيل جبهة دفاعية ضد تلك المساوئ؛ ولذا فإن أكثرهم لا يتضررون كثيرًا منها، ويستخدمون في دفاعهم عن ذواتهم أساليب عدة، مثل اغتياب المُعلِّم، والثرثرة في الفصل، وإبداء عدم الاهتمام بالمادة التي يدرّسها... إلخ.

إنهم بهذه الأعمال يشكلون مع المُعلِّم وضعية (اللاعلاقة). لكن ذلك يعود عليهم بالضرر من وجه آخر؛ حيث يحرمون من القدوة والأسوة الحسنة. وهذا في حد ذاته يحيلهم إلى نوع من القصور الذاتي والجمود، ويجعل اهتمامهم بالعلم محدودًا؛ خصوصاً إذا كانوا يفقدون القدوة في بيوتهم. ولكن بحمد الله تكاد ألا تخلو مدرسة من مُعلِّم جيد يمارس دور إيقاظ الطلاب، وإثارة الصور الجميلة والعظيمة في نفوسهم، وهذا مما يخفف من غلواء المشكلة.

مشكلات التقويم:

إن أكثر ما يعكر العلاقة بين المُعلِّمين والطلاب هو موضوع التقويم؛ حيث يشعر الطلاب الكسالى -على نحو خاص- أنهم مظلومون، وأن أساتذتهم لا يعطونهم حقوقهم، أو لا يمنحون لمسألة التقويم حقها من الدقة والإنصاف والعدل. والحقيقة أن الامتحانات بكل أشكالها عملية مكروهة لكل من المُعلِّمين والطلاب، ولكن يبدو أنه لا بديل عنها، فنحن بحاجة إليها من أجل قياس مدى التقدم الذي يحرزه الطالب، كما أننا نستخدمها من أجل تحريض الطلاب على القراءة والمذاكرة. ولست هنا بصدد ذكر نوعية الأسئلة التي تنمي الإبداع لدى الطلاب، ولكن لا بد من أن نحاول أن نجدد في الأسئلة لتشمل طرح تساؤلات علمية عوضًا عن أن تظل عبارة عن طلب سرد لمعلومات حفظها الطالب. إن طرح التساؤلات ينمي العقلية ويسهل الإحاطة بالموضوع، ويفتح آفاقًا معرفية

جديدة حوله. وأتصور أن في الإمكان أن تتضمن أسئلة الاختبارات تساؤلات من نحو:

- ما الأمور التي ما زالت غامضة بالنسبة إلى القضية الفلانية؟
- ما النتيجة المستخلصة من قراءة الدرس الفلاني؟
- لماذا اتبعنا المنهجية الفلانية في فهم كذا؟
- ما المثال الذي يمكن أن نأتي به على القاعدة كذا؟
- ما مدى صحة البرهان الذي نستخدمه للدلالة على كذا؟

وهكذا...

من المهم بعد هذا أن نبحث عن الأسلوب الذي يجعل من الامتحانات وسيلة لتنمية الطالب؛ عوضًا عن أن تكون وسيلة لتعويقه وتحطيمه. وكلما حاولنا أن تكون الامتحانات موضوعية كانت إمكانية الإنصاف والدقة في التصحيح أكبر، وهذا مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لا بد من الامتحانات المقالية في بعض المواد وبعض الموضوعات. وعند توزيع نتائج الامتحان؛ فإن هناك خطورة تترتب على طريقة نظرنا إلى تلك النتائج، فإذا نظرنا إليها على أنها وسيلة لتصنيف الطالب في وضعية نهائية؛ فإننا نكون قد أعطينا كثيرًا من الطلاب المسوِّغ لترك المدرسة؛ وبذلك نعرضهم للضياع. وهذا ما نشاهده في حياتنا التعليمية؛ حيث إن أعدادًا غير قليلة من الطلاب يقررون ترك مدارسهم بعد ظهور نتائج الاختبارات. ولذا فإن من المهم أن يفهم كل طالب أن النتائج السيئة ليست إخفاقًا، وليست هزيمة لا نصر بعدها، وإنما هي مجرد مؤشرات غير جيدة. وحين نشرح للطالب أوجه التقدم في إجابته، وما يمكن أن يفعله في المستقبل ليحصل على نتائج أفضل، حين نفعل ذلك فإن الوضع سيكون مختلفًا. وبتعبير آخر فإن علينا دائمًا أن نشوب التقويم بالتشجيع، ونزرع الأمل في وقت

اليأس. وهذا ما نلمسه في كلمات قصيرة للنبي ـصلى الله عليه وسلمـ؛ فقد قصَّت عليه زوجه حفصة ـرضي الله عنهاـ رؤيا رآها أخوها عبد الله بن عمر، فقال ـعليه الصلاة والسلامـ : (نِعْمَ الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل!). قال الراوي: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[1].

يقول أحد المُعلِّمين: درسْتُ وأنا طالب في الثانوية على أستاذين يسلكان مسلكين مختلفين تجاه الامتحانات:

أما الأول، فقد كان يتخذ من تبليغنا بالنتائج وسيلة للسخرية والتوبيخ والتجهيل. وكان يقول لأصحاب الدرجات الأكثر تدنيًا: إنه من المستحيل على الواحد منكم أن ينال الثانوية. وإذا نالها فإنه لن يجد في حياته العملية سوى الإخفاق. وكان يستعرض أمام الطلاب الأخطاء الشنيعة التي وقع فيها بعضهم، ويتخذ من عرضها وسيلة لمزيد من التأنيب. وكان كثير من زملائنا يغيب عن الدرس الذي يوزع فيه الدرجات. وأعرف خمسة من زملائي تركوا الدراسة، وانسحبوا من المدرسة بسبب الإحباط الذي زرعه في نفوسهم ذلك المُعلِّم!!

أما الآخر فكان يعطينا النتائج عن طريق أرقام خاصة كتبناها على أوراق الإجابة. وكان يقول لنا دائمًا: إن هذه الامتحانات لا تقيس الإمكانات الحقيقية للطلاب على نحو دقيق. وإن هناك طلابًا كثيرين ينجحون في الحياة العامة نجاحًا أعظم بكثير من النجاح الذي يحققونه أثناء الدراسة، لكنه في الوقت نفسه كان يخلو مع بعض الطلاب الذين نالوا درجات قليلة. ويحاول حثهم على بذل المزيد من الجهد، ويشرح لهم طرقًا جديدة في المذاكرة... إلخ.، وقد أحبه الطلاب حبًّا جمًّا حتى قال أحدهم: ما أسمعه من الأستاذ فلان يشكل أحسن بلسم لجرح الرسوب. وحين أجتمع معه أشعر أن طاقات جديدة تفجرت داخلي.

---

[1] أخرجه البخاري، ـاب الـهجـ ، باب: فضـ قـ ام اللـ . ومـ لم، ـاب الفضائـ ، باب: مـ فضائـ عبـ الله بـ عمر رضي الله عـ هما، واللفـ لـه.

أسلـ ب الـ علـ

للأسلوب في أي شيء قيمة كبيرة، قد تزيد في بعض الظروف والأوضاع على قيمة المضمون. وقد قالوا من قبل: ليس المهم ما قيل، ولكن كيف قيل. وفي ظني أن علينا ـمعاشر المربين ـ أن نبحث دائمًا عن الأساليب الأكثر أناقة والأكثر رقيًا في خطابنا لمن نقوم على تربيتهم؛ لأن ذلك الخطاب يعبر عن مجمل شخصياتنا ومداركنا. كما أن الخطاب حين يكون راقيًا يبني ذوقًا وأدبًا وخلقًا راقيًا لدى الذين نربيهم. وفوق هذا وذاك فإن الأسلوب الناعم يجعل المتلقي أكثر استعدادًا لقبول ما نقوله له. وهكذا فخير من أن أقول: هذا كذب. أقول: هذا خلاف الواقع. أو أقول: معلوماتي حول هذا الموضوع غير ما ذكرت. ويمكن أن نقول لإنسان لمسنا منه العجلة: إنك عجول، أو دائمًا أنت مستعجل. ولكن الأحسن منه قولنا: الروِيَّة جيدة، والعجلة لا تأتي بخير. وإذا رأينا رجلاً يغيِّر رأيه في الأمور كثيرًا، فيمكن أن نقول له: أنت متناقض. أو نقول: كل يوم لك رأي. وخير من ذلك أن نقول له: كان لك في الماضي رأي مختلف، فهل جدَّت لديك خبرة أو معلومة جديدة حتى غيرت رأيك؟... إلخ.

التعليم علم وفن، وكذلك التربية. والعلم مضامين ومفهومات وإشارات ينقلها الواحد منا إلى من يعلمهم. أما الفن فهو مجموعة الأدبيات والمهارات التي نستخدمها في نقل ما نريد نقله. والفن هو الأسلوب. ونحن في أسلوبنا التعليمي نصبُّ كل براعتنا وإمكاناتنا الذهنية والشعورية والجسمية أيضًا. ولذا قالوا: إن أسلوب الرجل هو الرجل نفسه. وقد دلت نتيجة اختبار أعدَّ على وجه الخصوص للمقارنة بين قدرات مئات الألوف من طلاب عدد كبير من الدول، يدرسون مادتي الرياضيات والعلوم في الصف الثاني المتوسط ـ دلت نتيجة ذلك الاختبار على أن الفروقات الجوهرية بين تعليم وتعليم؛ لا تتجسَّد في نوعية ما نعلم، ولكن في كيفية تعليمنا. ولذا فإننا لن نكون مسرفين إذا أعطينا لمسألة

الأسلوب ثلث جهدنا أو نصفه. إن التعليم عمل مُرضٍ ومجزٍ وممتع إذا مارسناه بطريقة صحيحة. وهو عمل شاق ومزعج ومحبط للمُعلِّم والمتعلم معًا إذا مارسناه بطريقة خاطئة.

التوسط في التعامل مع الناشئة:

كثيراً ما تحولت بعض الفضائل إلى رذائل، وبعض الميزات إلى نقائص وسلبيات، لا لشيء سوى أنها فقدت سمة التوسط والاعتدال. وإذا نظرنا في أسلوبنا التربوي والتعليمي وجدنا أنه كثيرًا ما يفقد هذه الفضيلة. وما ذاك إلا لأن الناس ينجذبون بقوة إلى أحد الطرفين، ويهملون الوسط أو ينسونه. بعض الآباء والمُعلِّمين يعتقدون أن المزيد من التخلي عن الناشئ يساعده على النضج المبكر، وعلى اكتساب مزيد من الوعي. وبعض آخر من الآباء والمُعلِّمين يعتقد أن المخاطر تحيط بالأولاد من كل جانب؛ ولذا فينبغي أن نوجه إليهم مزيدًا من الرعاية والاهتمام. وبعض الآباء يرى أن توفير مزيد من الرفاهية للطفل يعد من جملة مظاهر الارتقاء الاجتماعي الذي لا يكون للثروة معنى واضح من غيره.

إن بعض ما يقوله هؤلاء، وبعض ما يقوله أولئك وجيه ومفهوم، لكن المشكلة تكمن دائمًا في مجاوزة الأشياء لحدودها المنطقية والعرفية. الأب الذي لا يحاول تَلمُّس معاناة ابنه في ذهابه إلى المدرسة أو في علاقاته مع زملائه؛ والأب الذي لا يعرف أي شيء عن المشكلات التي يواجهها ابنه في دراسته... لا يساعده على تحمل المسؤوليات، ولكن يعرّضه لمشكلات صامتة قد تؤدي إلى انحرافه أو إلى تركه الدراسة.

والمُعلِّم الذي لا يسأل طالبًا كثير الغياب عن حضور الدروس عن أسباب غيابه؛ والمُعلِّم الذي لا يسأل تلميذه عن أسباب انخفاض درجاته... إن هذا

المُعلِّم، لا يساعد طالبه على الاستقلال الذاتي، وإنما يشعره من وجه خفي أن ما هو فيه طبيعي ومقبول.

من وجه آخر فإن الأب الذي يوظف لابنه من يفتح له باب السيارة، ومن يحمل له حقيبته إلى باب المدرسة، والأب الذي يبرِّئ ابنه من أي خطأ أو تقصير، ويحمِّل المُعلِّم أو الزملاء أو الجيران المسؤولية الكاملة لكل نزاعات ابنه ومشكلاته ـ إن هذا الأب يوفر لابنه حماية زائدة لا يستفيد منها، وإنما يتأذى حيث إن الطفل ينشأ آنذاك وهو غير قادر على تقدير الأخطار؛ لأنه نشأ بعيدًا عن أي خطر، كما أنه يفتقر إلى الجرأة والمخاطرة. ويكون في العادة فاقدًا للمناعة من الوقوع في أحابيل قرناء السوء، والانزلاق إلى حمأة المخدرات والانحراف الخلقي.

المُعلِّم الذي يسعى بكل وسيلة لاسترضاء طلابه، ويزيد لهم في درجاتهم بغير وجه حق ـ يضرهم أكثر مما ينفعهم؛ حيث يفقدون فضيلة الاهتمام بالدأب والجدية، ويضعف احترامهم لعلمهم ومدرستهم.

الطالب في حاجة إلى ألا نتخلى عنه وألا نهمله، كما أنه بحاجة إلى ألا نطويه تحت أجنحتنا لنلغي شخصيته ووجوده. والتوازن المنشود في هذا الشأن ليس في متناول اليد دائمًا، فلا بد من البحث المستمر عنه.

المعارف المقفلة:

كان من جملة التقاليد العلمية لدى علمائنا القدامى؛ أنهم يركزون على تحفيظ الطالبَ صغير السن القرآنَ الكريم، وأكبر قدر ممكن من المتون في العلوم المختلفة، انطلاقًا من كون الصغير أقدر على الحفظ منه على الفهم. وعندما يتجاوز الطالب مرحلة معينة في الدراسة؛ يبدؤون في تقديم مواد شارحة للمتون التي حفظها وهو صغير. وكانوا يقولون: (الحفظ في الصغر كالنقش على

الحجر)، و (من حفظ المتون نال الفنون). ولا ريب أن ذاكرة الصغير أقوى من ذاكرة الكبير، وأن قدرته على الحفظ أعظم. كما أن قدرة الكبير على مناقشة المسائل الخلافية، وقدرته على التجريد أكبر. وعلى هذا فإن خطة القدماء لم تكن بعيدة عن الصواب، ولكن لا بد من ملاحظة أمرين:

أ ـ الظن أن الصغير ليس قادرًا على التفكير. وهذا ليس بصحيح؛ فابن الحادية عشرة يستطيع أن يناقش بعض القضايا الاجتماعية المعقدة، وأن يقترح بعض الحلول لبعض المشكلات اليومية إذا تلقى شيئًا من التدريب على التفكير والمحاكمة العقلية، وهناك تجارب عديدة تؤكد ذلك.

ب ـ وجود إمكانية لاستمرار الطالب في الحفظ والتكرار للمعلومات ولو قرأ بعض الشروح والحواشي؛ حيث لا يتولى المدرس مناقشة الأقوال المختلفة. ولا يسأل الطالب عن شيء منها، ومن ثم فإن الطالب يقوم بحفظها، ثم سردها وقت الاختبار. وهذا موجود ـإن لم نقل سائدـ قديمًا وحديثًا.

ونشهد اليوم هجومًا شرسًا على طريقة الحفظ في تلقي العلم، كما نشهد الكثير من القول الذي يرفع من شأن التحليل والفهم والمناقشة في التعامل مع المعرفة. ولا يخلو كل ذلك من شيء من المبالغة والتزيد؛ إذ إن من غير الممكن تكوين شخصية علمية جيدة؛ من خلال وجود قدرات عالية على الفهم والتحليل؛ من غير امتلاك صاحبها لكمية جيدة من المعلومات والقواعد والمفهومات الراسخة والمتفق عليها. ولهذا فإنني أرى أن نهتم بتحفيظ الصغار كما كان القدماء يفعلون، ولكن إلى جانب هذا لا بد من تدريسهم بعض مهارات التفكير، ومحاولة تفتيح أذهانهم على ملاحظة بعض الأشياء. وكلما تقدم الطالب في المراحل الدراسية خففنا من الحفظ وتلقين المعارف المقفلة والجامدة، وصرنا إلى تقرير المواد التي تعتمد أكثر فأكثر على الفهم والمناقشة

والحوار وحل المشكلات. ومحور القضية هو المُعلِّم وليس المنهج؛ حيث إن المُعلِّم الجيد يستطيع إثارة المناقشات في أي مقرر من المقررات مهما كانت درجة جموده وانغلاقه، ومهما كانت نوعية المعرفة التي يقدمها. كما أن المُعلِّم بإمكانه أن يحول أي مادة حية ومنفتحة إلى مادة ميتة يكرر الطلاب معلوماتها دون أي فهم لها أو تفاعل معها. وأذكر مجموعة من الطلاب استعصت عليهم مادة اللغة الإنجليزية، فعمدوا إلى نظم مفرداتها في أبيات من الشعر؛ حتى إذا سئلوا عن معنى كلمة في الامتحان استرجعوا محفوظاتهم وأجابوا بالمطلوب!!

إن تقديمنا للمعرفة من غير مناقشة جيدة لمضامينها، ومن غير محاولة لجعل الطالب يتفاعل معها، ويثير الأسئلة حولها ـ يكوّن لدى أبنائنا عقلية البعد الواحد، ويدفعهم إلى فهم الظنيات على أنها قطعيات، وإلى التعامل مع الأمور المختلف فيها كما يتعامل مع الأمور المتفق عليها. وهذا وحده كافٍ لتشويش كل مركبهم العقلي، وجعل رؤيتهم للأشياء والأحداث عمشاء حولاءً! ولست أستبعد أن يؤدي أسلوبنا في تقديم المعرفة على ذلك النحو إلى تغذية روح التعصب والتحزب التي نلمسها عند كثير من الناس اليوم!

المعارف المقفلة تشكل الأساس، ولكن الأساس من غير سقف وجدران لا يشكل منزلاً يُسكن. والمعارف المفتوحة القابلة للنمو والاختلاف والجدل هي التي تكمل البناء، وهي التي تمنح الأساس المعنى الذي يجعله شيئًا لا بد منه.

المُعلِّم الناجح يتخذ من المعارف الأساسية والمقفلة، ومن المعارف المفتوحة وسيلة لتكوين عقلية الطلاب التكوين الصحيح، كما يتخذ منها حافزًا يدفع الطالب إلى المزيد من التشوق لاكتساب الجديد. وهذا لا يكون إلا إذا حاول المُعلِّم من خلال شرح المادة التي تخصَّص فيها تمليكَ الطالب رؤية واضحة لطبيعة المادة وآفاق النمو التي تنتظرها، إلى جانب توضيح المشكلات التي يواجهها

المتخصصون في الفرع الذي تتبعه. إن المُعلِّم الذي يستطيع النفاذ إلى هذه المعاني يثير في نفوس طلابه شهية البحث والتنقيب عن الأمور الغامضة، وبذلك تتحول المعرفة من شيء يردده الطالب إلى شيء يحفزه على تحصيل المزيد من العلم والخبرة، وهذا ما نحتاجه اليوم أشد الاحتياج.

الوضوح في الشرح:

حين يقف المدرس أمام طلابه ليشرح لهم مسألة من المسائل؛ فإنه يعتمد على نحو أساسي على (اللغة). واللغة ليست أكثر من رموز صوتية؛ أوجد العرف علاقة بينها وبين معانيها. وحين نقوم بصياغة جملة أو عدة جمل للتعبير عن معنى معين؛ فإننا نستخدم مهاراتنا اللغوية الخاصة والتي تختلف ـبالطبعـ من شخص إلى آخر. وقد دلتنا الخبرة على أن سوء الفهم من لدن السامعين لا يشكل حادثة غريبة، بل إنه شائع جدًّا بسبب قصور اللغة واختلاف المستويات الثقافية. وهذا يدعونا إلى أن نسلك مختلف الطرق من أجل إيصال المعلومة التي نريدها على الوجه الذي نريده.

ويستطيع المُعلِّم بلوغ ذلك أو مقاربته إذا ما قام بالآتي:

• إيراد الأمثلة على الشيء أو الفكرة التي يريد توضيحها؛ فالمثال يخفف من مستوى تجريدية اللغة، ويقرّب المعنى المشروح من الخبرة المتوفرة لدى الطالب. ولا شك أن فهم الطالب للطيش والتهور، وعدم الإحساس بالمسؤولية سوف يكون أفضل إذا ما جسّدنا هذه المعاني بسلوك سائق السيارة الذي اصطحب معه أسرته في رحلة، ثم قاد سيارته بسرعة هائلة تتجاوز كثيرًا السرعة المسموح بها. إذا كان المُعلِّم يتحدث عن معنى المثابرة والمواظبة والالتزام في أداء الأعمال، فإن مما يساعده على تجلية هذا المعنى؛ أن يذكر لطلابه ما عُرف عن النحل والنمل من متابعة العمل على نحو لا يعرف الكلال ولا الملل... وهكذا.

إن الأمثلة لا تقرب المعنى المراد تقريبه من ذهن الطالب فحسب، ولكن تجعله أكثر معقولية أيضًا وأشد ثباتاً في دائرة الممكن؛ إذ إن الطالب الكسول قد لا يتصور أنه قد يُمرّ على الطالب سنة دراسية كاملة دون أن يغيب عن أي محاضرة، إلا إذا قلنا له: إن فلانًا وفلانًا من زملائك لم يغيبا في العام الماضي مطلقًا.

• حين يرى المُعلِّم أن بعض طلابه لم يستوعبوا ما قاله نظرًا لاستخدامه كلمات أو تعبيرات غير مفهومة لديهم، فإنه يستطيع أن ييسر سبل الفهم عليهم من خلال الإفاضة في الشرح واستخدام كلمات أكثر انتشارًا في البيئة المحلية. وقد يلجأ إلى أن يسأل بعض الطلاب النجباء عن اللفظ أو التعبير العامي الذي يستخدمه الناس في أحاديثهم المعتادة. وقد يقوم المُعلِّم بنفسه بسؤال الطلاب عما فهموه من قوله: كذا وكذا. فإذا وجد أنهم لم يفهموا عنه ما يريد أعاد طرح ما قاله بأسلوب أيسر.

• قيام المُعلِّم بتجزئة القضية التي يقوم بشرحها؛ لأن خيال الطالب وقدرته على الفهم قد لا يساعدانه دائمًا على متابعة المُعلِّم على النحو المطلوب، وعلى لملمة أطراف القضية المطروحة. إذا فرضنا أن المُعلِّم يتحدث عن ظاهرة (البطالة) في صفوف الشباب؛ فإنه يستطيع تجزئة هذه الظاهرة إلى عدد من الأجزاء الرئيسة، مثل تعريف البطالة وأسبابها والآثار المترتبة عليها، وكيفية معالجتها والجهات التي يمكن أن تساعد على حلها، وما يتطلبه الحل من تغيير في حياة الباطل عن العمل، وفي حياة الناس على نحو عام.. إن تجزئة القضية الواحدة إلى أجزاء متمايزة يسهِّل فهمها، كما يسهِّل تقطيع رغيف الخبز إلى قطع صغيرة عملية مضغه وبلعه. وتجزئة القضايا والمسائل لا تساعد على فهمها فحسب، ولكن تساعد أيضًا في بناء التفكير السببي والمنطقي لدى الطالب. فنحن حين

حاولنا تفكيك ظاهرة (البطالة) قمنا بتعريفها، وبيان أسبابها، والنتائج المترتبة عليها... وهذا كله يساعد الطالب على امتلاك الرؤية المنظمة.

• قد لا يكتمل الوضوح المنشود في شرح المدرس من غير قيامه بالنظر إلى الشيء الذي يقوم بشرحه من زوايا مختلفة، ومن غير تقديم شرح للآراء المختلفة حوله؛ إذ ليس المطلوب أن يفهم الطالب ما نقوله فحسب، وإنما المطلوب أن يدرك على نحو جيد أبعاد الموضوع الذي نطرقه أمامه. وإذا عدنا إلى موضوع (البطالة) وجدنا أن في إمكان المُعلِّم أن يوضح التعريفات المختلفة للبطالة ـوهي تعريفات كثيرةـ كما أن في إمكانه أن يعرض وجهات النظر التي تحصر أسباب البطالة في القصور الثقافي الموجود لدى الباطل عن العمل. ويمكن أن يعرض كذلك وجهات النظر القائلة بأن البطالة تحدث بسبب بطء حركة التنمية، وجمود الأسواق، وضعف القدرة الشرائية لدى المستهلك... إلخ.

إن هذا العرض للرؤى المختلفة لهذه الظاهرة؛ لا يساعد الطالب على حسن الفهم فحسب، ولكن يساعده على امتلاك رؤية مرنة للأشياء، كما توسع آفاق التصور لديه، وتحميه من الرؤية الأحادية.

• إعطاء وقت أطول لتساؤلات الطلاب حول المعلومات التي قدمها المُعلِّم أثناء الشرح. والحقيقة أن هذه النقطة ذات أهمية كبيرة، فأسئلة الطلاب هي أكبر مرشد لنا للتعرف على مواقع كلامنا لديهم. والأفضل ألا تؤخر التساؤلات والإجابة عنها إلى آخر الحصة أو المحاضرة، وإنما تُثار خلال الشرح؛ لأن ذلك يعطي للدرس حيوية خاصة، ويحمي الطلاب من الشرود الذهني، ومن الإحباط الذي يتولد من تراكم الجزئيات التي لا يفهمها الطالب من شرح أستاذه.

• كلما استطعنا استخدام وسائل إيضاح أكثر خلال الشرح كنا أقرب لجعل استيعاب الطالب لما نقوله أفضل، فاللغة التي نستخدمها -كما ذكرنا- عبارة عن نظام لرموز ملفوظة؛ ووسائل الإيضاح -على نحو عام- تخفف من رمزية اللغة؛ أي تجعل الذهن يتعامل مع مسائل أقل تجريدًا، وأدخل في حيز المحسوس والملموس. وهذا لا يخفف من الجهد العقلي الذي يبذله الطالب في محاولات الفهم فحسب، وإنما يحسِّن مستوى الفهم نفسه، ويحد من دائرة جموح الخيال وتشتته. وقد دل العديد من الدراسات على أن مستوى الذكاء يرتفع بضع درجات لدى الطلاب الذين يدرسون في مدارس تستخدم وسائل تعليمية بكثافة؛ إذا ما قورنوا بطلاب لا يستخدم مُعلِّموهم وسائل الإيضاح على نحو كافٍ.

كلما كان الموضوع الذي يشرحه المُعلِّم جافًّا وبعيدًا عن اهتمامات الطلاب كانت الحاجة إلى وسائل التعليم أشد؛ حيث تساعد وسائل الإيضاح على تخفيف الضغط داخل حجرة الدراسة؛ من خلال قطعها لتدفق المعلومات والأفكار الذي يأتي به نمط الإلقاء المتوالي للمحاضرة أو الدرس. كما أن عدد الطلاب حين يكون كبيرًا أو تكون قاعة الدرس كبيرة؛ فإن انتشار وسائل التعليم في الفصل -كأجهزة الحاسب- تساعد الطلاب على متابعة المُعلِّم؛ والاستفادة منه على نحو أفضل.

إن من أسرار تقدم التعليم في كثير من الدول غِنى مدارسها وجامعاتها بالمختبرات والمعامل التعليمية ووسائل الإيضاح المختلفة؛ مما يساعد على تكوين الشخصية العلمية الرصينة. وقد آن الأوان لأن يقوم أصحاب الأموال في عالمنا الإسلامي بواجبهم تجاه المؤسسات التعليمية، ليساعدوا أبناء المسلمين على الحصول على تعليم جيد. ولا ينبغي أن يكون أثرياء الغرب أكثر سخاءً في هذا المجال. ومن المعروف أن الأموال التي يتبرع بها الأغنياء هناك قد أسهمت إسهامًا

كبيرًا في رفع سوية المؤسسات التعليمية، وتقدم حركة البحث العلمي على نحو مذهل.

التعليم التطبيقي:

يشكل المتعلم كثيرًا من تصوراته ومفهوماته عن الوجود والأشياء من خلال الكلمات التي يسمعها من مُعلِّميه ومجتمعه. وتدل دراسات عدة على أن تلك التصورات والمفهومات تظل ناقصة ـوأحيانًا مشوهةـ بسبب قصور اللغة وبسبب إمكانية الفهم المتعدد الذي تتيحه طبيعة التركيب اللغوي، والذي يتيحه خصب الخيال لدى كل إنسان وكل طالب. إن المُعلِّم يطلق تعميمات، ويقرر قواعد، ويشرح تصورات، يشعر المتعلم معها أنه محتاج إلى الدلائل والبراهين التي تثبت صحتها وتجعله يتأكد أنه فهمها على الوجه الصحيح. ولا يستطيع أن يحصل على ذلك إلا من خلال المعايشة الحقيقية للأنشطة، والممارسات التي تتجسد فيها تلك المفهومات والتصورات.

وربما كان من العيوب الكبرى التي يشكو منها التعليم في العالم النامي أنه يفتقر افتقارًا شديدًا إلى التطبيق العملي، مما يجعل بالتالي كفاءته محدودة وثمراته قليلة. وقد دلت التجربة على أن الواحد منا مهما قرأ عن جغرافية مدينة وتاريخها وأخلاق أهلها؛ فإنه لن يحصل على الصورة التي تحكي واقعها على نحو دقيق. إن التجوال في شوارعها والتحدث إلى أهلها وزيارة متاحفها... هو الذي يوقفه على الصورة الصادقة، ويدله على نقص المعلومات التي كانت لديه عن تلك المدينة.

الممارسة العملية خلال التعليم لا تساعد على توضيح الصورة وصقل المهارة فحسب، ولكنها تخفف من حدة الملل والسأم ـوأحيانًا الإحباطـ الذي يتولد

من الاقتصار على التعليم النظري والسرد المتتابع للمفهومات والمعلومات التجريدية.

إذا كان الطلاب يدرسون ـمثلاًـ مادة تشتمل على موضوعات في اتخاذ القرارات وحل المشكلات؛ فإن فوائد عظيمة تعود عليهم في حالة ذهابهم إلى مؤسسة أو شركة، وسماعهم من القائمين عليها شرحًا عن طبيعة المشكلات التي تواجههم. وبعد الحصول على المعلومات التي يحتاجها الطلاب؛ يقومون بتقديم المقترحات والحلول التي يمكن أن تفيد في التخفيف من وطأة تلك المشكلات.

وإذا كان الطلاب يدرسون مادة في التسويق؛ فإن من المهم جدًّا أن يذهبوا مرات عدة إلى بعض محلات بيع التجزئة ليروا عن كثب كيف يمارس البائعون فنون البيع، وكيف يتعاملون مع مطالب الزبائن والعملاء، وليتداولوا بعد ذلك في أشكال الخلل الذي يحدث أثناء عمليات البيع، وفي كيفية معالجته.

وإذا كان الطلاب يدرسون مادة في الزراعة، فإن من المهم توفير فرصة لهم لزيارة بعض المزارع؛ ليشاهدوا على الطبيعة عمليات الزرع والحصاد والري، وليستمعوا إلى المشكلات التي تواجه المزارعين في أعمالهم. وقل مثل هذا في قيام الطلاب بزيارة المحاكم والدوائر الحكومية، ليتعرفوا على كيفية تسيير الحياة اليومية من قبل موظفي الدولة، وكيفية تطبيق العدالة وحماية حقوق الناس. ويجب في كل الحالات السابقة أن يُتاح للطلاب الوقت الكافي للمناقشة، والحوار، وإبداء الملاحظات، واستخلاص النتائج؛ وإلا فمن الممكن أن تتحول تلك الجولات إلى أنشطة للتسلية وهدر الأوقات؛ كما يحدث في كثير من الأحيان.

إن كثيرين منا يملكون مهارات عالية في تشقيق الكلام وطرح النظريات، لكننا ـمع الأسفـ لا نملك إلا القليل من الأعمال المنظمة تنظيمًا جيدًا، وإلا

القليل من المهارات والخبرات العملية. ويجب أن ننهي هذه الحالة من خلال البدء في تغيير أسلوب التعليم.

السرد القصصي:

التاريخ سفر مملوء بالعبر والعظات، ومملوء بتجليات سنن الله -تعالى- في خلقه. ونحن في حاجة إلى الاستفادة من تلك العبر، كما أننا في حاجة إلى معرفة تلك السنن. وقد احتل ذكر أخبار الأمم الغابرة مساحة واسعة من القرآن الكريم، وذلك للآثار العظيمة التي تتركها القصة في تشكيل مفهومات الناس ومشاعرهم. وقد قال الله -جل وعلا-: {**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**} [**الأعراف**: 176]، وقال -سبحانه-: {**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** } [**يوسف**: 111] ويبدو أن للقصة أثرًا موحدًا في الحضارات ووقعًا متجانسًا في توجيه الفكر البشري، فهي من جهة مرآة مدهشة تعكس كل أنماط السلوك البشري في المواقف المختلفة، كما تعكس كل الطرق التي استخدمها الناس في التغلب على صعوبات الحياة. وهي من جهة أخرى مؤشر نتعرف من خلاله على شروط الحياة المرغوبة، وصفات الحياة المكروهة، أو قل: إننا نتعرف من خلالها على موقعنا في التاريخ الإنساني.

نحن عن طريق القصة نُوجِد أجواءً صناعية نضع فيها الطلاب، فيختبرون حياة لم يعيشوها، ويدركون بهجة الآمال، وآلام الخيبة اللاذعة، دون بذل أي جهد أو دفع أي ثمن.

المُعلِّم البارع يستطيع من خلال مهارات السرد القصصي أن يثير الحيوية في أحداث بعيدة عن أذهان الطلاب في زمانها ومكانها، فتتحول من أخبار جامدة لا تعنيهم إلى أدوات لزرع الأفكار فيهم، وإثارة المشاعر والأحاسيس النبيلة. كما يجعل منها أدوات لنقد الصور السيئة في حياتنا.

هذه قصة تحكي مأساة أمة دمرها الاستبداد والطغيان. وهذه قصة تحكي مأساة شاب من أسرة جيدة وقع في شباك قرناء السوء. وهذه قصة تحكي نجاح جماعة على الرغم من الظروف القاسية التي تحيط بها...

إن القصة تتيح للطلاب إمكانات الفهم المتعدد، وتترك أمامهم المجال واسعًا للاستنتاج والاستخلاص، ولذا فإن على المُعلِّم أن يسعى ـبعد الانتهاء من سرد القصة التي لديهـ إلى السماع من طلابه عن الانطباعات التي تركتها تلك القصة في نفوسهم، وعن المفهومات التي استخلصوها منها.

وبعد ذلك يتداول معهم الأنماط السلوكية الخيرة والسيئة التي تشابه النمط الذي عبّرت عنه القصة. وبعد هذا وذاك؛ فإن القصة تخفف من ثقل إلقاء المعلومات المركزة في الفصل، كما أنها تغمس الطلاب في لجة من المشاعر الإنسانية. وهذا مطلوب بقوة اليوم حيث يعاني كثير من الناس من العزلة والاغتراب.

تخفيف الضغوط:

يبدو جليًّا أن في نفوس كثير من الطلاب درجة من المقاومة للتعليم، ولما يقوله الأساتذة. ولا أدري لماذا يحدث ذلك: هل هو تعبير عن رفض الطلاب لسلطة المدرس؟ أو هو نوع من الرفض المقنَّع للاعتراف بالجهل الذي يرسخه موقف الطالب من المُعلِّم؟ وعلى كل حال فإن ساحة التدريس تظل مشحونة بالانفعال والتوتر والتوجس. وسيكون على المُعلِّم أن يسعى إلى تخفيض ذلك التوتر على مقدار ما يستطيع.

ولعلي هنا ألمس بعض ما يساعد في ذلك على النحو الآتي:

أ- هناك دراسات عديدة وتجارب كثيرة مرَّ بها معظم المدرسين؛ تدل على أن إضفاء جو الدعابة والمرح والطرفة على الجو التعليمي- يعود بآثار إيجابية جدًّا على أمزجة الطلاب، وعلى قابليتهم للتعلم وحبهم للمدرسة والدراسة. الطُرفة تُحْدِثُ في نفوس الطلاب شيئًا من التفريج عن الكروب العصبية والنفسية التي يشعر بها الطالب، ومن ثم فإن استعداده للتجاوب مع مُعلِّمه يصبح أكبر. ولو أنك تأملت في عيون الطلاب وهي تتلاقى مع بعضها، ومع عيني المُعلِّم أثناء ذروة الضحك الذي تحدثه الدعابة أو الطرفة؛ لوجدت أنها تعبر عن فيض من مشاعر العرفان، ومشاعر الزهو والثقة والتفوق والانفتاح والألفة والعفوية. وكأن الطرفة تحوِّل كل من في قاعة الدرس إلى عناصر كيميائية جمعتها خلطة واحدة، فأخذت تتفاعل على نحو مدهش وعجيب.

حين يضحك الطلاب مع مُعلِّمهم يشعرون بزوال الفوارق الاجتماعية، ويغرقون في مشاعر الزمالة والمساواة؛ وهذا يخفف من خوف الطلاب من استخدام المُعلِّم لسلطته عليهم على نحو غير عادل. كما أن في الدعابة والمرح ما يخفف من اتجاهات الغلو والعنصرية التي يمكن أن تسود في بعض الأوساط التعليمية. بالإضافة إلى كل ما سبق فإن الطرفة يمكن أن تستخدم وسيلة لتحبيب الطلاب بالمواظبة على التعلم، كما أنها قد تستخدم أداة لتثبيت المعلومات لديهم أيضًا. يقول أحد المُعلِّمين: إنه حين كان طالبًا لم يكن ماهرًا في قواعد اللغة العربية، وظل حتى السنة الثانية من المرحلة الثانوية جاهلاً بشيء اسمه الفاعل والمفعول به، والعامل والمعمول، وحذف الفعل... يقول: وذات يوم أورد مدرس اللغة العربية قصة طريفة في سياق شرحه لحذف الفعل، (قال: مرّ أبو جعفر البرتي بسائل على جسر بغداد، فسمعه يقول: مسكينًا ضريرًا! فدفع إليه أبو جعفر بدرهم كان في جيبه، وسأله: لم نصبت مسكينًا ضريرًا؟ فقال السائل: فديتك! نُصبت بإضمار: ارحموا). يقول المُعلِّم: شعرتُ وأنا أضحك من قول

السائل وتعليق أستاذنا عليه ـ كأن حجابًا زال عن بصيرتي، وصرت أنتظر حصة القواعد انتظارًا لعلي أظفر بطرفة كالتي سمعتها.

ب ـ مما يساعد في تخفيف التوتر والضغوط في الحياة التعليمية: إتاحة البدائل وفرص الاختيار أمام الطلاب، وذلك في مسائل أوقات الدوام، والاختبارات، والواجبات المنزلية، وأماكن الدراسة، وتنظيم المقاعد فيها، وبعض المواد والمقررات الدراسية. إن إتاحة فرصة للاختيار تساعد الطالب على تحقيق ذاته، وتُشْعره باحترام مُعلِّميه لرغباته وتقديرهم له. وهذا يخفف من مخاوفه من أن تُفرَض عليه أمور لا تناسبه، أو لا يستطيع القيام بها.

ج ـ نوعية اللغة السائدة في المدرسة بين المُعلِّمين وطلابهم وبين الطلاب بعضهم مع بعض ـ ذات أثر مهم في إشاعة الهدوء والأمان والاستبشار، فاللغة المهذبة الخالية من الاستهزاء والتهديد تشيع السمو والطمأنينة في نفوس الطلاب. وهم بحاجة ماسّة إلى أن يكون للمدرسة دور في حمايتهم من إيذاء بعضهم لبعض، فالتنابز بالألقاب والاستخفاف ببعض الطلاب لبعض الاعتبارات، والاعتداء على بعضهم بالضرب وغيره؛ من الأمور الشائعة جدًّا في المدارس. وهذه الأمور لا تُشيع المخاوف في نفوس الطلاب فحسب، بل قد تتسبب في ترك بعضهم للدراسة أو تأخره فيها. وحين يستمع مُعلِّم لهموم طالب من طلابه، ويسدي إليه النصح المطلوب؛ فإنه يقوم بعمل عظيم على طريق الأخذ بيده ومساعدته على مواجهة مشكلاته. ويتلقى الطلاب بالبِشْر وبكثير من التقدير ما يسمعونه من أساتذهم من كلمات الثناء والتشجيع.

إن لحديث المُعلِّم مع طلابه في غير أمور الدراسة نكهة متميزة؛ حيث يشعر الطالب برعاية أستاذه له، واهتمامه بشأنه الخاص.

د ـ مما يشعر الطالب بالأمان في حياته المدرسية والجامعية التزام المُعلِّمين والأساتذة بالمبادئ والأخلاق الإسلامية؛ حيث يتوقع الرفق والعدل والالتزام بالنظم السارية، وتقدير ظروفه الطارئة والخاصة. وهذا كله يجعله لا يخشى من وقع المفاجآت والمنغصات من بعض أساتذته.

هــ ـ تعليم الطلاب الأمور التي تساعدهم على خفض الضغوط النفسية، مثل اللعب، والاسترخاء، والرياضة، والمشي، والاتصال بالأصدقاء الأخيار، وبث الشكوى لمُعلِّم أو قريب أو زميل.. وما شابه ذلك.

إن كل هذه الأمور تحسِّن البيئة التعليمية، وتجعل إنتاجية المُعلِّمين أفضل على صعيدي التربية والتعليم.

التهديد واستخدام السلطة:

ستظل مهنة التدريس مشوبة بالإحراج، فالمُعلِّم مهما بلغ من الحلم، ومهما ملك من سعة الصدر، يجد نفسه حائرًا في التعامل مع بعض الطلاب. وكم من مُعلِّم استنفد كل إمكاناته وأساليبه في جعل الطالب يقوم بكتابة واجباته أو ينتظم في حضور الدروس، أو يهدأ في الفصل... ولكن دون جدوى، وآنذاك فإن كثيرًا من المُعلِّمين يجدون أنفسهم مضطرين إلى استخدام سلطاتهم في حمل الطالب على عمل ما يعتقدون أنه الصواب. وبعضهم يتجاوز تلك السلطات إلى الضرب والتهديد والاستهزاء. وقد سُجِّلت في اليابان حالات عديدة مات فيها طلاب أثناء عملية تأديب مُعلِّميهم لهم!!

وقد دار جدل طويل عريض بين التربويين حول إمكانية ممارسة العقاب الجسدي بين الطلاب الكسالى أو المشاغبين. ولا أرغب أن أزج بنفسي في ذلك الجدل؛ ولكن لا بد من القول: إن ضرب المُعلِّم للطالب ينافي جوهر العلاقة التي ينبغي أن تقوم بينهما. وهي علاقة حب واحترام وتقدير وامتزاج روحي، وإن

الأصل أن يمتلك المُعلِّم القدرة المهنية التي تمكنه من تقويم اعوجاج الطلاب، وحملهم على القيام بواجباتهم دون اللجوء إلى الضرب أو التهديد بعقوبة جسدية قاسية.

وعلينا أن نعتبر كثرة لجوء المُعلِّم إلى هذه الأمور دليلاً على نقص في كفاءته المهنية، ونقص في قدرته على إدارته للمشكلات والمعضلات، بل دليلاً على ضعف عام في شخصيته. وعلينا مرة أخرى أن نحكم على المُعلِّم الذي يعجز عن تصحيح مسار طلابه من غير اللجوء إلى الضرب أو الضغط النفسي بأنه قد قطع الطريق على إمكانية قيام علاقة حميمة بينه وبين كثير من طلابه، وأنه بسبب ذلك فقد الكثير من فاعلية أدائه التعليمي. وللمُعلِّم إذا سلَّم بهذه السلسلة من المقولات والإحالات أن يتولى الحكم على نفسه بما يراه مناسبًا.

إن الضغوط النفسية التي يولدها الضرب، والتهديد، والسخرية، والنبز بالألقاب ـ تترك في عقل الطالب ونفسه آثارًا سيئة قد تدمر حياته التعليمية كلها، وقد تترك في شخصيته ندباً يصعب عليه التخلص منها إلا بعد سنوات كثيرة. وتدل بعض الدراسات على أن التفكير والتذكر يتأثران على نحو سلبي بالضغوط النفسية. كما تفيد دراسات أخرى أن الطالب الذي تتوالى عليه الضغوط النفسية يجد نفسه غير قادر على تحديد أولوياته على نحو جيد. كما أنه يميل إلى العنف واللجوء إلى القوة والتربص بالخصوم، بالإضافة إلى أنه يجد صعوبة في الإصغاء إلى الآخرين. وتشير إحدى الدراسات إلى أن الطالب الذي يُمارس ضده التهديد باستمرار يصبح أكثر ميلاً للحفظ بدل التحليل والنقد، وهكذا فإن إنتاجيته تنخفض ونوعيتها تتغير. والأهم من كل هذا أننا من خلال الضغط النفسي قد نغير من رؤية الطالب لذاته، فينظر إليها على أنها ذاتٌ منحطة مُخْفِقة متخلفة، وأنه لا أمل في إصلاحها... وبذلك يكون الطالب قد وقع ضحية فيما يشبه العاهة الدائمة!!

ثلاثة تـ يات أساسية

الحديث عن التحديات يعني الحديث عن التقدم. والرضا بالواقع وتجاهل الصعوبات يعني شيئًا يقترب من الموت. وعلى مدار التاريخ كانت الأمم تتخذ من الحديث عن الصعوبات والعقوبات أداة للتحريض على تحسين الأحوال ودفع الأمور في اتجاه الأفضل. ولو أننا عدنا قرونًا إلى الوراء، وجُلْنا العالم بطوله وعرضه؛ لما رأينا أهل أي زمان راضين عن زمانهم؛ فتطلعات الإنسان دائمًا تتجاوز إمكاناته، ولا يحدث شيء من الشعور بالرضا إلا حين تقارن أمة من الأمم أحوالها في جانب من جوانبها بأحوال أمة أو أمم أخرى؛ ولذا فالشعور بالرضا هو دائمًا نسبي.

وإذا أردنا تفصيل القول في كل المشكلات التي تعاني منها التربية في البيوت والمدارس فربما احتجنا إلى مجلد أو مجلدات، وقد كُتب -فعلاً- الكثير، وما زلنا بحاجة إلى الكثير. ولذا فإنني أوثر هنا أن أتحدث عن بعض التحديات الأساسية التي ينطوي كل واحد منها على تشعيبات وتفصيلات كثيرة، لا أريد الخوض في غمارها. ولعلي أجمل القول في ثلاثة من تلك التحديات تحت العناوين الفرعية الآتية:

حضارة غير مواتية:

ليست أمة الإسلام هي التي تصنع الحضارة اليوم، وليست هي التي تصوغ لأمم الأرض شروط العيش الكريم، ولا معايير التقدم والارتقاء. إنها مشغولة بمشكلاتها الخاصة، ومرتبكة في التعامل مع الوافدات الأجنبية التي تفد إليها من كل مكان. وهذا يعني أن جزءًا من مشكلات التربية والتعليم يعود إلى أن الفضاء الحضاري الذي يكتنف كل أنشطتنا التربوية؛ هو فضاء غير ملائم وغير منسجم مع جوهر الرسالة التربوية التي نقوم بإيصالها إلى الأجيال الجديدة. لو أن

مؤسسة كبيرة خططت لإنتاج ثقافة مدمرة ومفسدة لتربية الطفل المعاصر؛ لما استطاعت أن تفعل أسوأ مما فعلته الحضارة الغربية، فهي بنزعتها العلمانية الإلحادية تدفع الناس نحو فقد أي شيء ثابت يمكن أن يستندوا إليه في الشدائد، أو يستلهموه، ويسترشدوا به في الرخاء.

وهي إلى جانب هذا تشيع ثقافة تساوي على نحو متزايد بين الثروة المادية والقيمة الشخصية، فالذي لا يملك شيئًا لا يساوي شيئًا، والذي يملك الكثير يساوي الكثير! وبما أن الوظيفة تحتاج إلى شهادة، والشهادة تحتاج إلى نجاح، فقد حل السعي لدى طلاب الثانويات والجامعات إلى الحصول على النجاح محل الاهتمام الأصيل بالعلم؛ مما أدى إلى صبغ النشاط العلمي بالصبغة التجارية في كثير من الأحيان، وصار كثير من الطلاب لا يبذل في سبيل العلم إلا على مقدار ما يؤمِّن له النجاح! وتفريعًا على هذه النظرة المادية صار كثير من الشباب يعتقد أن (السعادة) شيء يمكن الحصول عليه من خلال المال، وهذا دفع كثيرًا من الشباب إلى إدمان المخدرات، كما دفع قسمًا آخر منهم إلى الاهتمام المنقطع النظير بالمظهر والشكل، ومحاولة الظهور بالانتماء إلى شريحة أعلى من الشريحة الاجتماعية الحقيقية التي ينتمي إليها. إن مضمون الرسالة التي يتلقاها الشباب اليوم يقول: اسرح وامرح واضحك واستمتع ما استطعت ولا تأبه كثيرًا للعواقب!

وكان كل ذلك على حساب الرؤية الإسلامية التي تنظر إلى السعادة على أنها شيء يتفجر في داخل الإنسان نتيجة انسجام سلوكه مع معتقده، ونتيجة تحرره من ربقة المادة واستعباد الشهوات.

إن الغرب ينشر ثقافة إباحية جعلت كل شيء مكشوفًا أمام الأطفال، وصار الفتيان والفتيات يفقدون براءة الطفولة في وقت مبكر جدًّا؛ مما جعلهم

يعيشون تحت وطأة مشاعر جنسية ليسوا مؤهلين للتعامل معها والسيطرة عليها. أما الأفلام والروايات (البوليسية) فإنها تُدخل الأطفال في وقت مبكر في عالم الجريمة والعنف، وتجعلهم يعتادون على مشاهدة حوادث القتل والسطو والاغتصاب. وصار كثير منهم يقلد ما يراه ويمارسه، بل يطوره. وحين استدبر الغرب (الوحي) وقطع صلته بجوهر رسالات السماء سيطرت عليه روح العدمية واليأس، وصار كثير من أبنائه يشعر بانسداد الآفاق وباليتم الروحي. ومع كثرة المحاولات التي بذلت لإشاعة روح التفاؤل إلا أن الناس هناك تشربوا روح (نيتشه)، وصاروا يرون كثيرًا من الأشياء مجردًا من أي معنى. وباتت الأجيال الجديدة في الغرب تبحث عن أهداف كبيرة تسوِّغ كل هذا النشاط المحموم الذي عليهم أن يقوموا به. وهذه الأوبئة بدأت تتسلل إلى أذهان جيلنا الجديد!

التغيرات السريعة التي تجتاح الحياة في كل مجالاتها ومستوياتها جعلت كثيرًا من الشباب يقومون بمحاولات دفاعية ضدها، وأهم تلك المحاولات التهكم والاستهزاء والاستخفاف بكثير من الأشياء التي كانت تحترمها الأجيال السابقة. إن الرجل المتهكم يسخر من جميع المثل العليا والأهداف السامية. وهو في طريقه إلى أن يفقد إيمانه بكل شيء حتى ثقته بنفسه؛ وذلك يعني الصيرورة إلى التلاشي الكامل! وترتب على موقف الاستخفاف ذاك عدم الشعور بالمسؤولية تجاه كل الأخطاء والجرائم التي يرتكبها؛ وما ذاك إلا لأنه لم يعد يرى أي شكل من أشكال الخير أو الفضيلة في نفسه أو لدى الآخرين. هذا كله ناتج من أن التغيرات السريعة أخذت تجرد الناشئة من القيم القديمة؛ في الوقت الذي لم يتوفر لديهم أي معين لاكتساب قيم حديثة؛ يتم على أساسها تصريف شؤون الحياة من جديد. ومن وجه آخر فإن التغيرات السريعة غرست في أعماق الناشئة مفهومات التقادم والزوال؛ إذ ما دام كل شيء يتبدل ويختفي ويزول ـوصناعة

الحاسوب تقدم نموذجًا على ذلك ـ فما معنى الإصرار على المحافظة على القيم والمبادئ القديمة؟!

إن المرء من دون قيم يسعى إلى تحقيقها في حياته تلفه مشاعر الاغتراب وهو يعيش في وطنه وبين أهله؛ حيث تتحول الأشياء التي ينتجها الإنسان كي تكون في خدمته إلى أشياء تتحداه، وتهدد وجوده. بل إن (أريك فروم) يرى أن عطاءات الإنسان تتحول في حالة الاغتراب إلى أصنام يعبدها، وإلى أوثان يسجد لها؛ فالوثنية في نظره تشكل جوهر الاغتراب.

إن كل ذلك يحدث بسبب الاستثمار المكثف في التقنية، وبسبب الإعراض عن الاستثمار في المجالات الأخلاقية والاجتماعية. وما دامت الشركات الكبرى التي لا تعرف سوى جني المزيد من الأرباح ـ قد تولت توجيه الاهتمامات الثقافية والإعلامية؛ فإن الأمل في تغيير حاسم سيظل ضعيفًا!

هذه الوضعية المخيفة تشكل البيئة الثقافية والحضارية التي يحيا فيها الإنسان في الدول الصناعية الكبرى. وقد أخذت رياح الغرب تعصف بخيامنا، وتسمم جذور الحياة الفردية والاجتماعية في العالم الإسلامي. وصار على البيوت والمدارس أن تتجاوز مسألة تلقين الأجيال الجديدة القيم والمبادئ الإسلامية؛ إلى إقناعهم بها وإزالة الشُّبه والالتباسات التي تثار حولها؛ أي أن المشكلة تتحول تدريجيًّا من أن تكون تربوية إلى أن تصبح فكرية معرفية؛ يتجسد فيها نوع من الصراع بين الناشئة وذويهم. وهذا يشكل تحديًا يصعب التغلب عليه في كل حين!

إذا تجاوزنا التحديات الوافدة التي تعرقل الأعمال التربوية إلى النظر في مشكلاتنا الداخلية، وجدنا أننا نعاني من قصور في المفهومات، وضعف في

الإمكانات في الكثير من مجالات الحياة. ولنقتصر هنا على مجالين مهمين منها؛ هما المجال العلمي المعرفي، والمجال الاقتصادي المعيشي.

أما في المجال الأول وهو المجال العلمي المعرفي:

فإن الوضع العام الذي تعيشه معظم الدول الإسلامية؛ لا يشجع ولا يساعد الآباء والمربين على تكوين جيل يقدِّر العلم، ويتخذ منه وسيلته الأولى في التقدم والغلبة الحضارية. بالإضافة إلى ما ذكرناه قبل[1] من عدم وجود رغبة حقيقية في طلب العلم لدى معظم الشباب، وعدم وجود تقاليد ثقافية تعلي من شأن المعرفة، وهناك ظروف ومعطيات صعبة تعرقل انطلاقة المربين الواعين والغيورين.

- فمتوسط الأمية في العالم الإسلامي يزيد على40 ٪، ومتوسط القراءة للفرد في الوطن العربي هو ست دقائق في اليوم، وهذا يشكل سدس الوقت الذي ينفقه الإنسان في الغرب من أجل القراءة.
- وفي حين يصدر لكل (15) ألف مواطن في الدول المتقدمة كتاب سنويًا؛ يصدر لكل ربع مليون مواطن عربي كتاب.
- وتنفق الدول العربية على تعليم الفرد ما متوسطه (200) دولار سنويًا؛ وتنفق الدول الصناعية على تعليمه (6500) دولار، وينفق اليهود في فلسطين المحتلة (5000) دولار.
- وتنفق الدول العربية على البحث العلمي (2) بالألف من الناتج المحلي؛ أي سُبع المتوسط العالمي الذي يفترض أن يكون 1.4 ٪ في حين يتجاوز اليهود في فلسطين المتوسط العالمي، فيصل إنفاقهم إلى 2 ٪، أي

---

(1) انظر ما قلناه تحت عنوان (جيل يعرف).

عشرة أمثال ما تنفقه الدول العربية.

- وتخصص الجامعات العربية ما متوسطه 1 ٪ فقط من ميزانياها للبحث العلمي؛ في حين أن الجامعات الأمريكية تنفق عليه نحوًا من 40 ٪ من ميزانياها.
- وقد ذَكَرتْ إحدى الدراسات أن ما تنشره جامعة (هارفارد) من بحوث سنويًّا يعادل ما تنشره الجامعات العربية مجتمعة.
- ونتيجة لهذا فإن الدول الصناعية تتحكم بحوالي 97 ٪ من براءات الاختراع التي تسجل سنويًّا.
- وقد سجل اليهود في فلسطين المحتلة عام 1998م لدى مكتب العلاقات التجارية الأمريكي (557) براءة اختراع؛ في حين سجل العرب (24) براءة اختراع فقط!!
- وقد انعكس كل هذا على نوعية قوة العمل العربية؛ حيث لا تزيد نسبة الحاصلين على شهادات جامعية في قوة العمل العربية على 6 ٪؛ في حين أنها في دول النمور الآسيوية نحو من 14 ٪. وتصل في فلسطين لدى اليهود إلى 20 ٪.
- هذه الظروف مجتمعة أدت إلى أن يكون الوضع المعرفي والتربوي هزيلاً إذا ما قيس بما لدى الأمم الأخرى.

المجال الثاني هو المجال الاقتصادي المعيشي:

والوضع في هذا المجال كذلك لا يسر؛ إذ إننا نعاني من أمرين خطيرين:

أولهما: أن الوضع المعيشي لأكثر المسلمين آخذ في التدهور.

وثانيهما: ازدياد الفوارق بين الفقراء والأغنياء؛ حيث إن الشريحة الوسطى التي ينبغي أن تشكل قاعدة المجتمع العريضة تتضاءل على نحو مستمر لصالح طبقة قليلة، ولكنها غنية جدًّا، وطبقة واسعة فقيرة جدًّا!

وهذه بعض الأرقام الحديثة التي تشير إلى ذلك:

- يذكر تقرير التنمية البشرية لعام 2000م أنه يوجد في الوطن العربي ما بين (90) إلى (100) مليون فقير؛ أي نحو من 37 ٪ من مجموع العرب. ومن هؤلاء (73) مليونًا على الأقل هم تحت خط الفقر.
- أما نسبة الأغنياء إلى الفقراء، فتعكسها الأرقام التالية: 9.8 ٪ إلى 39 ٪ في مصر. و 6.6 ٪ إلى 46.3 ٪ في المغرب. و 7.6 ٪ إلى 44.4 ٪ في الأردن. وفي حين يتجاوز دخل الفرد في الكويت والإمارات المتحدة عشرين ألف دولار سنويًّا؛ فإنه لا يزيد على (290) دولارًا في كل من السودان واليمن!
- إن عائدات دول منظمة (أوبك) مجتمعة في عام 1998م لا تصل إلى 3 ٪ من الناتج المحلي في أمريكا. وإن ثمن حاسب آلي يعادل دخل مواطن في بنغلادش لمدة ثماني سنوات؛ لكنه يعادل دخل مواطن أمريكي مدة شهر واحد! يمثل اليهود في فلسطين المحتلة 2 ٪ من سكان منطقة الشرق الأوسط إلا أن حصة صادراتهم في عام 1995م بلغت 18 ٪ من مجمل صادرات المنطقة.

ولا أريد أن أسترسل أكثر فأكثر في هذا الشأن خشية مزيد من اليأس والإحباط.

هذه الوضعية الصعبة جعلت الهم الأكبر لدى كثير من المسلمين ليس أن يعلموا أبناءهم تعليمًا جيدًا، ولكن أن يوفروا لهم المسكن والمأكل والملبس.

وحين يكون على المرء أن يختار بين شراء كتاب وجرعة دواء؛ فإنه سيختار قطعًا جرعة الدواء. وحين يُخَيَّر مدير مدرسة بين أن يجهز مدرسته بمعمل وبين أن يؤمِّن مقاعد لطلابها؛ فإنه سيختار قطعًا شراء المقاعد. وهكذا فقد اجتمع علينا عدوَّان لدودان:

أولهما: قصور في فهمنا لتحديات العصر وواجباته وفرصه، بالإضافة إلى عدم الاهتمام بالعلم وعدم إدراك قيمته الحقيقية.

وثانيهما: هو عدم وجود الإمكانات المطلوبة -في كثير من الأحيان- لتوفير وسائل التعليم الجيد!!

وسائل تثقيف منافسة:

كان الناس في البيوت يربون في بيئة محدودة شبه مغلقة. وكان الطفل ينشأ وأمامه نماذج وشواهد محلية أو تاريخية منتزعة من الحضارة الإسلامية. وكانت المدرسة تمارس التربية والتعليم دون أي منافسة تذكر من أي جهة؛ فما تقدمه دائمًا مقبول، أو هو أحسن ما يمكن الحصول عليه. إنها كانت أشبه بـــ (بقالة) وحيدة في قرية صغيرة وليس أمام الناس سوى الشراء منها، وليس في أذهانهم آفاق واسعة لتطويرها، ولا بين أيديهم إمكانات لتجاوزها. وفجأة وإذا بعشرة أسواق (سوبر ماركت) تنتشر في أنحاء القرية، وفي كل سوق أشكال عدة من كل صنف تعرضه البقالة المتواضعة. وقد حار صاحب البقالة في أمره، فهو لا يعرف الأسباب التي جعلت عملاءه التاريخيين ينفضون عنه، كما لا يعرف بالتالي كيف يستعيدهم! هذا ما تواجهه المدرسة اليوم في عالمنا الإسلامي، بل في معظم أنحاء العالم.

ولعلي أوجز هنا مشكلة المدرسة مع وسائل الإعلام في النقاط الآتية:

1ـ هناك خلاف جذري بين طبيعة المدرسة وأهدافها والنظم والتقاليد التي تسيّرها... وبين طبيعة وسائل الإعلام والهواجس التي تسيطر عليها. المدارس في أنحاء العالم أنشئت لتقدم خدمة مجانية للأطفال والفتيان؛ ولذا فإن هاجس الربح لا يسيطر عليها (لا ينطبق هذا بالطبع على المدارس الخاصة)، وهذا يجعلها لا تعبأ كثيرًا باستهواء الطلاب وتلبية رغباتهم. أما وسائل الإعلام التي باتت تجذب الطلاب أكثر فأكثر فإنها ـفي معظمهاـ تابعة لمؤسسات ربحية، وهي ذات تكاليف عالية جدًا، وتحقيقها للربح متوقف على شيء واحد، هو جذب المشاهد والمحافظة عليه بغية اجتذاب الإعلان التجاري الذي يُعد المصدر الأكثر أهمية لدخلها. وهذا وحده كاف لجعلها تتحسس نبض الجمهور وميوله، وتعمل على الانسجام معها، وإن انطوى ذلك على بعض التجاوزات الأخلاقية أو أدى إلى تضييع أوقات الناس فيما لا ينفع. وهذا في أحسن الأحوال؛ حيث إن من وسائل الإعلام ما يخضع لإدارة فاسدة مفسدة ذات أغراض دنيئة.

2ـ تظل المدارس ألصق بالبيئة المحلية، وتظل أقرب إلى الاهتمام بالانسجام مع اهتمامات الأسر في البيوت وتوجهاتها. ويعتقد القائمون عليها أن عليهم أن يكمّلوا دور الأسرة، وأن يرسخوا عين القيم التي تقوم بترسيخها، في حين أن الفضائيات التي تستحوذ الآن على معظم الجمهور يشاهدها المسلم وغير المسلم والصغير والكبير والعالم والجاهل... ولذا فإنه يمكن القول: إنها لا ترتبط بأي بيئة، ولا تعكس قيم أي مجتمع إسلامي على نحو كامل، كما لا تعكس سياسة أي دولة على نحو محدد. وهذا يجعل منها عنصرًا مشوِّشًا على طبيعة العمل الذي تقوم به الأسر والمدارس معًا.

3ـ تنطلق المدارس في كل دولة لتعمل على أساس نظام تربوي واحد، كما أنها ـغالباًـ تدرِّس مناهج موحدة، وتقدم رسالتها وفق أنشطة مبرمجة، كما أنها تعتمد في نجاحها على الجهد الشخصي الذي يبذله الطالب في المذاكرة وحل الواجبات؛ ولذا فإنها تظل في نظر الطالب تشكل مصدرًا للإزعاج، وتقييد الحرية، وتحميل الأعباء، وتوجيه الأوامر، وفرض دراسة مقررات لا تنسجم مع مزاج الطالب دائمًا. وليست وسائل الإعلام كذلك، فهي تملك مرونة كبيرة في إعداد برامجها واختيار المادة التي تقدمها. وهي من خلال تواصلها مع الجمهور تستطيع اكتشاف ما يستهويه، فتعمل على تقديمه دون أن تكلفه أي جهد في متابعته. وهي في الوقت نفسه تثير مشاعر اللذة والمتعة لديه.

وإن مئات الفضائيات ـوالتي تتكاثر على نحو سرطانيـ قد أتاحت خيارات هائلة، ووفرت مواد ترضي كل الأمزجة والأذواق، وتستجيب لكل الاهتمامات؛ ولذا فإن في إمكانها أن تبتلع من أوقات الشباب ساعات طويلة كل يوم. وقد صار في إمكان الإعلام الفضائي من وجه آخر ألا يكترث كثيرًا بثقافة الجمهور؛ لأن الإمكانات الهائلة التي يملكها للوصول إلى كل بيت تساعده على أن يصنع ثقافة الناس، ويطور الذائقة الأدبية والفنية لديهم وفق رؤى القائمين عليه ووفق مصالحهم.

4ـ مما يزيد في التحديات التي تواجهها المدارس في منافسة وسائل الإعلام لها: أن المدارس تهتم بالتاريخ لتتخذ منه وسيلة تربوية، وتهتم بالمستقبل لإعداد الأبناء لخوض غماره؛ ولذا فإنها تبدو شبه معزولة عما يجري في الوقت الحاضر، مع أن الحضارة الغربية المهيمنة تنشر ثقافة (الآنية) والاهتمام الشديد بالواقع.

ووسائل الإعلام المختلفة تتجلى دائمًا في الحاضر دون أن تعبأ بالأمس أو الغد إلا بمقدار ما يرتبط بما يجري الآن. وهذه الوضعية جعلت المدارس تبدو

مثالية أو تقليدية أو متبلدة الإحساس، كما جعلت وسائل الإعلام تبدو كأنها بطل الساعة الذي يتحرك في كل اتجاه ليلبي حاجات الناس الملحَّة.

5ـ كانت المدرسة في يوم من الأيام كل شيء، ولم يكن لها ـتقريبًاـ أي بديل. وما زال لها أهميتها في التعليم والتوجيه، لكن كلما قفز العلم قفزة على صعيد البث والاتصال وشبكات المعلومات وأوعيتها؛ فقدت المدرسة شيئًا من وظائفها وشيئًا من بريقها؛ حيث إن (الحقيقة) في أي مادة وفي أي تخصص لم تعد ملك المُعلِّم وحده، ولم يعد أكبر المفتين فيها؛ فقد صار في إمكان الطالب أن يدخل على شبكات المعلومات ليجد حول كل قضية وفي أي منهج أضعاف أضعاف ما في كتابه المدرسي أو ما لدى مُعلِّمه. وتوفر الآن الأقراص المدمجة متعددة الوسائط تعليمًا تطبيقيًا أفضل مما تقدمه المدارس في كثير من الأحيان. ولن تستطيع المدارس مجاراة الوسائل التثقيفية الحديثة في هذا؛ لأن شبكات المعلومات ـمثلاًـ أضحت الوعاء الذي تَصَبُّ فيه خبرات ملايين العقول الفذة.

هذه التحديات لن تنهي الحاجة إلى المدارس، ولكن ستعقِّد مهمتها التربوية، وتجعل تطلعات طلابها أوسع مما يمكن أن توفره إمكاناتها المحدودة.

القصور الذاتي:

مضت سُنَّةُ الله ـجل وعلاـ في خلقه أن تكون المعاناة الأساسية للبشرية في كل شؤونها بسبب ما تصنعها أيديها، فمبدأ {**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**} [**آل عمران**: 165]، واسع التطبيق والتحقق. وكل شكل من أشكال الإصلاح يتجاهل أصحابه مسألة (القصور الذاتي) والوهن الداخلي تكون نتائجه مخيبة للآمال؛ ولذا فإننا نستطيع القول دون حرج: إن الكثير من المشكلات الجوهرية التي تعاني منها مدارسنا؛ لا ينبع من ضغوط الحضارة الغربية، ولا من منافسة وسائل الإعلام، وإنما من ارتباكها حيال نظمها ومشكلاتها الخاصة، وحيال

المتطلبات الجديدة التي أملاها عليها التطور الحضاري. القصور الذاتي للمدارس يأتي تارة من طبيعة تكوينها، وتارة من غموض أهدافها، وتارة من نوعية علاقتها بالأسر ومجالات العمل والنظم السائدة في البلد...

ولعلي أسلط الضوء على بعض هذه المسائل عبر المفردات الآتية:

1ـ تظل الجامعات والمعاهد والمدارس والعاملون فيها معرضة للجمود والتأبي على التغيير والتطوير، وهذا ملموس في كل أنحاء العالم. وعلى الرغم من كثرة البحوث التربوية حول الأسلوب التعليمي ووجوه تطويره؛ فإن في التعليم لدينا هيئات وأوضاعًا ما زالت مستمرة منذ أكثر من ألف سنة على الرغم من تغير كل شيء! وهناك كتب تراثية دُرِّست منذ أكثر من ثمانيمائة سنة، وما زالت تدرس في كثير من الجامعات على الرغم من كثرة الملاحظات الفنية عليها وعدم ملاءمة أسلوبها، ولا تستطيع الوقوف على أي سبب مقنع لذلك! وقد يُجري أحد الأقسام العلمية حوارًا مدة عشر سنوات حول إحلال كتاب مكان كتاب آخر، أو حذف مادة وإضافة مادة أخرى في المقررات، ثم لا ينتهي ذلك الحوار أو الجدل إلا إلى إبقاء كل شيء على حاله!

لا أدري ما التفسير الدقيق لذلك: هل لأن البحوث التربوية تظل حبيسة الأدراج والمكاتب؛ حيث لا يتم نشرها، ولا يستفاد ـبناء على ذلكـ منها؛ أو لأن المدارس أخذت على عاتقها نقل تراث الأمة إلى الأجيال الجديدة، فتخشى أن يؤدي التطوير إلى تضييع شيء من ذلك؛ أو لأن ارتباطها بسوق العمل ضعيف، بناءً عليه فإنها لا تستجيب لحاجاته، ومن ثم فإنها لا تجد أي داعٍ للتطوير والتغيير...؟

كل ما ذكرناه يمكن أن يسهم في جمود المؤسسات التعليمية ـعلى درجات متفاوتةـ ويمكن أن تكون هناك عوامل أخرى. ولا يخلو القطاع التعليمي

ـبالطبع ـ ممن يدرك جمود مؤسساته وممن يقترح الحلول، ولكن انعكاس خطط التطوير التربوي على واقع التعليم ضعيف، وأحيانًا لا يكاد يُلْمَس!

2ـ تعمَّقتْ في السنوات العشر الأخيرة في نفوس الفتيان والفتيات أمور كثيرة؛ معظمها سلبي، وهي في مجملها تشكل تحديات للمدرسة التي أخذت على عاتقها إعداد طلابها للحياة الطيبة التي تليق بهم.

ومن الأمور السلبية التي كادت أن تصبح سمة عامة للجيل الجديد: تراجع مستوى المعلومات والمعارف، وتراجع مستوى التشوق والحب الخالص للعلم، إلى جانب تراجع مستوى الإحساس بمعاني الفضيلة والسعي للدار الآخرة، بالإضافة إلى التلبس ببعض مزالق الانحراف ومظاهره لدى كثير من الناشئة. أضف إلى هذا أن البطالة تتفشى على نحو جوهري في صفوف خريجي المدارس الثانوية والجامعات. وقد أخفقت المدارس إخفاقًا ليس بالصغير في تمليك الطلاب رؤية عميقة ومتوازنة لطبيعة العصر الذي نعيش فيه، كما أخفقت في تمليكهم منهجًا جيدًا في البحث العلمي وفي التعامل مع المعرفة، مع أننا في زمان يعطي أهمية متزايدة للرؤية الشاملة، وللتعمق في فهم العلاقات التي تربط بين الأشياء والمجالات المختلفة.

نحن بالطبع لا ننتظر من المدارس أن تغيِّر وجه الحياة، ولا نعدّها مسؤولة عن معالجة كل المشكلات الأخلاقية والاجتماعية، لكننا نعتقد أن هذه المشكلات إذا كانت تتحدى جهات عديدة، فالمؤسسات التعليمية في طليعة تلك الجهات. القصور الذاتي هو الذي يجعل حساسية جامعاتنا ومدارسنا ضعيفة تجاه تلك التحديات، ويجعل استجابتها لها أيضًا ضعيفة. وحين يستمر مثل هذا الشأن فإن ثقة الناس بالمدارس تتراجع، ويكثر الطلاب الذين يغادرونها قبل إنهاء مراحل الدراسة الأساسية.

3- لا تستطيع دور العلم أن تؤدي وظيفتها على الوجه المرتجى، ولا تستطيع الصمود أمام المنافسة الضارية لوسائل الإعلام إذا لم تنجح في شيء مهم للغاية؛ وهو جذب الطلاب إليها، وجعلهم يشعرون بالاحترام لها، والإحساس بأهميتها في حياتهم. وحين يحصل شيء من هذا فإن الطلاب يصبحون أكثر استعدادًا للتفاعل مع المضامين التي تحملها المناهج التعليمية، وأكثر حماسة لتحقيق الأهداف التي تسعى إليها المدرسة. لكن مما يؤسف له أن معظم المدارس أخفقت في هذا الأمر؛ فالملاحظ أن حماسة الطلاب للتعليم في المرحلة الابتدائية أقوى من حماسة طلاب التعليم الثانوي، وإعجابهم بمدارسهم أشد! وذلك قد ينشأ بسبب ضعف الحوار بين الأساتذة والطلاب داخل الفصول. وقد ينشأ بسبب ضبط إيقاع الحركة داخل المدرسة أكثر مما ينبغي، وقد ينشأ بسبب ضيق المباني وانعدام أو ضعف الأنشطة اللامنهجية... وأعتقد أن مجال العمل أمام المدارس والجامعات في هذه المسألة متسع ومتاح؛ لو رغبتْ في عمل شيء لعلاج ذلك.

4- من أهم ما يتجلى فيه القصور الذاتي للمدارس هو الجانب الخلقي، فالمدرسة التي تسعى إلى تخريج جيل صالح مطالبة بما لا تطالَب به دائرة حكومية أو شركة تجارية؛ فهي تدرِّس المبادئ والأخلاق الفاضلة ضمن مناهجها. ومن الأمور المحرجة جدًّا أن يرى الطلاب في سلوك المُعلِّمين والإداريين ما يناقض -أحيانًا- ما يتم تقريره داخل حجرات الدراسة. إن هناك مدرسين لا يؤدون الفرائض، ولا يلتزمون بالخلق الإسلامي في التعامل مع الطلاب أو في علاقاتهم خارج المدرسة. ومنهم من يفتقر إلى عفة اللسان وحسن الخطاب. ومنهم من يكثر الغياب والتخلف عن الحضور إلى المدرسة من غير عذر مقنع. ومنهم من يحث طلابه على التزود من العلم وهو مُعْرِضٌ عن الكتاب والبحث والدرس. وكثير من المُعلِّمين إذا علموا بقدوم الموجهين التربويين أعدوا دروسهم إعدادًا

مختلفًا عن إعدادهم لها في سائر الأيام. وكثيرًا ما تنسب المدرسة أعمالاً فنية إلى طلاب تعلم أنهم لم يقوموا بها... إلخ، هذه الأمور وما شابهها تسيء إساءة بالغة إلى مكانة المدرسة في نفوس الطلاب، والأخطر من ذلك تدريب الطلاب على الكذب والتزييف والازدواجية؛ مما يدمر القاعدة الأخلاقية لدى الطلاب. وسيكون من المؤسف جدًّا أن تَسْلَم المدارس في البلدان الصناعية الملحدة والمادية من كثير من هذه العيوب في حين يغرق فيها كثير من المدارس لدينا!!

إن حديثنا عن هذه التحديات والنقائص لا يقلل من قيمة العمل الذي تقوم به المدارس، ولكننا نريد أن نلفت الأنظار إلى أن هناك أمورًا مهمة في تنشئة الأجيال؛ إذا لم نوفرها في مدارسنا فلن تتوفر في أي مكان آخر.

آفاق الـجـ يـ الـ بـ ي

الشكوى من سوء أحوال التعليم هي المفتاح لتحسُّنه، إنها بمثابة الألم الذي يحسّ به المريض، فيندفع في رحلة العلاج. والمرض الذي لا يصحبه ألم كثيرًا ما يتحول إلى قاتل من النوع الصامت. وإن كل وضعية تعليمية خالية من أي شكوى هي وضعية مريضة أو ميتة. وتعلمنا عقيدتنا وأدبياتنا أن أبواب التحسن تظل أبدًا مشرعة، وأن الله -جل وعلا- ما أنزل داءً إلا أنزل له دواءً.

إن آفاق التجديد أمام المؤسسات التعليمية في حالة من الاتساع الدائم، **وذلك لسببين:**

الأول: كثرة الجهات والعناصر التي باتت على علاقة بعملية التعليم أخذًا وعطاءً وتأثيرًا وتأثرًا؛ وذلك مثل وسائل الإعلام، وسوق العمل، والخطط التنموية... ومن المعلوم أنه كلما كثرت العناصر المكونة لشيء ما أو العناصر المتعلقة به؛ صار أكثر تعقيدًا. ومن طبيعة التعقيد أنه يتيح دائمًا خيارات وبدائل أكثر. ومع الخيارات والبدائل تتسع مجالات التغيير والتجديد.

الثاني: أن الجهات والعناصر والمعطيات المتعلقة بالتعليم في حالة من التغير المستمر، وهي من خلال تغيرها تتيح للتعليم تارة أن يتغير، وتفرض عليه التغيير تارة أخرى. ومع التغيير المرتجى والمفروض يصبح التجديد أمرًا لا مفر منه؛ بالنسبة إلى كل المؤسسات التعليمية التي ترغب في الاحتفاظ بدورها والقيام بمهامها. إن خبرة المدارس بنفسها تتحسن، ووعيها بقدراتها ومشكلاتها يرتقي، وسوق العمل الذي تُعِدُّ منسوبيها له في حالة من التغير المستمر، ومتطلبات سوق العمل من المدارس تتغير، واهتمامات الأهل والطلاب تتغير، ووسائل التعليم والإيضاح هي الأخرى تتحسن وتتطور. ووسائل الإعلام التي تنافس المدارس في التثقيف تتسع وتتكاثر. النظم الإدارية تسير في اتجاه البلورة والنضج

أكثر فأكثر... وكل هذه الأشياء على صلة وثيقة بالتعليم. والتغيير الذي يطرأ عليها يتطلب من المدارس على نحو آلي أن تتجدد في كثير مما لديها.

وهذه إشارات سريعة إلى أهم آفاق التجديد التربوي وآلياته؛ أسوقها في الحروف الصغيرة الآتية:

قول لا بد منه:

من التأمل في طبيعة أمزجتنا ونظرتنا للحياة نجد أن كثيرين منا مصابون بحمى الإنجاز السريع، فنحن نريد أن نتخلص من مشكلات تراكمت عبر قرون خلال سنوات قليلة؛ ولذا فإنه كلما وضعت خطة تربوية جديدة قام كثير منا بتقويمها بطريقة بدائية وحكموا عليها بأنها لم تؤد إلى حدوث أي تقدم!! إن تجديد التربية والتعليم ليس بمثابة تجديد أثاث مترل أو ترميم بناء؛ إنه تجديد في ذهنية القائمين على التعليم، وتجديد في عزائمهم وتجديد في المواقف التي تتخذها الأسرة والمجتمع والدولة من التعليم. وهذه الأمور تستغرق وقتًا طويلاً، وقد تستغرق عمر جيل بأكمله. ولكن علينا أن نكون حذرين من أن تؤدي هذه النظرة الموضوعية إلى إيجاد نوع من التراخي والتسويف، كما يحدث في كثير من الأعمال التي يستغرق إنجازها وقتًا طويلاً.

إن ما يحتاج إليه النهوض بالتعليم ليس طفرات تحديثية ينتظر الناس وقوعها، وإنما التزام دائم بالتطوير والتغيير، والاعتماد على الأعمال الجزئية التراكمية المستمرة؛ وهذا يعني أننا ننظر إلى التجديد على أنه هو الشيء الطبيعي، وليس في هذا مبالغة أو تَزيُّد، فما دام كل شيء يتعلق بالتعليم في حالة من التغير المستمر؛ فما مسوِّغ بقائه جامدًا؟! وبناءً على هذا فإن التغيير السريع الذي يجتاح كل جوانب حياتنا، يجعل كل خططنا ومقترحاتنا لتجديد التربية غير قادرة على حل جميع مشكلاتنا التربوية. وكل ما نرجوه من ورائها هو أن

تحرِّكنا في الاتجاه الصحيح، وتشعرنا بأننا نتقدم ونتحسن. وهذا كله يجعلنا نخفف من النزعة المثالية التي تستولي على كثير منا؛ فالمدارس ستظل تشعر بأن لديها ميزانيات محدودة. وستظل تشعر بوجود نواقص في تجهيزاتها. كما أنها ستظل تُبتلى بمُعلِّمين ومديرين غير أَكْفَاء، أو لا يشعرون بالمسؤولية، أو يقومون بدور تخريبي في العمل التربوي. كما أن سيل الطلاب الذين لم يتلقوا في أسرهم تربية كافية، والطلاب العنيدين المُتعبين، والطلاب الذين يعانون من شيء من الضعف العقلي... إن سيل هذه الأصناف من الطلاب لن ينقطع في يوم من الأيام؛ لأنه مستمد من تكوين إنساني شاءت له الحكمة الإلهية أن يدوم ويستمر.

وهذا يجعلنا نلفت النظر إلى نقطة مهمة؛ هي أن كثيرًا من المشكلات التي تعاني منها دور العلم؛ لا يعود إلى تقصيرها أو ضعف أدواتها، وإنما هي مشكلات تفد إليها من محيطها، ومن النظم القائمة في المجتمع. وهذا يجعلنا ـ مرة أخرى ـ لا ننتظر من المدارس حلولاً كاملة لمعاناتها؛ إذ من غير الممكن أن نتوصل إلى حلول كاملة في وسط غير كامل. سيكون شيئًا مقبولاً أن نستطيع رفع سوية الطلاب، وتحسين مستوى الأداء إلى الحد الذي يجعلنا نشعر بالرضا عند مقارنة أوضاعنا بأوضاع غيرنا؛ ممن نعتقد أنهم متقدمون علينا.

توسيع قاعدة المهتمين بالتعليم:

من المعروف على نحو عام أن كثرة المشتغلين والمهتمين بأي مهنة من المهن أو مجال من المجالات؛ يساعد على ارتقائه ونموه؛ حيث تكثر الأفكار الإبداعية، وتشتعل المنافسة وتكثر الخيارات. وقطاع التربية والتعليم لا يشكل شذوذًا عن هذه القاعدة؛ إذ كلما أمكن للقائمين على المؤسسات التعليمية جذب فئات

اجتماعية أكثر لمعاونتهم استطاعوا أن يعطوا أكثر، وأن يحلوا مشكلاتهم بطريقة أفضل.

أضف إلى هذا أن هذا القطاع أشبه بقطاع الزراعة، فهو لا يستطيع أن ينهض بنفسه من دون مساندة القطاعات الأخرى. وقطاع التعليم قادر على جذب المساعدة بقوة؛ حيث إن للسواد الأعظم من قطاعات المجتمع مصلحة مباشرة بارتقاء المدرسة، والذي يعني تحسن مستوى أبنائهم وتقدمهم. ولا تقتصر استفادة المدرسة من مساعدة الناس لها على الحصول على بعض الآراء النيرة أو بعض المساعدات المادية، بل تتجاوز ذلك إلى ما هو أهم؛ حيث إن من الممكن أن تجد من يعينها على أنفسها؛ من خلال تخليصها من الانغلاق والانكفاء على الذات الذي يسبب لها العفونة والتأسن؛ بسبب بقاء عيوبها بعيدة عن عيون الأهالي، وعن النقد الاجتماعي الذي لا يمكن للمصالح العامة أن ترتقي من غيره.

حتى تُوَسِّع المدرسة من دائرة المهتمين بأعمالها ومشكلاتها؛ فإن من واجب الجميع السعي إلى تشكيل مجلس في كل حي كبير وفي كل قرية، يتألف ذلك المجلس من بعض القائمين على المدرسة، بالإضافة إلى بعض الأشخاص من الدعاة والمثقفين والإعلاميين ورجال الأعمال والمحسنين والوجهاء وقدماء التربويين. وتكون مهمة ذلك المجلس تقديم النصح لإدارات المدارس التي في حيِّه أو بلدته، ومساعدتها على تذليل العقبات التي تواجهها، وجمع الأموال التي تحتاج إليها في تجهيزاتها وبرامجها، وقبل ذلك بلورة أهداف تعليمية مرحلية لها. وأنا واثق من أن ذلك ممكن إذا رحّبت به المدارس وجدّت في إيجاده.

التعبير بالنماذج:

قد تعوَّد التربويون وغيرهم إذا اجتمعوا للحديث عن المستقبل، أو عن التعامل مع بعض المشكلات أن يستعرضوا إمكاناتهم الخطابية، وأن يعبروا عن المثاليات التي يؤمنون بها بالكلمات المنمقة. وبعد مرور عشر سنوات على حفلاتنا الخطابية نكتشف أن شيئًا لم يتغير، لكننا لا نكتشف أن الخطب الرنانة ليست هي السبيل الصحيح لتحسين الأحوال!!

إن العقل البشري لا يتعامل مع الكلمات بجدية كافية، وكأنه يستشعر أن النظام اللغوي يستطيع إلباس الخيالات أثواب الحقائق، وتقديم المستحيلات على أنها ممكنات، وهذا حقيقة. لكننا نعترف بصحة الأفكار والنظريات حين نراها مجسَّدة في هياكل ملموسة؛ ولذا فإن النماذج هي التي تقطع دابر الكثير من الجدل والشك. وعند التأمل نجد أن الأمم لا تتقدم كثيرًا عن طريق الأفكار المجردة إذا كانت فقيرة في النماذج الراقية. والعكس الصحيح.

المُعلِّمون والمديرون والطلاب يحبون أن يروا مدارس يتجسَّد فيها التفوق والتقدم والتحديث. وهذا ممكن إذا أنشأنا مدارس نموذجية تتعلم منها المدارس الأخرى ما ينبغي أن تتعلمه.

هذه المدارس يجب أن تكتسب ميزاتها الأساسية لا من الإمكانات المادية المتاحة لها، ولكن من كونها تتمتع بإدارة حديثة جيدة؛ وبمُعلِّمين صالحين أَكْفَاء، وبطلاب جادين يقدرون المسؤولية.

وإنما نقول هذا لأن المدرسة التي تكتسب تفوقها من التجهيزات التي لديها؛ لا تصلح أن تكون بؤرة للعدوى ونموذجًا للاقتداء؛ لأن من السهل على القائمين على المدارس الأخرى أن يقولوا: لو توفرت لمدارسنا الإمكانات التي توفرت لتلك المدرسة لكانت أفضل منها.

إذا استطعنا أن نقيم في كل مدينة مدرسة نموذجية حقيقية أمكننا أن ننظم إليها رحلات سنوية يقوم بها طلاب المدارس الأخرى؛ ليروا بأعينهم ما يمكن أن يفعله الوعي والإرادة والاهتمام، وليجروا مع إدارة المدرسة وطلابها ومُعلِّميها الحوارات التي تكشف عن ذلك. وعلينا أن نغمر تلك المدارس النموذجية بالأضواء، ونساعدها على المزيد من التفوق، ونضع بعد ذلك خططًا مرحلية لتعميم روح تلك المدرسة وأخلاقياتها ونظمها. علينا كي نفلح في ذلك ألا ننتظر المدارس لتبدأ الخطوة الأولى، فمسؤولية التطوير هي مسؤولية الجميع، والذين يستفيدون منه هم الأهالي في الدرجة الأولى، وعليهم أن يتحلوا بروح المبادرة. وإذا اتبعنا أسلوب: (من يعلق الجرس) في الانتظار والتهرب من المسؤولية، فلن نحصل على أي شيء. قد يكون هذا الأسلوب أفضل أسلوب للتطوير، لكن تحقيقه يحتاج إلى وقت، وعلينا أن نتيحه له.

الاستفادة من الوسائل التثقيفية الحديثة:

من شأن المزيد من التقدم العلمي والتقني أن يتيح المزيد من المرونة والسهولة في الحركة، كما أن من شأنه أن يوفر الكثير من الوسائل والأساليب والخيارات. وهذا ما نلمسه بالنسبة إلى الحقول الإعلامية والمعرفية عامة. إن موقفنا من وسائل الإعلام هو الذي يجعلها أداة منافسة للمدرسة، أو يحولها إلى أداة مُعِينة ومساعدة لها. ويجب أن نعترف أن المنافسة بين المدرسة والوسائل الإعلامية ستظل موجودة لما ذكرناه من قبل عند الحديث عن التحديات. ولكن بموقف ذهني جديد وبتطوير مواكب يمكن للمدارس أن تستفيد فوائد جليلة من التقدم العلمي في وسائل البث والاتصال. إن قليلاً من التأمل والعمل سوف يجعلنا ندرك أن البث الفضائي وشبكات المعلومات والجرائد والمجلات الإلكترونية تمكننا من إحداث ثورة في مجال التعليم، فقد صار في الإمكان تعميم الأفكار التربوية عبر الفضائيات على نحو لم تبلغه الأحلام في الماضي. وماذا نريد أكثر

من أن يتمكن المربون من لفت أنظار عشرات الملايين من المسلمين إلى قضية تعليمية أو تربوية مهمة؟! وماذا نريد أكثر من أن يتاح للمهتمين بالإصلاح التربوي مناقشة مشكلات التربية مع ملايين الناس عبر تفاعل حي مباشر؟!

قد صار بإمكان كل مدرسة أن تؤسس موقعًا على (الإنترنت)، وتوصل عبره لطلابها وذويهم كل ما تريده من معلومات وأفكار، وتتلقى في الوقت نفسه منهم مقترحاتهم وآراءهم تجاهها. وإلى جانب هذا فقد صار بإمكان الدول والهيئات التربوية أن تبث عبر الفضائيات كل المعلومات التي تنطوي عليها الكتب والمقررات الدراسية. وقد بدأت بعض الدول العربية ببث منظم لجميع مقررات سنوات الدراسة في مدارسها، من الابتدائي حتى الثانوي؛ مما يمكّن كلَّ مَنْ في البيوت من أن يتلقوا عين المعارف التي يتلقاها الطلاب في المدارس؛ وليس هذا بالشيء القليل.

قد يحتاج هذا إلى تشكيل مجلس ثقافي يجمع بين التربويين والإعلاميين في كل بلد، وتكون مهمته فتح حقول للتشاور والتعاون والتنسيق بين الطرفين من أجل التقريب إلى أقصى حد ممكن بين مضمون الرسالة التربوية والرسالة الإعلامية. وما هذا بالأمر العسير أو المتعذر؛ ولكنَّ داءنا الدوي الذي عانينا منه قرونًا، وما زلنا نعاني منه هو فقد الاهتمام؛ إذ إن كل الآفاق المتاحة للتطوير والتغيير تظل غير ذات معنى بالنسبة إلى أشخاص لا يكترثون بأي شيء!

تكوين الشخصية:

إذا تأملنا في أحوال الأمم المنحطة وجدنا أنها لا تعاني من نقص في العلم والخبرة والوسائل على نحو جوهري، ولكنها تعاني من تدهور في النظم التي تحكم حياتها؛ أي كل ما يمنحها سمة (أمة محترمة). وانهيار النظم السياسية والاجتماعية والأخلاقية في أمة أو مجتمع لا يحدث قبل أن يحدث نوع من

التراجع أو التدهور في شخصيات الأفراد؛ أي في الصفات التي لا تستقيم الحياة الفردية والاجتماعية من دونها. وإذا تأملنا في اهتمامات مدارسنا وجامعاتنا وجدنا أنها تكاد ألا تعطي أي وزن لقضية تكوين الشخصية المسلمة. ولا يعني هذا أن التربويين لا يعرفون أهمية ذلك، فهم يؤمنون به إيمانًا قويًّا، لكن ذلك لا ينعكس على برامج المدارس وأنشطتها وتدريباتها. ويبدو أن ذلك بسبب كثرة ما يتطلبه بناء الشخصية الجيدة من جهد ووقت ومال؛ إذا ما قورن بما ينفق على الكتب أو المختبرات...

لن ينتفع الطلاب كثيرًا من وراء مادة تحث على التحلي بالأخلاق الفاضلة؛ لأنهم يستمعون في خطب الجمعة وفي أحاديث كثيرة في نطاق الأسرة والأقرباء الكثير عنها. إن الذي يفيد حقًّا هو توسيع مجال الحوار مع الطلاب وإعطائهم فرصًا أكبر للتعبير عن همومهم وطموحاتهم، بالإضافة إلى ملاحظة دقيقة من المُعلِّمين لسلوك الطلاب -ولا سيما الصغار منهم- حتى يشجعوهم على الاستمرار في أعمالهم ومواقفهم الجيدة، وينبهوهم على الأخطاء التي قد يقعون فيها. وهذا كله سيظل محدود الفائدة ما لم نفسح مجالاً أوسع للتدريب والتطبيق العملي؛ لأن أخلاق الطلاب الحقيقية لا تظهر على نحو جيد وهم صامتون يتلقون المعلومات من أساتذتهم، وإنما تظهر حين يُكلَّفون بأعمال يتطلب تنفيذها الجدية والمثابرة والصبر والدقة. والأخلاق الاجتماعية من نحو التعاون، والتسامح، والمجانية، والعمل بروح الفريق، والقيادة، وتحمل المسؤولية، والمبادرة.. وما شاكل ذلك - لا تظهر إلا حين يعمل الطلاب في مجموعات تحت إشراف مُعلِّميهم؛ ولذا كان من الأهمية بمكان إثراء اليوم الدراسي بالأنشطة والتطبيقات العملية المختلفة، كما أن من المهم دائمًا إيجاد آلية لتقويم تلك الأنشطة، وجعل نصيب جيد من درجاتها للجانب الأخلاقي خاصة، وجانب الشخصية عامة. ومع هذا وذاك -وكما نقول دائمًا- فإن تنشئة أبنائنا على هذه

المعاني تتطلب أن يلمسوها فينا معاشر الآباء والمُعلِّمين. وكم هو جميل أن نربي أنفسنا وأبناءنا في آن واحد، فتكون الثمار التي نحصدها وفيرة مضاعفة!

لا يتوقف كل تجديد على المال:

أود أن أقول قبل كل شيء: إن هناك مشكلات كثيرة لا يحلها إلا المال؛ إذ من الصعب من دون حد أدنى من أمور كثيرة تشكيل بيئة تعليمية مناسبة؛ حيث لا يمكن اجتذاب مُعلِّمين جيدين بمرتبات تقل عن مرتبات نظرائهم في المجالات الأخرى. كما أنه من الصعب توفير تعليم جيد في فصول دراسية مزدحمة جدًّا أو حارّة جدًّا... لكن نقول في المقابل: إن هناك مدارس كثيرة تُوفر لها كل الإمكانات المادية المطلوبة، ومع ذلك فإن مستوى خريجيها أقل من مستوى خريجي مدارس كثيرة لا تملك سوى القليل من الإمكانات. وأسباب هذا معروفة؛ إذ إن جودة التعليم مدينة لعدد معقد من العوامل؛ وحين يضعف بعض العوامل أو ينعدم؛ فإنه يمكن أن تعوض عنه القوة في عوامل أخرى؛ كما يعوض بعض الناس عن حرمانه من الموهبة بمزيد من الجدية والمثابرة.

والحقيقة أننا قد تعودنا أن نبحث دائمًا عن أمور نسوّغ عجزنا وتقصيرنا بها، ونحن نحاول من خلالها إقناع الآخرين أن انخفاض مستوى إنتاجيتنا هو أمر طبيعي. وهذا ملموس وواضح في كل مجالات حياتنا، وهو يجافي الصدق مع النفس.

وقد ثبت في بعض المقارنات والمسابقات الدولية أن اليابان تقدم تعليمًا مدرسيًّا أفضل مما تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية، مع أن الفصول الدراسية في اليابان أكثر ازدحامًا بالطلاب، والواجبات التي يكتبها الطالب الياباني أقل. والمباني المدرسية اليابانية متقشفة جدًّا إذا ما قورنت بالمدارس الأمريكية.

وتأبى الهند إلا أن تقدم نموذجًا فذًّا لما يمكن أن يفعله الإصرار والإتقان ووضوح الرؤية في ظروف بالغة الصعوبة؛ فقد تبلور لدى قادها ضرورة إيجاد مؤسسات علمية عالية المستوى؛ يتولى خريجوها قيادة المسيرة العلمية والتقنية في البلاد، فأنشأت معهد الهند التقني (IIT) مستندًا إلى نموذج المعهد الأمريكي التقني الشهير (MIT). ونظرًا لقلة المال الذي بين أيديهم لم يستطيعوا تشييد مَبانٍ خاصة بالمعهد، فحوّلوا مبنى قديمًا كانت تستخدمه بريطانيا في سنوات الاحتلال لسَجْن الهنود ليكون مقرًّا للمعهد. ومن اللافت والجدير بالتأمل أن هذا المعهد استطاع إمداد قطاعات المصارف العالمية وخطوط الطيران الكبرى وشركات الحاسب الآلي المتقدمة بأعداد من الموهوبين الهنود. وتقديرًا لموهبة أولئك الخريجين عهد إليهم سوق المال في (وول استريت) باستحداث أوعية استثمارية جديدة، تخضع لرياضيات بالغة التعقيد. وقد قالت مجلة (نيوزويك): (إن معاهد التقنية الهندية استطاعت أن تصنع جيلاً فذًّا من خلال تلقيهم برامج دراسية صعبة وذات مستوى رفيع؛ مما جعل خريجيها سادة حل المعضلات التقنية).

ويذكر أحد التقارير أنه نظرًا لشدة فقر الطلبة الهنود، فمن العادي جدًّا أن يشترك (25) طالبًا في كتاب واحد؛ حيث يقومون بتبادله وتصوير أجزاء منه. ومع ذلك يحقق هؤلاء الدارسون التفوق الواضح، والذي دفع بعض الجامعات الأمريكية ذائعة الصيت إلى أن تكتب إلى المعهد المشار إليه وفروعه العديدة عارضة منحًا دراسية لخريجيها لإكمال دراساهم العليا فيها. بل إن جامعة (ماريلاند) أبدت استعدادها لاستيعاب كل الخريجين وإعطائهم منحًا للدراسة فيها!

قد آن الأوان لأن نبحث في قصورنا الثقافي، وقصورنا التربوي؛ لندرك مدى الحرمان الذي أصابنا بسبب تقاعس الهمم، وبسبب الفوضى والجهل

والأوهام التي كبَّلْنا أنفسنا بها. إن العقبات المادية تظل عقبات بحسب حسابها، لكنها لا تؤثر تأثيرًا واضحًا إلا عندما يتعامل معها أشخاص لا يتمتعون بالإرادة الصلبة، وأشخاص عقدوا العزم على ألا يقوموا بأي عمل يؤثر في راحتهم وتمتعهم بالحياة!

رؤية أشمل:

المدارس والجامعات تقوم بأعمال مهمة للغاية، ويكفيها أنه لا يمكن لأي إنسان في زماننا أن يكون له شأن ونفوذ في الحياة العامة من غير أن يتتلمذ فيها أو يقبس شيئًا مما لديها. ونظرًا لتغير كثير من التحديات التي تواجه الأجيال الجديدة؛ فقد بات من المهم جدًّا العمل على أن نبني لديهم رؤية شاملة للحياة، تنطلق من أفق معتقداتنا ومبادئنا، ثم مما تراكم لدى العالم من خبرات قيمة.

كثيرًا ما تركز الجامعات والمدارس على التخصص الجزئي والمعارف المتناثرة، ولا تهتم بتشكيل نظرة كلية تمكّن الطالب من فهم عميق لأوضاع عصره؛ بما تشتمل عليه من فرص وتحديات ومخاطر وتحولات، فيتخرج الطالب وهو يعرف أشتاتًا من المعلومات حول قضايا وموضوعات لا تُحصى، لكنه فقير إلى حد الإدقاع في معرفته بمسؤولياته تجاه نفسه وأهله ودينه وأمته، وفقير في معرفة الأولويات التي عليه أن يتحرك على أساسها.

وإذا أردنا أن نكون صريحين مع أنفسنا، فإن علينا أن نقول: إن كثيرًا من المدارس والجامعات لا تستطيع في أوضاعها الحالية أن تقدم الكثير لطلابها في هذا الشأن؛ لأن كثيرين من أساتذتها ومُعلِّميها غارقون في تخصصاتهم، ويفتقرون إلى الانتباه والتركيز على أشياء عديدة مما يفتقر إليه طلابهم؛ ولذا فإن تلك المؤسسات مطالبة بأن تغني نفسها أولاً بالمفهومات والأفكار النهضوية المعاصرة قبل أن تشرع في عمل شيء لطلابها.

وإني أقترح إعداد برنامج للقاء حواري شهري، يقوم فيه واحد أو اثنان من المدرسين بالتحضير لقضية تربوية أو فكرية أو اجتماعية أو حضارية، ويتم طرح القضية أمام المدرسين، ويجري فيه حوار علمي وفكري معمق. ويمكن لطلاب السنة الأخيرة حضور ذلك الحوار والمساهمة في إثرائه. وقد نفذت هذا البرنامج بعض الكليات والمدارس، وكان له أثر عظيم في رفع درجة الوعي لديها.

كما أنه بالإضافة إلى هذا يمكن للطلاب الاستماع كل نصف شهر إلى أشرطة مسجلة تناقش بعض القضايا، ثم إدارة نقاش حول ما تم سماعه وتلخيص ما تمت بلورته. ويمكن بالإضافة إلى هذا وذاك تكليف بعض الطلاب بتلخيص بعض الكتب الجيدة، وعرض ذلك التلخيص أمام زملائهم خلال الأنشطة غير الصَّفِّية، ويشجَّع الطلاب على مناقشة الأفكار المطروحة.

إن هناك الكثير مما يمكن عمله من أجل توسيع قاعدة الفهم وتكوين رؤية شاملة لدى الطلاب، ولكن الذي يحول دون إدراك ذلك وتنفيذه هو نقص في درجة الوعي والاهتمام لدى كثيرين منا.

معاونة الأسرة في مهامها:

نحن نطمح إلى إعداد جيل بمواصفات عالية؛ فهل الأسر لدينا مؤهلةٌ للقيام بذلك؟

لا شك أن في الأمة الكثير من الآباء والأمهات الذين يقومون بواجباتهم التربوية على أحسن وجه؛ لكن هناك أيضًا الكثير من الأسر التي تمارس أساليب تربوية عفوية؛ لا تستند إلى أي أسس علمية، بالإضافة إلى أنها لا تملك إلا القليل من المفهومات والحساسيات التي تؤهلها لتقديم تربية معاصرة. وليس في هذا مبالغة، فنسبة الأمية التي تزيد على 70 ٪ في بعض الدول الإسلامية كافية بمفردها لجعل كثير من الأسر لا تعرف شيئًا عن الخبرات التربوية الجديدة.

إن تربية طفل لا تشبه تشييد بناء حيث نملك توقيت القيام به، إنها فرصة لا تتكرر، ولا يمكن إيقاف نفادها. والسنوات الخمس الأولى في حياة أي طفل تشكل أهم مرحلة تربوية في حياته، وينبغي ألا يسمح للأُسَر الجاهلة والأسر التي يغلب عليها الانحراف بالانفراد بتربية أبنائها في تلك السن الحساسة؛ فتؤذي أبناءها في البداية، والناس في مجتمعها في النهاية. والسبيل الذي يكاد يكون وحيدًا لمساعدتها؛ يتمثل في قيام الدولة، والمؤسسات الأهلية المختلفة، وفاعلي الخير ورجال الأعمال بتشييد المحاضن التربوية التي تثقف العقل، وتوجه السلوك، وتؤسس العادات الحميدة لدى الأطفال.

إن لدى قادة اليهود في فلسطين المحتلة قناعة راسخة بأن معظم الأسر اليهودية غير مؤهلة لتربية أبنائها التربية التوارتية المطلوبة؛ ولذا فإنهم لم يساعدوا الأسر على تربية أبنائها، وإنما شيدوا دور التربية التي تأخذ على عاتقها الحلول محل معظم الأسر، بل إن هناك آمالاً في تنشئة جيل لا يتم تحصينه من تأثير الأهل فيه فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى أن يكون مؤثرًا فيهم، وناقلاً للأفكار والعادات الجيدة إليهم. ومن أجل تحقيق ذلك توسعوا توسعًا كبيرًا في بناء رياض الأطفال؛ حيث بلغت نسبة القيد فيها100 ٪ لسن (5) سنوات و 97 ٪ لسن أربع سنوات و87 ٪ لسن ثلاث سنوات. وإلى جانب ذلك أقاموا العديد من النوادي، ومدن الأطفال، وزوايا اللعب، ومراكز الشبيبة، ونوادي العلم والثقافة التي تهدف إلى تعريف الأطفال في سن مبكرة على الفنون التقنية بواسطة ممارسة الهوايات. ونحن نستطيع عمل الكثير من ذلك بالإضافة إلى إمكانية الاستفادة من المساجد في إقامة حلقات تربوية متميزة؛ يتعلم فيها الأطفال قراءة القرآن الكريم، ويتشربون من خلال معايشة المشرفين عليها القيم والآداب الإسلامية، ويطَّلعون من خلالها على بعض المعلومات المفيدة.

الشفافية نحو سوق العمل:

لا نختلف في أن للعلم ـبقطع النظر عن أي اعتبارـ فائدته المطلقة ومتعته الخاصة، بل إن الشغف الحقيقي بالعلم لا يتوفر في أكثر الأحيان لدى الذين يريدون من ورائه منافع مادية. ولكن علينا ـإلى جانب هذاـ أن نعترف أنه ما كان للعلم أن يتطور ويتقدم ـبالشكل الذي هو عليه الآنـ لولا أنه أضحى وسيلة مهمة جدًّا لكسب الرزق على المستوى الفردي، ولولا أنه مصدر هائل لثراء الأمم ونهوضها.

في أيامنا هذه صار الحصول على عمل جيد متوقفًا إلى حد بعيد على درجة ما يحصل عليه المرء من علم ومهارة وتدريب. ومن المؤسف أن يكون أكثر العاطلين عن العمل في وطننا العربي من خريجي الجامعات وحملة الثانوية العامة. وإذا تأملنا في أحوالهم وجدنا أن سبب بطالتهم لا يعود على نحو جوهري إلى عدم وجود فرص عمل، وإنما يعود إلى عدم أهليتهم لشغلها؛ وذلك لأن الإعداد العلمي والمهني الذي تلقوه لم يأخذ ـفي كثير من الأحيانـ بعين الاعتبار حاجات السوق، ولا الاتجاهات الوظيفية التي تمضي فيه؛ لهذا فإن جزءًا مهمًّا من التطوير التربوي والتعليمي يجب أن ينصرف إلى تطوير ما تقدمه المدارس والجامعات من تعليم وتدريب؛ حتى لا يقع المتخرج منها في براثن البطالة والعطالة.

وقد قامت بعض الجامعات العربية بتطبيق برنامج (من الجامعة إلى المصنع). وقد لقي ذلك صدى حسنًا في سوق العمل، وصارت الشركات والمصانع تتخطف خريجيها، وتدفع لهم أجورًا مجزية. كما قامت دُول عدة، منها ألمانيا واليابان بتطبيق برنامج (من المدرسة إلى العمل)، ويركز ذلك البرنامج ـكما في ألمانياـ على تنمية المهارات المهنية والشخصية، إلى جانب الأخلاقيات التي يتطلب العمل الجماعي التحلي بها. فعلى صعيد المهارات المهنية يركزون في

التدريس والتدريب على أساسيات الحاسب والقدرة على الطباعة، وعلى الاستعداد للتدريب، بالإضافة إلى التدريب على التفكير الجيد والإبداع. ويركزون على صعيد المهارات الشخصية على القدرة على وضع المقترحات وتنفيذها، وعلى الثقة بالنفس وامتلاك الطموح، بالإضافة إلى الاستعداد للعمل والتطور. ويركزون في مجال الأخلاقيات والمهارات الاجتماعية على حب العمل الجماعي، وعلى القدرة على التخاطب والقيادة والواقعية والقدرة على التكيف. وأعتقد أن مثل هذا البرنامج لن يجعل الطالب أكثر أهلية للحصول على عمل فحسب، وإنما سيطرد عنه الإحباط الذي يصيبه نتيجة شعوره بأنه يبذل جهودًا في تعلم علوم لا تساعده على شق طريقه في الحياة.

إن التعليم لدينا يتطور بسرعة سلحفاة، وحاجات السوق تتطور بسرعة طائر؛ ولذا فإن الخريجين يجدون أنفسهم دائمًا بعيدين عن فهم واقع العمل وتلبية متطلباته!

ويؤسفني القول: إن بعض الدول الإسلامية تشهد اليوم نوعًا من الردة عن الاهتمام بالتعليم؛ حيث يُخرِج كثير من الناس أبناءهم من المدارس في وقت مبكر؛ لأنهم وجدوا أنها لا تُعِدُّهم للحصول على عمل يرتزقون منه. وهذا يشكل -فيما لو استمر- خطورة بالغة على تقدم الأمة ونهضتها.

هذا ما أردت قوله في هذا الكتاب. ونظرًا لالتزامي بألا يكون حجم الكتاب كبيرًا؛ فإن هناك قضايا جوهرية لم أتمكن من طرقها، وقضايا أخرى مهمة مسستها مسًا خفيفًا، وآمل أن أتمكن من تناولها في المستقبل. وإني لأسأل الله -جل وعلا- أن يتقبله بقبول حسن، وأن ينفع به المسلمين؛ إنه ولي ذلك والقـــادر عليه.

وصلى الله وسلم على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع مـ ارة

1ـ التربية التحليلية، د. سعيد إسماعيل على. القاهرة، عالم الكتب. عام 1997م.

2ـ التعليم الياباني والتعليم الأمريكي (دراسة مقارنة)، د. إدوارد بيو شامب، ترجمة محمد طه علي. الرياض، دار المعرفة للتنمية البشرية. ط/ أولى عام 1420هـــ.

3ـ التغيير المنهجي للقرن الحادي والعشرين، هارولد شين، ترجمة د. عبد اللطيف فرج. ط/ أولى عام 1414هــ.

4ـ حول التربية والتعليم، د. عبد الكريم بكار. دمشق، دار القلم. عام 1422هـــ.

5ـ القراءة المثمرة، د.عبد الكريم بكار. دمشق، دار القلم. ط/ ثانية. عام 1420هـــ.

6ـ مجلة (المعرفة) الصادرة عن وزارة المعارف، بالمملكة العربية السعودية (أعداد مختلفة).

7ـ مدخل إلى التربية في ضوء الإسلام، عبد الرحمن الباني. بيروت، المكتب الإسلامي.

8ـ مرصد الأرقام ـ ملحق سنوي يصدر عن مجلة البيان. محرم 1422هــ، إعداد حسن قطامش.

9ـ معالم من الفكر التربوي عند علماء المسلمين، د. أحمد محمد الخراط. مكة المكرمة ـ سلسلة دعوة الحق. ط/ أولى عام 1418هـــ.

10ـ المُعلِّم أمة في واحد، إيرل بولياس وجميس يونغ، تعريب إيلي واريل. بيروت، دار الآفاق الجديدة.

مل الأف ار والمقولات العامة

الفكرة أو المقولة العامة **الصفحة**

فه س الـ ضـ عات